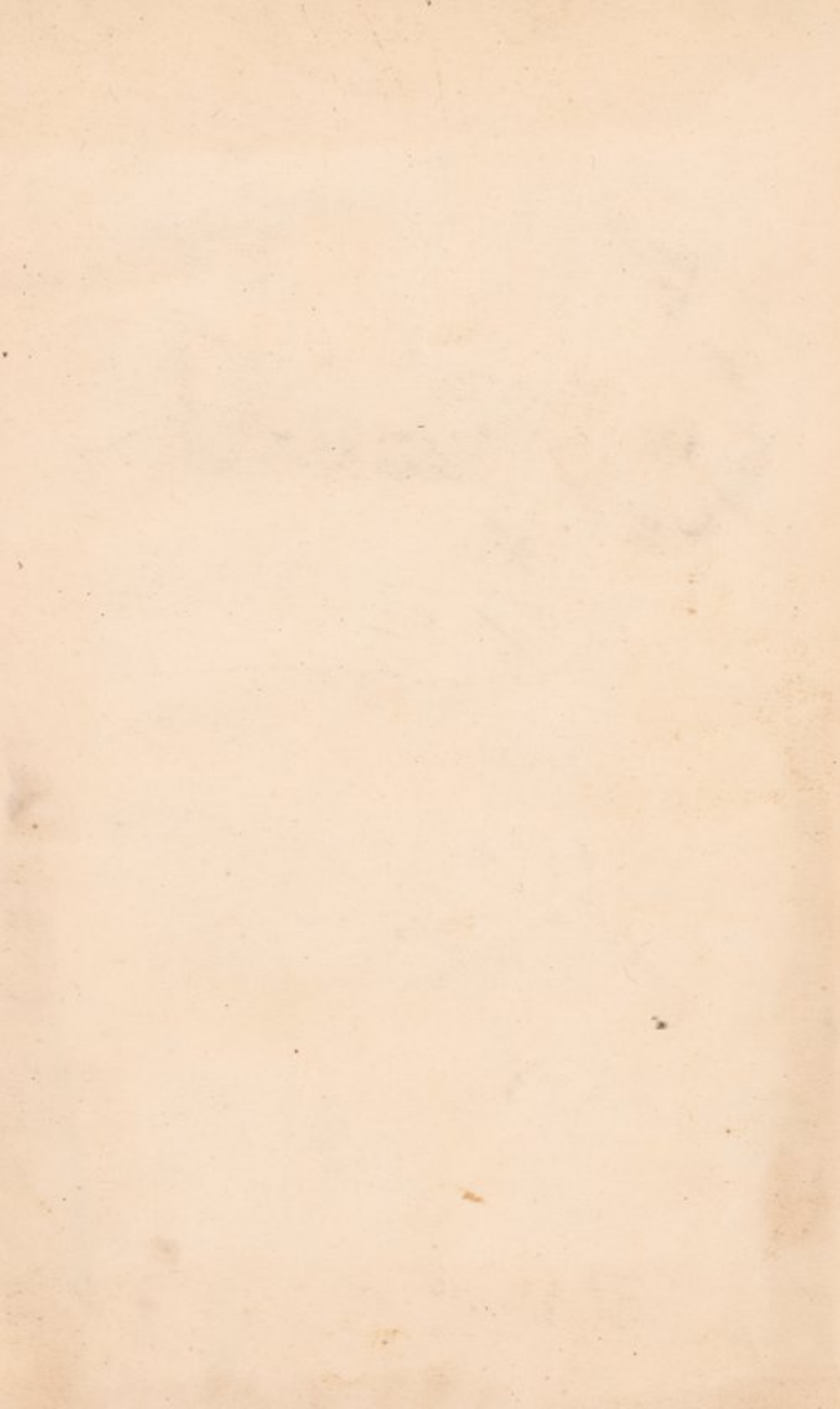


813
S2945A

U.S. LIBRARY





شبن

الفارس المجهول

تأليف
چاک و شيفر
رأف

الصور من وضع چون ماكوريماك

ترجمة
الدكتور محمد أبو طائلة

نشر بالاشتراك مع مؤسسة
فرانكلين للطباعة والنشر
بالقاهرة ونيويورك

هذه الترجمة مرخص بها

وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق
وتنازلت عنها لدار أخبار اليوم

This is a translation of « Shane » by Jack Schaefer.

Copyright 1949, by Jack Schaefer.

Copyright 1954, by John Mc Cormack.

الغريب القادِم



جاء الى وادينا ممتطيا صهوة جواده . وكان ذلك في صيف سنة ١٨٨٩ . وكنت اذ ذاك طفلا ، لا تكاد قامتي تعلو على اللوحة التى فى مؤخرة سيارة أبى القديمة - تلك التى اذا سارت أحدثت صوتا كقرق الدجاج ... وكنت جالسا على الحاجز الاعلى من حظيرتنا الصغيرة ، أستمتع بالشمس عصرا ، واذا بى اراه قادما على بعد ، حيث تنحرف الطريق من السهل المكشوف الى الوادى .

وفى جو ولاية « ويومنج » الصافى - حيث موطننا - كنت اراه بوضوح، مع انه كان لازال على مسافة عدة أميال من حيث ارقبه . ولم يكن فيه ما يسترعى الانتباه ، وانما كان واحدا من الفرسان الشاردين ، يسلك الطريق صعودا نحو تلك المجموعة من الابنية الخشبية التى كانت تتكون منها بلدتنا . ثم رأيت اثنين من رعاة البقر يمران به ، ثم يقفان ويتفرسان فيه من خلف ، باهتمام ظاهر .

ومضى قدما فى سبيله، مخترقا البلدة دون أن يعطى السير، حتى بلغ مفرق الطرق الذى على بعد نصف ميل من بيتنا . وكان احد فرعى الطريق ينحرف يسارا عبر النهر ، ويؤدى الى مراعى « لوك فلتشر » الواسعة . أما الفرع الآخر فيمضى على الشاطئ الثانى حيث غرسنا نحن أصحاب المنازل صفا من الاوتاد فى الارض لتبين حدود الاراضى التى وضعنا أيدينا عليها فى ذلك الوادى . ووقف لحظة ليرى أى الطريقين يسلك ، ثم غمز جواده قادما نحونا .

ولما اصبح على مقربة ، كانت ثيابه أول ما استرعى نظرى . وكان

يرتدى سراويل داكنة اللون ، من قماش صوفى خشن ، تنتهى الى
حذائين طويلين ، ويمسك بهافى وسطه ، حزام عريض ، وقد
صنع الحذاءان والحزام من جلد أسود ناعم مزركش . وكانت ثمة
سترة من نفس القماش الداكن الذى حيكث منه السراويل ،
وقد طويت بعناية وعلقت بالسرّج . وكان يلبس قميصا من كتان
حسن النسيج ، أسمر اللون . وكان المنديل المتدلى من عنقه دون
ضغط ، من حرير أسود . أما قبعته فلم تكن من طراز «ستتسون»
المالوف ، ولا كان لونها هو اللون الرمادى أو لون الطين كما هو
المعتاد عند أمثاله من رعاة البقر ، بل كانت سوداء عادية ، ناعمة
النسيج ، مختلفة عن أية قبعة أخرى رأيتها قبلا ، وكانت ذات ثنية
فى أعلاها ، ولها حافة عريضة منحنية من أمام لكى تقى وجهه .

وكانما ولى كل أثر من الجدة من هذه الاشياء ، منذ زمن طويل ،
وقد تخللها كلها تراب من سفر بعيد . وكانت بالية ، تعلوها
بقع كثيرة ، ويعتور القميص عدة رقع ظاهرة . ومع هذا كان مظهره
لا يخلو من جلال ، وقد تبينت فيه صنفا من الرجال والسلوك ، كان
غريبا على غلام مثلى .

ثم نسيت الثياب وسط اهتمامى بالرجل نفسه . وكانت قامته
لا تعلو كثيرا على قامة متوسطة ، وكان جسمه أقرب الى النحافة
يبدو ضئيلا اذا قيس بأبى أبى الذى هو ربة الجسم ، متين
التكوين . ولكنى مع هذا رأيت قوة الاحتمال فى خطوط ذلك
الجسم الاسمر ، وتبينت القوة الهائلة فى موامته ، دون جهد أو
تفكير ، ليكل حركة من حركات جواده المجهد .

وكان حليق الوجه . . وهو وجه نحيل ، جامد القسّمات ،
قد لفحته الشمس من أعلى جبهته الى أسفل ذقنه الصارم الدقيق .
وبنت عيناه كأنهما مغمضتان فى ظل حافة قبعته ، حتى اذا اقترب
بدا لى أن سبب ذلك هو انه كان مقطبا حاجبيه ، فى عبوس يقظة
معتادة . . وتحت حاجبيه كانت عيناه لا تفتآن تنظران من جنب
الى جنب ، والى أمام ، تفحصان كل ماتقعان عليه ، دون أن يفوتهما



« كنت أراه بوضوح ، مع أنه كان لا يزال
على مسافة عدة أميال من حيث أرقبه »

شيء . . ولما لحظت ذلك ، شعرت بقشعريرة مفاجئة لم أدر لها سببا ، وسط دفء الشمس الساطعة !

وكان يركب جواده فى يسر ، مسترخيا فوق السرج ، مائلا بجسمه فوق الركاب فى تراخ . ولكن هذا اليسر كان ينم عن قوتر ، فهو أشبه بالاسترخاء الذى لزنبرك ملفوف ، أو لفخ منصوب . . .

ثم جذب عنان الجواد على مسافة عشرين قدما أو أقل ، من حيث كنت . واحتوتنى نظرتة ، ثم تخطتنى فأحاطت بالمكان كله ، ولم يكن هذا بالكثير اذا قدرته بالحيز والمجال . ولكنه كان مكانا طيبا ، والفضل فى ذلك يرجع الى أبى . وكانت الحظيرة تكفى لايواء ثلاثين رأسا اذا حشدتها فيها ، ولها حواجز تتخللها أوتاد مغروسة فى الارض . ووراءها مرج حوله سياج وثيق ، ويشغل نحو نصف الارض التى وضعنا أيدينا عليها . وكان مخزن المحصولات صغيرا ، وقد بدأنا نقيم فوقه غرفة علوية لنخزن بها البرسيم الذى كان ينمو غزيرافى تلك المنطقة . وكان لنا حقل لابأس بمساحته ، وقد زرع بطاطس فى تلك السنة ، وكان أبى يجرب زراعة نوع جديد من القمح كان قد أرسل فى طلبه الى واشنطنجتن ، على بعد الشقة ، وقد بدأ ينمو فى صفوف خالية ، لايكتورها عشب طفيل .

وخلف دارنا حديقة المطبخ الاثيرة عند أمى ، وقد كانت حقا رائعة . والدار نفسها مؤلفة من ثلاث غرف ، بل من اثنتين فى الواقع ، وهما المطبخ الفسيح الذى كنا نقضى فيه معظم الوقت الذى نمضيه بالبيت ، وغرفة النوم المجاورة له . أما حجرتى الصغيرة فقد أضيفت الى ظهر المطبخ . . . وكان أبى يعترزم تشييد قاعة الجلوس التى طالما طلبتها أمى ، حين يتاح له ذلك . . . وكانت أرض البيت من الحشب ، وأمامه سقيفة جميلة . وكانت دارنا مطلية أيضا بطلاء أبيض مع ظلال خضراء ، وهو أمر نادر فى تلك الارحاء ، ولكن أمى أغرت أبى بعمل ذلك الطلاء ، لكى

يذكرها بموطنها في نيوانجلاند . وكان سقف الدار مغطى بخشب
كالقرميد ، وهو أمر أكثر ندرة هناك . . . وكنت قد ساعدت أبي
في شق تلك الأخشاب وتقطيعها . وفي تلك الأيام كان يصعب عليك أن
تجد كثيرا من أمثال بيتنا في تلك المناطق الموعلة في داخل «الغرب» .

وقد أحاط الغريب القادم بذلك كله ببصره ، وهو جالس فوق
جواده في استرخاء . ورأيت عينيه تستقران لحظة على الأزهار
التي كانت أمي قد زرعتها على جانبي درج السقيفة ، ثم تنتقلان
إلى الطلمبة الجديدة اللامعة ، والحوض الذي بجوارها . ثم عاد
ينظر إلى ، فعدت أشعر بتلك القشعريرة المفاجئة ، دون أن
أدرى لها سببا . ولكن صوته كان رقيقا ، وكان يتكلم كرجل
اعتاد الصبر والاناة . . . وقال : - بودى لو أعطيت فرصة لاطفاء
ظمأى وظمأ هذا الجواد من تلك الطلمبة !

وحاولت أن أجد له جوابا ، وأحسست بزورى يضيق به ،
وإذا بي أدرك أنه لم يكن يوجه كلامه إلى ، بل كان يرسله ورائي
فقد جاء أبي ووقف خلفي ، مستندا إلى باب الحظيرة .

وقال له أبي : - انهل من الماء قدر ماتريد ، أيها الغريب !
ورقبناه ، أنا وأبي ، وهو يهبط من فوق الجواد في قفزة
واحدة ، ثم يقود الحصان إلى الحوض . وقد أعمل الطلمبة حتى
ملا الحوض تقريبا ، ثم جعل الجواد يغطس أنفه في الماء
البارد ، وذلك قبل أن يلتقط الدلو لنفسه .

وخلع قبعته ، ونفض عنها التراب ، وعلقها بركن من
الحوض . ثم نفض يديه التراب عن ثيابه . وأخرج من قراب
السرّج خرقة مسح بها حذاه في عناية . وفك المنديل الذي حول
عنقه ، وثنى كفيه ، ثم وضع ذراعيه في الحوض ، وغسلهما
جيّدا وهو يهيل الماء على وجهه . ثم هز يديه لتجفأ ، ومسح بالمنديل
النقط الأخيرة التي على وجهه . ثم أخرج من جيب قميصه مشطا ،
وجعل يسوى به شعر رأسه . وكانت حركاته كلها تدل على

حذق وثقة بالنفس ، ثم أعادكميه الى حالهما ، وعقد المنديل حول عنقه والتقط قبعته ، كل هذافى سرعة واتقان .

أمسك بقبعته فى يده ، ومضى بخطوات سريعة نحو الدار . وانحنى فالتقط ساق نبات من « البتونيا » مما زرعه أمى ، ووضعها فى شريط قبعته . ولم يلبث حتى وضعها فوق رأسه ، وقد جعل نأرفها مائلا ، فى حركة لاشعورية ، وقفز برشاقة ، الى ظهر الجواد ، وتأهب للمسير .

لقد خلب لى مارأيته . . . فان أحدا ممن عرفتهم لم يكن هكذا معتزا بمظهره . وفى تلك البرهة القصيرة من الوقت ، تبين لى نوع ذلك الجلال الذى كنت قد لمحتة عن بعد كان مائلا فى الجو المحيط به . أن كل شيء فيه يدل على أثر العادة الطويلة القاسية . . . كما يدل على القدرة والكفاية . ولم تكن بى الآن قشعريرة ، من خوف ، بل كنت قد بدأت أتصور نفسى لابسامثل تلك القبعة ، وهذا الحزام ، وذلك الحذاء !

ووقف الجواد عن السير ، ونظر إلينا من عل . وكان قدولى عنه أثر التعب حتى لا أكاد أقسم ان الغضون التى حول عينيه قد أصبحت أشبه بابتسامة . . . ولم تعد عيناه قلقتين اذ ينظر اليك هكذا . . . بل استقرتا حتى لتحس انه قد حصر فيك انتباهه كله ، ولو فى نظرة عابرة .

وقال بصوت رقيق : « شكرالكم » ، واستدار نحو الطريق مخلفا ايانا وراءه ، فقال له أبى بصوته الهادى الرصين : « لاتكن عجولا هكذا أيها الغريب » .

وأمسكت بالحاجز كيلا أقع على ظهري فى الحظيرة ، فان أبى لم يكذب يلفظ أول كلمة حتى استدار الرجل والجواد ، وكأنهما جسم واحد ، ليواجهانا من جديد ، ونظرت عينا الرجل الى أبى نظرة عميقة نافذة ، فى ظل طرف قبعته . وكنت أنا أرتعد اذ تولانى الخوف مرة أخرى ، وقد خيل الى أن ثمة فى الجو بيننا ، شيئا مخيفا ، باردا ، لايلمس !

وجعلت أصدق مندهشا فى أبى ، وفى ذلك الزائر الغريب ،
وكل منهما ينظر الى الآخر برهة ، كأنما يقيس كل منهما صاحبه
فى اخوة صامته من تعارف الكبار ، هى فوق مستوى ادراكى .
وكانت أشعة الشمس الدافئة تغمرنا ، وكان أبى
يبتسم ، ويتحدث ببطء ، وبلهجة التأكيد ، كمن اعتزم أمرا . .
واستطرد قائلا : لقد قلت لك : لاتكن عجولا أيها الغريب .
ان المائدة ستعد وشيكا ، ويمكنك أن تبتي لدينا الليلة .

فاوما الغريب برأسه فى هدوء ، وكأنما قد صمم من جانبه على
رأى كذلك . وقال : هذا جميل منك !

وقفز من فوق جواده الى الارض ، وتقدم نحونا ، وهو يقود
الجواد . وتقدم أبى نحوه مستقبلاياه ، ومالبشنا حتى سرنا قاصدين
الى مخزن المحصولات .

وقال له أبى : - انى أدعى ستاريت . . . جوستاريت . .
وأشار الى قائلا : وهذا هوروبرت ماك فرسون ستاريت . .
وأحسبه اسما بالغ الطول بالنسبة لغلام فى سنه . . ولذا اختصرته
الى « بوب » . . .

فاوما الغريب برأسه مرة أخرى ، وقال لأبى : يمكنك أن
تنادينى باسم « شين » .

ثم أردف قائلا لى : - فلتكن « بوب » بالنسبة لى أيضا . . .
لقد مكثت برهة ترقبى وأنا قادم فى الطريق صعدا . . .

ولم يكن هذا سؤالا وجهه الى وانما كان بلهجة تقرير أمر
واقع . . . فقلت متلغما : أجل . . . هذا صحيح . . .

فقال : صح ! . . . انى أحب ذلك . . فان الرجل الذى يرقب
ما يجرى حوله ، هو الذى يصيب الهدف . . .

« الرجل الذى يرقب » ! . . ان شين هذا رغم مظهره المعتم ،
الصارم النحيل ، يعرف كيف يسر غلاما مثلى ! وفى حمية هذا
السرور ، صرت أعنى بجواده ، وأحوم حوله ، معلقا له السرج ،

ومذريا له بعض الدريس ، ومعترضا طريقه بأية ذريعة •
وقد تركنى شين أزيح السرج عن الجواد ، وحين اقتربت من هذا
الجواد ألفيته أكبر وأقوى مما حسبت . وقد أدلى لى رأسه بصبر ،
ووقف هادئا ريثما عاونه على نفخ التراب عن جسده • وانما
حال بينى وبين ماأنا بضده ، حين أردت أن أضع قراب السرج
جانبا ، فاني لم أكد ألمسه بأصابعي حتى أخذه منى ووضعته على رف ،
بحركة سريعة حازمة لاتدع مجالا للتدخل ••

ولما وصلنا ثلاثتنا الى الدار، وجدنا أمى تنتظر ، وقد وضعت
أربعة مقاعد الى المائدة • وجاءت لتصافح ضيفنا ، وهى تقول :
لقد شهدتم من خلال النافذة •

وكانت امرأة ذات حيوية ، نحيلة الجسم ، رائقة البشرة ، لم
يؤثر فيها جو منطقنا رغم شدته ، وكان لها شعر حثيث أحمر داكن ،
تكدسه فوق رأسها لكى تقرب قامتها من قامة أبى ، كما كانت
تقول •••

وقال لها أبى : هيا ياماريان أقدم لك المستر شين !

فقال لها الضيف : عمى مساء ياسيدتى :

وتناول يدها وانحنى فوقها ، فتراجعت أمى قليلا ، ودهشت
اذ رأيتها تشنى ركبتها قليلا تحية له ،

ولم أكن قد رأيتها تحيى أحدا هكذا من قبل ••• لقد كانت
امرأة ذات أهواء مفاجئة ••• وانى لاذكر انى وأبى قد طلينا
الدار ثلاث مرات بألوان قوس قزح ، لعلنا نرضيها •••

وقالت للضيف : وأنت عم مساء يامستر شين ••• لوان
« جو » لم يحل دون ذهابك ، لفعلت أنا ذلك • انك ماكنت
لتجد وجبة طعام طيبة فى هذا الوادى ••••

وكانت أمى فخورا بطهوها الطعام •• وكانت تقول ان ذلك
شئ تعلمته وحدته فى موطنها وله الآن فائدة فى هذه الارض
الغفل ••• وكانت اذا ساءت بنا الحال تقول لأبى : انها مادامت

قادرة على اعداد وجبة عشاء جيدة فهي تشعر بأنها لاتزال متمدينة،
وانه لايزال هناك أمل في تحسين الاحوال ثم تزم شفيتها
وتخلط الدقيق بالسكر ومواد أخرى ، فتصنع منها أشهى
بسكويت انفردت بصنعه ، وكان ابى يرقبها وهى منهكة فى ذلك
ثم يأكل البسكويت دون أن يدع فتاتا منه ، وبعدئذ يقوم ويمسح
عينيه ، ويمد قامته المديدة ، ويخرج لاتمام عمله الذى لاينتهى ،
وكأنما يتحدى الآن أى شىء يريدوقفه عن العمل . . .

وجلسنا نتناول طعام العشاء ، وكان فى الحق لذيذا ، وقد لمعت
عيننا أمى سرورا ، اذ رأت الضيف يجاربنى وأبى ، فى الاقبال على
الطعام . . ثم ملنا بظهورنا الى المقاعد لنستريح ، وجلست
أستمع الى أبى وهو يتحدث مع شين ، وكانهما صديقان قديمان ،
حول مائدة مألوفة . . غير أنى شعرت بأن الحديث يدور وفق
خطة مرسومة . . فقد كان أبى يحاول ، بمساعدة أمى ، أن يقف
على حقائق عن شين هذا ، دون أن يوجها اليه أسئلة مباشرة عن
نفسه ، غير أنه كان يراوغهما كل مرة . . وكان عارفا بغرضهما
هذا ، ولكن ذلك لم يزعجه مطلقا ، بل كان لطيفا مهذبا ، غير ضنين
بالكلام . ولكنه كان يرد عليهما بكلمات لاتحوى المعلومات التى
ينشدانها عنه .

ولا بد أنه ظل مسافرا بجواده عدة أيام ، فقد كانت جعبته تفيض
بأنباء المدن التى على طريقه الينا ، والتى ترجع الى « شين » بل الى
« دودج سيتى » أيضا ، والى غيرها من المدن التى لم أسمع بها من
قبل . ولكنه لم يذكر أى نبأ عن نفسه . وكأنما كان ماضيه محاطا
بسياج وثيق لامنفذ فيه ، كسياج المرج الذى لنا . . وكل ماوقف
عليه والدأى منه ، هو أنه كان يقطع طريقه راكبا ، مستقبلا كل
يوم بما يأتیه به ، دون أن يكون له هدف ، سوى أن يرى هذا
الجانب من البلاد الذى لم يره من قبل . .

وبعد ذلك جعلت أمى تغسل الطباق ، وجعلت أنا أساعدها
بتجفيفها . . وجلس أبى والضيف فى السقيفة ، وصوتهما يصل

الينا من خلال الباب • وكان ضيفنا قد صار هو الذى يدير الحديث الآن ، ولم يلبث حتى جعل أبى يحدثه عن مشروعاته وآماله • ولم يكن ذلك تحايلا من شين ، فان أبى كان شغوفاً بابداء آرائه اذا ألقى مستمعا له •• وفى هذه المرة كان يتكلم بحماسة ويقول :

- نعم ياشين •• ان الفتية الذين كنت أركب معهم لا يرون الموقف على حقيقته بعد • ولكنهم سوف يرونه يوما •• ان الارض المباحة لن تبقى هكذا الى الابد •• بل ان المزارع تطفى عليها •• وتربية الماشية فى نطاق واسع ، انما تصلح لاصحاب المراعى العليا ، على أنها لاتأتى لهم بربح ووفير •• انها تحتاج الى موارد كبيرة تستغل فيها •• وتتطلب مساحات شاسعة فى مقادير •• ائد ضئيلة • ومن المؤكد أن يأتى يوم تزحزح فيها عن مكانها وتضمحل •

فقال شين : - ان هذا أمر شائق حقا •• لقد سمعت نفس الشئ فى الايام الاخيرة من أناس راجحى العقل •• وقد يكون فيه شئ من الصواب •

- بل كثير من الصواب •• اصغ الى ياشين : ان ما ينبغى عمله هو أن تختار قطعة الارض ، أعنى قطعة أرضك الخاصة بك • وأن تزرع بها من المحصولات ما يكفى ليقيم أودك ، وأن تستغل مالك فى قطيع صغير ، لا يكون كله قرونا وعظاما ، بل يربى من أجل اللحم ، وأن تجعله فى حظيرة محاطة بسياج مع حسن التغذية • وأنا لم أمارس ذلك زمانا طويلا ، ولكنى قد رببت من الماشية ما يزيد فى المتوسط ثلثمائة رطل عن تلك الماشية الطويلة الارجل التى يربىها « فلتشر » على الجانب الآخر من النهر ، مع تفوق ماشيتى فى نوع اللحوم ، وهذا مجرد بداية ••

صحيح أن معداته منتشرة فى الجانب الاكبر من هذا الوادى ، وانها تبدو عظيمة • غير أنه يملك حقوق وضع اليد على عدد من الافدنة أكثر مما تحتاجه أبقاره ، ثم انه لن تكون له هذه الافدنة مع

تزايد عدد المزارعين الذين يفدون الى هذه المنطقة ويستقرون بها .
ان الطريقة التي يتبعها ، فيها الكثير من الاسراف . . مساحات
شاسعة من الارض لا تتناسب مع قلة دخله منها . . ولكنه لا يريد
أن يعرف ذلك . . بل يحسب اننا نحن المزارعين الصغار ،
نضايقه ونزعجه !

فقال شين بلطف : انكم كذلك حقا . . من وجهة نظره .
- أجل . . أحسبك على صواب . وأنا أقر بذلك . . انه سيلقى
منا عناء ونصبا اذا هو أراد أن يشغل المزرعة التي وراءنا على
هذا الجانب من النهر ، كما اعتاد أن يفعل . ونحن الآن بالفعل
نقتطع من تلك المزرعة قطعاً كبيرة . . والاسوأ من ذلك : اننا
نحبس جزءاً من النهر ، ونحول دون وصول الماء الى المزرعة .
وقد ظل يشكو ذلك دون انقطاع منذ جئنا الى هنا . . ويزيد من
قلقه أن آخرين من المزارعين أمثالنا سيظلون يفدون ويستقرون
على الجانب الآخر أيضاً ، وعندئذ يصبح في ورطة .

وانتهيت من تجفيف الطباق ، فسرت قاصدا الى الباب ، ولكن
أمى أمسكت بى كعادتها ، « لتخزننى » فى سريرى . . ولما تركتنى
فى غرفتى الصغيرة التى فى الحلف ، ولحقت بالرجلين فى
السقيفة ، أخذت أسترىق السمع ، لاسمع ما يقولون . . وكانوا
يتحدثون بأصوات واطئة . . ولا بد أنى أغفيت ، لانى فزعت اذ
رأيت أبى وأمى وقد عادا الى المطبخ . وقدرت أن ضيفنا قد
خرج الى مخزن المحصولات ، وأوى الى المقصورة التى كان أبى قد
شيدها للعامل الاجير الذى مكث لدينا بضعة أسابيع فى فصل
الربيع .

وسمعت أمى تقول : - أليس عجيبا احجامة عن الكلام عن
نفسه ؟

فقال أبى : عجيبا ! . . أجل . . من بعض الوجوه !

فاستطردت أمى قائلة : ان كل شىء فيه عجيب !

وكانت تتحدث بشكل يدل على التأثر والاهتمام . ثم أردفت
قائلة : انى لم أر قط رجلا مثله من قبل !

— وما كان لك أن ترى مثله ! . . على الأقل فى الجهة التى
نشأت فيها . . انه من طراز خاص قد نلقاه أحيانا هنا فى
البرية . . وقد صادفت قليلا من رجال هذا الطراز . . ان الردىء
منهم ضار كالسم . أما الطيب منهم فهو كحبة القمح السليمة
الصافية .

— وكيف أراك مطمئنا هكذا الى هذا الرجل ؟ انه لا يريد حتى أن
يذكر أين نشأ !

— أحسبه قد ولد فى ناحية ما بالشرق . . . فى الجنوب القصى
. . وربما كان موطنه الاول ولاية « تينسى » . . ولكنه قد ارتاد
كثيرا من الأرجاء .

فقالت أمى بلهجة جد : لقد ارتجت اليه . . انه لطيف ،
مهذب ، رقيق على طريقته الخاصة . . انه ليس كمعظم الرجال الذين
صادفتهم هنا . . ولكن هناك شيئا ما فيه . . هناك شيء ما
تحت هذا اللطف . . شيء . .

ولم تتم كلامها فقال لها أبى : شيء خفى . . أليس كذلك ؟

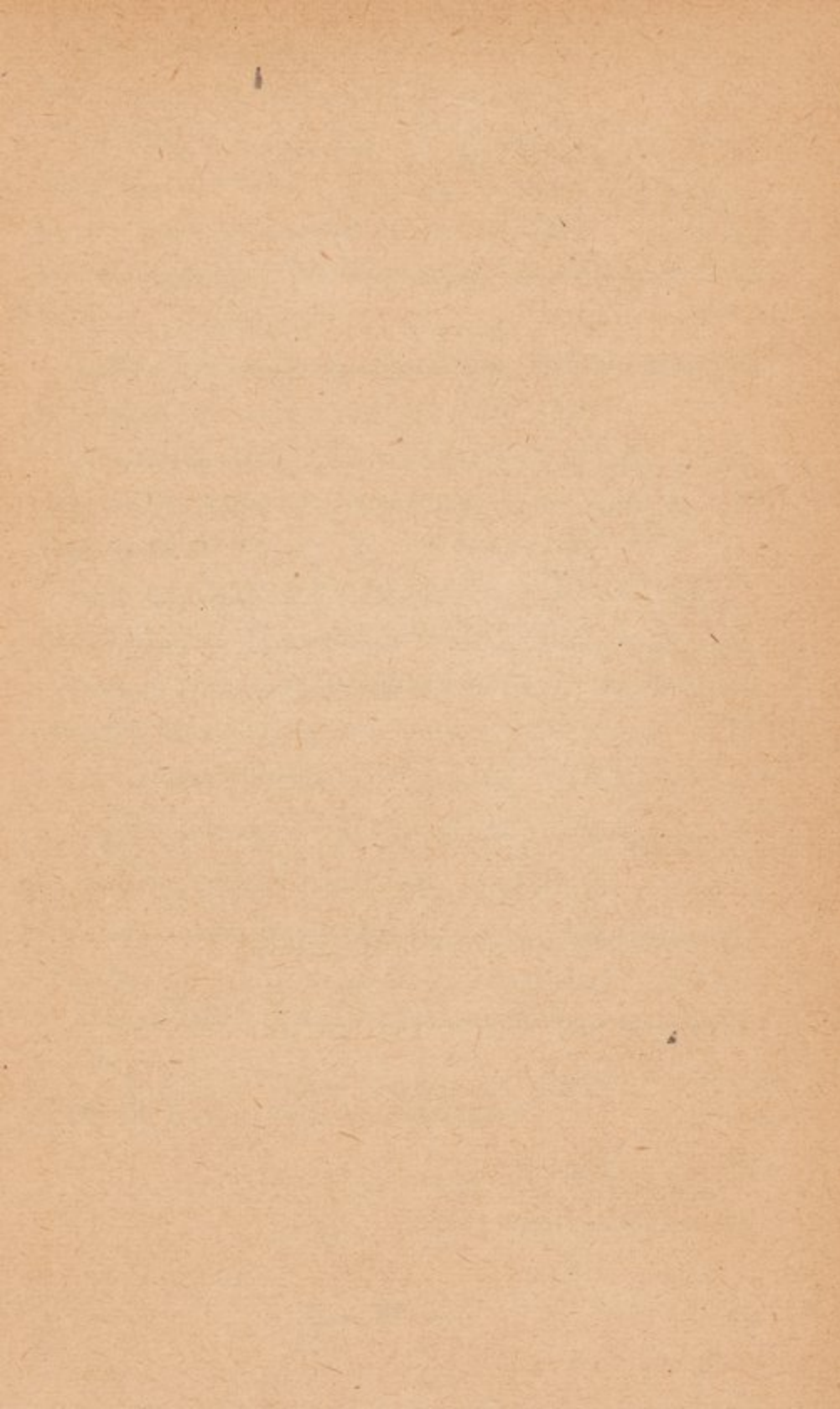
— بلى . . شيء خفى . . بل أكثر من ذلك : هناك شيء خطر !

فقال أبى بلهجة شاردة : خطر بلا ريب !

وضحك ضحكة مكتومة وقال : على انه ليس خطرا علينا
يا عزيزتى . .

ثم أردف قائلا : الواقع انى لأحسبك قد آويت فى بيتك قط ،
رجلا آمن منه !

وقد بدا لى هذا القول غريبا منه وقتئذ !



الضيف المقيم

نمت الى ساعة متأخرة من صباح الغد . ولما صحت دلفت الى المطبخ ، فالفيت أبى والضيف جالسين الى المائدة وهما مقبلان على أكداس من الفطائر التى حذقت أمى صنعها . . . وابتسمت لى أمى من وراء الفرن ، وضربنى أبى ضربة خفيفة على ظهرى ، على سبيل التحية . . . أما الضيف فقد أوما لى برأسه بشكل رزين ، وقال لى من وراء طبقه المملوء :

— عم صباحا يا بوب . . . يحسن بك أن توغل فى طبقك ، والا أكلت نصيبك فوق نصيبى . . . انك اذا أكلت الكفاية من « فطائر الفانيلة » (١) هذه ، فستنمو حتى تصبح أكبر من أبيك جسما . . . فمشيت أمى برفق صوب أبى ، ونكشت شعره ، وهى تقول له : فطائر الفانيلة ؟ هل سمعت ما قاله يا جو ؟! لقد أصبت . . . انه من « تنسى » أو من مكان قريب منها . . . فانى لم أسمع القوم هنا يطلقون هذا الاسم على فطائرى . . .

فصعد ضيفنا بصره فيها وقال :

لقد أصبت الحدس يا سيدتى . . . وقربت كثيرا من الهدف . . . ولكن زوجك قد ساعدك على ذلك بلا ريب . . . لقد هاجر أهلى فعلا من « الميسيسيبي » ، واستقروا فى « أركانساس » . . . على أنى كنت غير ثابت القدم ، وغادرت بيت أبوى فى الخامسة عشرة من عمرى . . . ولم أذق منذ ذلك فطيرة تستحق أن تسمى « فطيرة فانيلة » ووضع يديه على طرف المائدة ومال الى الوراء ، فصارت الغضون التى عند أركان عينيه أوضح وأعمق من قبل . . . ثم أردف قائلا :

حتى أكلت هذه الفطائر الآن ياسيدتى .

فضحكت أمى ضحكة ناعمة هى أجدر بالفتيات . . وقالت :

إذا صدق حكمى على الرجال، فإن هذا القول منك يعنى طلب

المزيد من الفطائر . . !

وعادت الى الفرن .

وهكذا كان بيتنا فى معظم الاوقات : يملأه السرور ، وتدفعه
العاطفة الكريمة . وكان قمينا به أن يكون كذلك فى صباح ذلك اليوم،
لان الجو كان رطباً غير رائق ! وقبل أن أتناول طبقى الثانى من الفطائر
فى أناة ، كانت الريح قد هبت على الوادى ، وتبعها سقوط المطر
الذى يلزم العواصف الصيفية المفاجئة .

وكان ضيفنا قد أتم تناول طعام الافطار . وكان قد أتى على
مقدار من الفطائر جعلنى أسأل نفسى عما ان كان فعلا سيفير على
نصيبي . . ولكنه استدار ونظر من خلال النافذة ، فزم شففيه،
ثم تراجع الى الورااء وهم بالقيام ، ولكن صوت أمى أقعده فى مكانه،
اذ قالت له : أتسافر فى مثل هذا الجو ؟ ! انتظر قليلا حتى يعود
صحوا . ان هذه الامطار لاتمكث طويلا . وقد وضعت ابريقا (تنكة)
ثانيا من القهوة على الفرن .

وكان أبى مستمرا فى تدخين غليونيه ، وهو يتأمل الدخان
الصاعد منه ، وما لبث حتى قال: ان ماريان على صواب ، غير
انها لم تذكر كل شىء . . صحيح أن هذه الامطار قصيرة الامد ،
ولكنها تفسد الطريق . . فأنها طريق جديدة ، ولم يستقر سطحها
بعد . . بل تصبح كثيرة الوحل اذا ابتلت . ولن تصلح للسفر
حتى تجف . . ويحسن بك أن تمكث هنا الى غد . .

فحملق ضيفنا فى طبقه الخالى، وكانه أهم شىء فى العالم كله .
وكان واضحا أنه ارتاح الى هذا الراى . ولكنه مع هذا بدا عليه
شىء من القلق من ناحيته .

واستطرد أبى قائلا : أجل . ان هذا خير ماتفعل . . لقد كان

الاعياء ظاهرا على جوادك الليلة الماضية .. ولو كنت انا طبيبا
بيطريا لما ترددت في وصفراحة يوم له . واحسب ان هذه
« الوصفة » تصلح لك ايضا .. وما عليك الا أن تقبّع هنا يوما
معي ، فاطوف بك هذا المكان ، وأطلعك على ما أصنع به .

ونظر الى أمي متسائلا ، وكانت في عجب من أمره ، وحق لها
ذلك ، فإنه كان لا يضيع دقيقة واحدة حتى لا يفوته العمل في
مشروعاته ، فكانت تجادله طويلا حتى يرضى أن يستريح يوم الاحد
احتراما له . واذا ساء الجو كما ساء هذا اليوم ، كان يمكث في
البيت متمللا ، متنقلا بين حجراته ، كأنه يشعر بالمهانة اذ اضطر
للبقاء في البيت ، وعدم الكدح .. والآن هاهو ذا يتحدث عن راحة
يوم كامل ! لقد حيرها ذلك ، ولكنها لعبت دورها كما ينبغي ، وقالت :
سيكون هذا صنيعا منك يا مستر شين : فأننا لا نرورنا اناس
كثيرون من خارج الوادي ، فيسرناحقا أن تمكث معنا .. فضلا
عن ذلك ...

وهنا غمرت بانفها قبالة ، كما اعتادت أن تفعل لتغيظ أبي حتى
يقبل رأيا تعرضه عليه ، وقالت : فضلا عن ذلك ، لقد كنت أنتظر
فرصة لأجرب عمل « فطيرة تفاح » تملأ طبقا عميقا ، وكنت قد
سمعت بها ، وكان من الاسراف أن يقصر اكلها على هذين ، « تعينني
وأبي » ، فأنهما يأكلان كل ما يصادفهما ، دون أن يميزا بين الطيب
والرديء من الطعام ..

وكان ينظر اليها مليا ، ورفعت سبابتها وهزتها أمامه وقالت :
وهناك شيء آخر ! فان صدرى يجيش بأسئلة عما ترتديه النساء
في الحضر .. أعني القبعات وأمثالها .. وأنت من طراز
الرجال الذين لا يفوتهم أن يلحظوا ثياب النساء ... ولن تغادر هذا
المكان حتى تنبئني ...

وعاد شين فجلس على كرسيه . وبان على وجهه سمت فكه ،
فخفف من صرامة أساريره ، وقال : ياسيدتى لقد قيدتني فلا

استطيع الفكك ... على ان أحدا غيرك لم يحسبني خيرا بقبعات
السيدات ...

ثم مد يده بفنجانة عبر المائدة وقال : لقد ذكرت شيئا عن المزيد
من القهوة .. ولكنى أسد الطريق على كل مزيد من « فطائر الفانيلة » ،
فقد شبع ، وبدأت أفسح مكانا لتلك الفطيرة ، التي ستصنعونها !

فقال أبى وكان بادى السرور لسبب ما : وقد أصبت .. فأن
ماريان اذا وجهت اهتمامها الى الطهو ، جعلت الانسان ينسى ان
لشهيته حدا .. ولكن لاتضع بذهنها خيالات عن القبعات
الجديدة ، والا فأنها لاتلبث حتى تطلبها بالبريد ، وتبدد نقودى
على سقط المتاع .. ان لديها الآن قبة !

ولكن أمى لم تلق بالا الى ما قاله أبى ، فأنها كانت تدرك أنه مجرد
كلام .. وكانت توقن انها كلما ارادت شيئا وتاقت اليه حد .
فأن أبى كان لا يألو جهدا لكى يجيئها به .. ومضت فى بطاء الى
المائدة ، ويدها وعاء القهوة ، وصبت لنا منها من جديد ، ثم
وضعت بهيئته يكون فى متناول ايدينا وجلست ..

وكنت اظن أن ما ذكرته عن القبعات لم يكن الا ذريعة عاوت
بها أبى على اغراء ضيفنا بالكث معنا . ولكنها سرعان ما أخذت
ترهقه بأسئلتها عما تلبسه السيدات اللاتي رآهن فى
« شين » وغيرها من المدن ، حيث توجد الازياء الحديثة ، ومكث هو
فى مكانه ، فى سر وود ، وجعل يصف لها ما يلبسه من قبعات
عريضات الطرف ، ذوات أزهار فوق قممها ، وذوات شقوق
تخترقها المناديل لتربط تحت اذقانهن ...

وخيل الى أن من الحق أن يتحدث رجل ناضج بمثل هذا
الحديث ... غير أن شين هذا لم يكن يضيق بذلك مطلقا . وكان
أبى يستمع وكأن الحديث الدائر لاضر فيه ، وان لم يكن جد شائق
... وكان يرقبهما معظم الوقت فى هدوء رقيق ، يحاول بين الفينة
والفينة ان يتدخل فى الحديث بالكلام عن الحاصلات والعجول ،

ثم يترك هذه المحاولة ليعود اليها بعد برهة ، ثم يتركها مرة أخرى وهو يهز رأسه مبتسما . . . وكان المطر يتساقط في خارج البيت ، نحسبه بعيدا ولا معنى له ، لان شعور المودة في مطبخنا كان كافيا لان يبعث الدفء في عالمنا كله .

ثم اخذ شين يتحدث عن معرض الماشية السنوى في « دودج سيتى » ، وكان أبى بادى الاهتمام والحماسة ، وما لبثت أمى أن قالت : انظروا ! لقد اشرقت الشمس !

وكان الجو صافيا جميلا ، حتى ليغريك بأن تجرى لتتنسم نضارته الساطعة ، ولعل أبى قد شعر بذلك ، فقد قفز من مكانه وصاح قائلا : هيا بنا يا شين . . . سأريك ما فعله هذا الجو الرطب ببرسيمى . . . انك لتكاد تراه وهو ينمو !

وكان شين وراء أبى بخطوة ، وأدركتهما عند الباب ، ولحقت بنا أمى ووقفت تحت السقيفة ترقبنا هنيهة ، ونحن نتخير مواضع اقدمنا بين البرك والاعشاب الطويلة المتشابكة ، تسطع عليها نقط المطر ، وجبنا خلال الناحية كلها فى امعان ، وكان أبى يتكلم طول الوقت عن مشروعاته ، بحماسة لم أشهدها فيه منذ عدة أسابيع . وقد سرنا بخطوات سريعة حتى صرنا خلف مخزن المحصولات ، حيث يمكن أن نلقى نظرة شاملة على قطيع الماشية الذى لنا ، وهو منتشر فى المرعى ، ولكن أبى ما لبث أن وقف عن الكلام ، فقد لحظ أن شين غير مصغ اليه ، وتملكه السكون لحظة وإذا به يرى شين يتأمل جذع الشجرة .

لقد كان هذا الجذع هو النقطة السيئة الوحيدة فى مزرعتنا وكان قائما كأثر قرح قديم فى البقعة الفضاء التى عبدت خلف المخزن . . . وكان جذعا كبيرا قديما ، مدبب الاطراف فى قمته ، وكان بقية شجرة كبيرة ما ، لا شك أنها ذوت قبل مجيئنا الى الوادى بزمان طويل ، ثم عصفت بها عاصفة هوجاء . . . وكان الجذع من الكبر - على ما أظن - بحيث أن قمته لو كانت مسطحة ملساء لأمكن أن يعد عليها العشاء لاسرة كثيرة العدد . . . ولكن ما كان

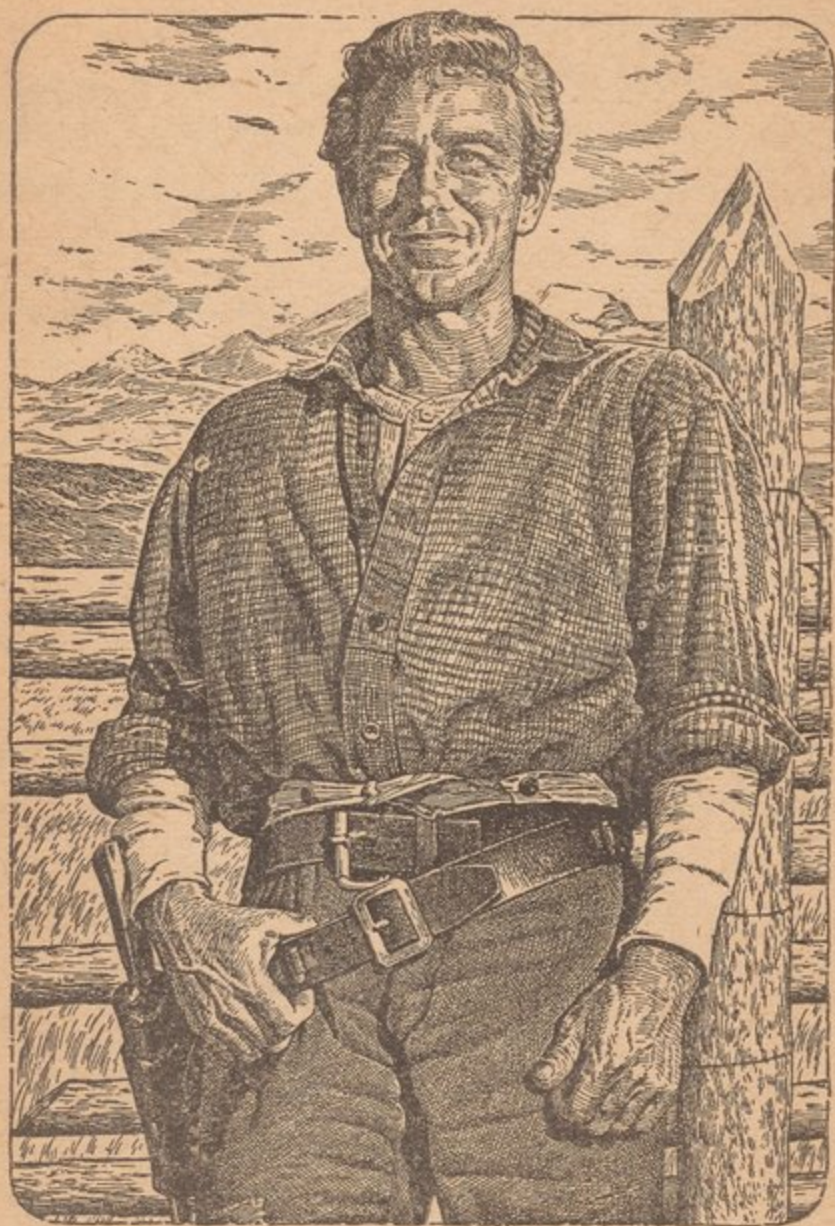
يمكنك ذلك ، لأنك ما كنت تستطيع جمعهم حولها عن كئيب ،
فان الجذور الضخمة العتيقة كانت ناتئة في كل اتجاه ، وبعضها
من الكبر بقدر وسطى ، وهى منبعثة نحو الخارج ، وملتوية
فى داخل الارض ، وكأنها أزمعت البقاء هناك الى الابد وما بعده . . .

وكثيرا ما كدح أبى عند هذا الجذع وهو يضرب فى جذوره
ببلطة ، كلما فرغ من احاطة الحظيرة بأعواد السياج ، غير أن
ذلك العمل كان يمضى بطيئا ، بالنسبة لآبى ، فقد كان الحشيب
يابسا حتى كان لا يقدر أن يغرز فيه سلاح البلطة أكثر من ربع
بوصة كل مرة . وأحسب أنه جذع شجرة بلوط قديمة . ولا
ينمو كثير من أمثال هذه الشجرة فى تلك المنطقة النائية من البلاد ،
غير أن الاشجار التى تنمو منها ، تكون كبيرة صلبة ، حتى أننا
نسمى خشبها « بالحشيب الحديدى » . .

وكان أبى قد جرب حرق أكداس من الاعشاب حول ذلك الجذع ،
غير انه سخر من تلك النيران . . . وبدا أن الحرق يزيد الحشيب
صلابة . . . ولذا أخذ يكافح الجذع بمحاولة القضاء على كل
جذر من جذوره على حدة . ولكنه لم يكن يجد من وقته فراغا كافيا
لمباشرة هذا العمل . وكان كلما استشاط غضبا من شئ - وقلما
كان يغضب - هرع الى هناك وأخذ يعالج جذرا من الجذور بضربات
قاسية .

والآن مضى الى ذلك الجذع ، وركل أقرب جذر ركلة قوية ،
كما اعتاك أن يفعل كلما مر بجوار الجذع . . ثم قال : أجل . .
هـذا هو حبل الطاحونة الذى حول عنقى . . . هذا هو
الشئ الوحيد فى هذا المكان ، الذى لم أعالجه بعد . . . ولكنى
سوف أعالجه ! ولم ينم خشب قط بحيث يصمد لرجل أوتى
القوة والعزيمة لمواصلة الضرب فيه !

وتفرس فى الجذع كأنه شخص أمامه نبت من الارض . . ثم قال :
- أتدرى ياشين انى قد طال النزاع بينى وبين هذا الجذع ،



« هيا بنا ياشمين . . . ساريك مافعله هذا الجو
الرطب بالبرسيم . . . انك لتسكاد تراه وهو ينمو »

حتى صرت أكن له شيئا من الحب؟ انه صلب ، وأنا أعجب بالصلابة ،
أعنى النوع الصحيح منها .

وعاد يتحدث ، والكلمات تتدفق من فيه ، وكأنما يسره أن
يقولها ، ثم لحظ من جديد أن شين لا يعيره كثيرا من الالتفات ، اذ كان
يصغى الى صوت آت من بعيد . . . أجل . . . لاشك ان هناك حصانا
قادما فى الطريق !

فالتفتنا أنا وأبى ، معه ، نحو البلدة . . . وبعد لحظة رأيناه وقد
انكشفت عنه كتلة الاشجار والاعشاب الطويلة ، على مسافة
ربع ميل منا ، وكان حصانا أسمر اللون باحمرار ، ذا عنق عال ،
يجر عربة بضاعة خفيفة ذات أربع عجلات . . . وكان الوحل يتطاير من
حوافره ، ولكنه لم يكن بالحصان الردىء بل كل يجرى فى يسر
دون عائق . . . ونظر « شين » الى أبى جانبا وقال :

- قلت ان الطريق لا تصلح للسفر ؟ انك يا ستاريت لاتجيد
الكذب ! . . .

ثم قصر التفاته على العربة ، وبان عليه اليقظة والانتباه ، وهو
يفحص الرجل الجالس معتدل القامة ، على مقعد يتأرجح به . .
وضحك أبى للمحظة شين ، ثم قال وهو يقودنا نحو زقاقنا :
هذه عربة « چيك ليديارد » . . . لقد توقعت أن يأتى الى هذه
الناحية فى هذا الاسبوع . . . لعله قد جاء بالمحراث الذى أنا
فى حاجة اليه . . .

وكان « ليديارد » رجلا نحيل لا ضئيل الجسم ، يشتغل بالبيع
والتجارة ، ويأتى كل شهرين بأشياء لم تكن تباع فى المتجر
العام بالبلدة . . . وكان يشحن سلعه فى عربة يجرها بغل ، ويسوقها
زنجى عجوز ، أبيض الشعر ، بادهى الجرع ، حتى لكأنه يخاف
أن يتكلم دون اذن وكان ليديارد يبيع السلع التى تحملها
عربته بعد مساومة عويصة ، ويتسلم الطلبات بشأن سلع
يأتى بها فى رحلته القادمة . . . ولم أكن أميل اليه ، رغم انه كان

يثنى على ثناء لا يعنيه حقا ولكنه يريد أن يسر به أبى • وكان
مفرطاً فى الابتسام ، دون أن يكون فى ابتسامه ود صادق •
ولما صرنا بجوار السقيفة كان قد حاد بجواده الى زقاقنا ،
والآن شد زمامه ليقف • ثم قفز الى الارض وهو يصيح
بالتحيات ، فتقدم أبى للقائه ، فى حين مكث شين بجوار السقيفة
مستنداً الى العمود الاخير بها •

وقال ليديارد : انه هنا • • • الجميل الذى حدثتك عنه • •
ثم أزاح القماش الذى يغطى هيكل العربى ، فلمع فى أشعة
الشمس محراث جديد ذو سبع أسنان ، وكان موضوعاً على جنبه
فوق أرض العربى • وقال : هذه أحسن صفقة شراء عقدتها •

فغمغم أبى وقال : لقد أصبت الهدف • • فان هذا ما كنت
أريده • • غير انك اذا شرعت تتحدث عن أحسن صفقة شراء
عقدتها ، فانك تعنى دائماً ثمناً غالياً • • فما هو الثمن ؟

فأجاب ليديارد ببطء : حسناً • • • لقد كلفنى هذا المحراث أكثر
مما كنت أتوقع حين كنا نتحدث معاً فى المرة الماضية • • وقد تظن
الثن فادحاً ، أما أنا فلا أحسبه كذلك • • • • بالنسبة لمحراث
جميل كهذا • • • وسوف تعوض الفرق وشيكاً بالعمل الذى يوفره
لك • • • • انه سهل الاستعمال حتى ان هذا الغلام لا يلبث حتى
يعرف كيف يستخدمه •

فقال أبى : ضعه على الارض • • لقد وجهت اليك سؤالاً ، فهيا
أجب !

والآن أسرع ليديارد فى الجواب فقال : سأنقص من الثمن
لكى أرضى عميلاً (زبونا) طيباً مثلك • • وسأتركه لك فى مقابل
مائة وعشرة دولارات •

وفزعته اذ سمعت صوت شين يقطع عليهما الحديث ، فى هدوء
وجلاء وهو يقول :

— يتركه لك ؟ أحسبه سيفعل • • • لقد رأيت محراثاً كهذا فى

متجر ببلدة « شين » وكان ثمنه المحدد بالقائمة ستين دولارا !
فاستدار ليديارد ، وتفرس في ضيفنا لأول مرة . وغادرت
شفتيه الابتسامة السطحية ، وقال بصوت واطيء كربه : هل
دعاك أحد لان تتدخل في هذا ؟ فرد شين هادئا واضحا كدى
قبل : كلا . أحسبني لم يدعنى أحد لذلك ...

وكان مستندا الى العمود ، ولم يتحرك من مكانه ، ولم ينطق
بلفظ آخر . والتفت ليديارد الى أبى وقال بلهجة سريعة :

— انس ماقاله ياستاريت ... لقد عرفته الآن ... وكنت قد
سمعت به مرارا فى الطريق الى هنا ... ان أحدا لا يعرفه ، ولا
يعرف عنه شيئا ... وأحسبني أعرف ... ان هو الا شريد يجوب
الارحاء ... ولعله طريد بعض المدن فهو يلتمس وقاء له ...
ويدهشنى ان تدعه يحوم حول هذا المكان !

فقال أبى ، وقد بدأ يكلمه بحدة :

— قد تدهشك أمور كثيرة ... والآن قل لى الثمن الحقيقى
— انه كما قلت لك ٠٠ مائة وعشرة ، وسأخسر فى هذه الصفقة
على كل حال ... ولذا أنقص لك الثمن الى مائة دولار فقط اذا كان
هذا يرضيك ...

ثم أردف ليديارد مترددا وهو يرقب أبى : ربما رأى شيئا فى
شين ... ولكنه خلط ... ولا بد أن المحراث الذى رآه هناك هو
أحد تلك النماذج الصغيرة ... السريعة التلف ، والتي يبلغ أحدها
نصف حجم هذا المحراث . وثنها مناسب لما ذكره ...

فلم يقل أبى شيئا وانما كان يحرق فى ليديارد طويلا دون أن
ينظر الى شين ، حتى لقد تحسب أنه لم يسمع ماقاله الاخير . غير
أنه زم شفتيه بشكل يدل على انه لا يدور بفكره شىء سار ...
ووقف ليديارد ينتظر دون أن ينبس أبى ببنت شفة ، واشتد الكدر
بليديارد حتى لم يطق كظمه فقال : يا ستاريت ! أتظل واقفا هكذا
وتدع هذا ٠٠ هذا الإفاق الذى لا يعرف أحد شيئا عنه الا الكذب !

أتصدق أم تصدقني ؟ انظر الى ملابسه ... انه ليس الامتشردا .
ولكن ليديارد أمسك فجأة عن الكلام ، وكأنما اختنق بما كان
يريد قوله . وتراجع خطوة الى الوراء وعلى وجهه أمارات الفزع ،
وقد أدركت أنا ما الذي أربعه ، فقد أدت وجهي في تلك اللحظة
لأرى شين ، وسرعان ما تملكنتي تلك القشعريرة التي أصابتني
أمس ... ولم يكن شين اذ ذاك مستندا الى عمود السقيفة كما
كان قبلا ، بل كان واقفا منتصب القامة ، ويدها منقبضتان الى جانبيه ،
وعينه تنظران الى ليديارد نظرة يكاد ينبعث منها الشرر ، وجسمه
كله في حالة يقظة وانتباه كمن يريد أن ينقض على عدو !

وكنت أشعر أن كل ثانية تمر قد تأتي بكارثة لا توصف ... ولكن
هذا التوتسرعان مازال ، وكأنما ذاب في صمت فارغ ... ولم يعد
شين يرمق ليديارد شذرا ، بل بدا لي أنني ألح في عينيه دلائل ألم
عميق .

وكان أبى قد استدار بحيث يشملهما بصره ، والآن التفت الى
ليديارد وحده وقال له :

- أجل يا ليديارد . اني أصدق ما يقوله ... انه ضيفي . وأنا
الذي دعوته الى بيتي . ولكن ليس هذا هو السبب .

ومد أبى قامته قليلا ، ورفع رأسه ، ثم تقدم خطوة ونظر الى
الفضاء وقال : اني كفاء لمعرفة كنه الرجال بنفسى ... وأنا أصدق
كل كلمة يقولها ، عن أى شيء ، في أى وقت ...

ثم خفض رأسه قليلا كذى قبل ، وقال بلهجة حاسمة : ان
ثمن المحراث هو ستون دولارا . أضف اليها عشرة كربع معقول ،
وان كنت على ما ظن قد اشتريته بسعر الجملة ... ثم أضف عشرة
دولارات اخرى في مقابل حمله الى هنا . فتكون الجملة ثمانين
دولارا . فأما ان تقبلها او تدع الصفقة . وسواء اخترت هذا
أو ذاك ، فهيا أسرع وغادر أرضي !

فنظر ليديارد الى يديه ، وحك احدهما بالآخرى كأنه يدفئهما
من برد ... ثم قال : أين المبلغ ؟

ودخل أبى فى الدار ، وقصدا الى حجرة النوم حيث يحتفظ بنقودنا فى كيس من الجلد على رف . ثم عاد بأوراق نقد غير مسواة (مكرمشة) . وكان شين طول هذا الوقت واقفا فى مكانه ، لم يتحرك منه ، صارم الوجه ، يتبع أبى بعينه بنظرات همجية لم أدرك كنهها .

وساعد ليد يارد أبى على رفع المحراث الى الأرض ، ثم قفز الى كرسى العربة وساقها بعيدا ، وكأنما هو على عجلة للرحيل عن هذا المكان . . . وتتبعته أنا وأبى لحظة وهو يمضى فى طريقه ، ثم نظرنا حولنا نبحث عن « شين » ولكننا لم نره . فهز أبى رأسه وقال لى : أين تظن . . . ولكننا فى هذه اللحظة ابصرنا شين خارجا من المخزن .

وكان يحمل بلطة ، وهى تلك التى كان أبى يستخدمها للحصول على الحطب الثقيل . ثم مضى قدما حول ركن المبنى ، وتتبعناه بنظرنا حتى طرق آذاننا صوت واضح ، هو صوت الصلب يضرب فى الخشب !

انى لا أتدر أن أبين اثر ذلك الصوت فى نفسى . لقد كان ينفذ الى أعماق نفسى كما لم ينفذ أى صوت من قبل ، ومعها حرارة اقتلعتوا ، والى الابد ، قشعريرة الخوف التى كان ضيفنا قدبعثها فى نفسى . لقد كان فى قرارة نفسه صنوف من القساوة مخبوءة ، ولكنها لم تكن لنا . . . لقد كان خطرا ، كما قالت أمى ، ولكنه لم يكن خطرا علينا كما قال أبى بدوره . . . ثم أنه لم يعد غريبا عنا ، بل كان رجلا كأبى ، يمكن غلاما مثلى أن يطمئن اليه ، موقنا فى بساطة أن ما لا يدركه من أمره ، لا ينافى الاستقامة والصواب !

ونظرت الى أبى لعلنى أعرف ما يدور بخاطره ، ولكنه كان قاصدا الى المخزن بخطوات طويلة اضطرت حيالها أن أجرى حتى لا تتسع مسافة الخلف بينى وبينه . وذهبنا حول الركن القصى ، فوجدنا شين مشغولا بأكبر جذر لم يقطع بعد من جذور جذع الشجرة . . . وكان يعمل بلطته فى ذلك الجذر بضربات منتظمة متواصلة . وكان

يصيب من ذلك الجذع . بقدر ما كان أبى يحدثه تقريبا بضرباته .
ووقف أبى وقد أفسح ما بين ساقيه ووضع يديه الى جنبه .
وشرع يقول : ما هذا ؟ ! ان هذا العمل ليس لك ..
فوقف شين عما هو بصدد لحظة ، نظر فيها إلينا وقال : ان
على الانسان أن يوفى بدينه !

ثم عاد يضرب بالبلطة ، وكان بالفعل يقطع بها من ذلك الجذر .
وبدا من اصراره على عزمه هذا ما جعلنى أتكلم فقلت له :
- أنت لست مدينا لنا بشيء .. وكثيرا ما يأتى إلينا أناس
ويتناولون معنا الطعام .. ثم ..

ولكن أبى وضع يده على كنفى وقال : كلا يا بوب . انه لا يعنى
وجبات الطعام .

وكان أبى يتسهم ولكنه زر عينيه مرارا ، واقسم أنهما كان
يتفرق فيهما الدمع ... وقد وقف الآن صامتا لا يتحرك وهو
يرقب « شين » !

والحق أنه كان منظرا جديرا بأن يرى . وحين كان أبى يكدر
أمام ذلك الجذع ، كان ذلك أيضا منظرا يستحق أن يشهد . فقد
كان يعالج البلطة ببراعة ، وكان يسترعى التفاتك ما يديه من قوة
وعزم وهو يعمل البلطة فى الخشب اليابس ، وقد أضحت فى يده
طبعة . اما هذا فكان يختلف عن ذلك . فان الذى يسترعى النظر من
شين هو اليسر الذى تتدفق به القوة منه ، فى كل ضربة من ضرباته ،
وكانما أصبح الرجى والبلطة شريكين معا فى عمل واحد ! وكان
السلاح ينغمس فى الشقوق المتوازية وكأنه يعرف ما ينبغى له
عمله ، وكانت الشظايا تخرج من بينها قطعاً صغيرة رفيعة بشكل
حاسم .

وقف أبى يرقبه ، ووقفت أنا أقرب الاثنين .. ومضى الوقت
بنا ، حتى انغمست البلطة فى آخر شقة وقطع الجذر . وكنت موقنا
أن شين سيقف عن العمل عند هذا الحد . غير أنه خطا حوله

وقصد الى الجذر التالى وتباعدا قليلا ثم أعمل السلاح من جديد !!
ولما أصاب هذا الجذر الثانى، انتفض أبى وكأنما أصيب أيضا.
ثم مد قامته وبعد ببصره عن شين، وجعل ينظر الى الجذع القديم .
ثم اخذ يتململ فى وقفته، ويعتمد على احدى قدميه بعد أخرى .
وبعد هنيهة كان يفحص الجذع من زوايا مختلفة وكأنه شىء لم يره
من قبل . واخيرا ركل بقدمه اقرب جذر ، ومضى مسرعا . وما
لبث حتى عاد بالبلطة الاخرى وهى تلك الكبيرة المزودة السلاح
التي كنت لا اكاد أقدر على رفعها من الارض .

والتقط جذرا فى الجانب الآخر المواجه لشين . ولم يكن يبدو
عليه الكدر الذى ألفناه منه كلما واجه تلك الجذور . بل ارتسمت
على قسمات وجهه دلائل الرضا والرضا . ولوح بالبلطة كما لو
كانت لعبة طفل . ونفذ السلاح فى الخشب زهاء نصف بوصة فى
ضربة واحدة . ولما سمع شين وقع البلطة فى الجذر انتصب قائما
والتقى بصره ببصر أبى فوق قمة الجذع دون أن يتبادلا كلمة . ثم
أرجع كل منهما ببطته ، وهكذا قالاهما كثيرا لذلك الجذع .

الجُذْعُ الْعَنِيدُ

مكتبة الخديعة

كان من الشائق المثير أن أرقبهما وقد زادا من سرعة الضرب
فى الحشب ، حتى كانت قطعته تتطاير فى الهواء . . وحسبت أن
كلا منهما قد يقطع جذرا من الجذور ثم يقنع بذلك ، ولكن شين
أنهى ما كان يصده ، ثم نظر الى أبى وهو مثابر على عمله ، وبعدئذ
عمد الى جذر آخر وعلى ثغره ابتسامة جادة قصيرة المدى .
وبعد لحظات من ذلك حطم أبى الجذر الذى أمامه بضربة جعلت
البلطة تنفذ الى الارض تحت ذلك الجذر . ثم جذب مقبضها ليطلقها
من الارض ، وسرعان ما عمده هو أيضا الى جذر آخر يعالجه دون
أن يقف لحظة لينفض عن نفسه التراب . وبدأ الى أن العمل سيطول
بهما بحيث يبعث السأم فى نفسى ، فغادرت المكان . ولم أكد أمضى
حول ركن المخزن حتى رأيت أمى قادمة من هناك .

وكانت أجمل وأنضر شىء رأيت فى الوجود . وكانت قد تناولت
قبعتها وخلعت منها الشريط القديم ثم حاكت به كما ذكر لها
« شين » من قبل . وكان أمام البيت قدر من الازهار ، فوضعتها
فى شكل باقة صغيرة فى مقدمة القبة ، ثم أحدثت شقوقا فى
حافتها ، وجاءت بحزام من أحسن أثوابها ووضعت فوق قمة القبة
ليمر من تلك الشقوق ثم يربط تحت الذقن . . لقد كانت تخطر
فخورا بنفسها !

ومضت الى مقربة من الجذع . وكان صاحبا الفأس مشغولين
بعملهما ، منهماكين فيه ، فلو أنهما شعرنا بمجيئها لما ألقيا بالا
اليها . .

وقالت لهما : — ألا تنظران الى ؟

فوقف كلاهما عن العمل ، وأحدقا فيها .

ثم سألت شين : - هل أحسنت اصلاح القبعة ؟ وهل يلبسها هكذا ؟

فقال شين : - أجل ياسيدتي .. هكذا تقريبا .. غير أن الحواف هناك أعرض ..

ثم استدار نحو الجذر الذي يعالجه ..

وعندئذ قالت أمي موجهة الكلام الى أبي : يا جوستاريت ؟ أما أنباتني ان كنت أعجبك بهذه القبعة ؟

فأجاب أبي : دعك من هذا يا ماريان : فانك تعلمين حق العلم أنك سواء ألبست قبعة أم لم تلبسي ، فانك عندى أجمل شيء وجد على أرض الله الخضراء .. والآن كفى عن ازعاجنا .. ألا ترين اننا مشغولان ؟

وعاد الى الجذر ..

واحمر وجه أمي حتى استحال قرمزي اللون . وفكت شريط القبعة وأمسكت بها من طرفيه وقد اختل نظام شعرها وبان عليها الغضب ، وقالت :

- ما أعجب ماتمضيان فيه يوم راحتكما !

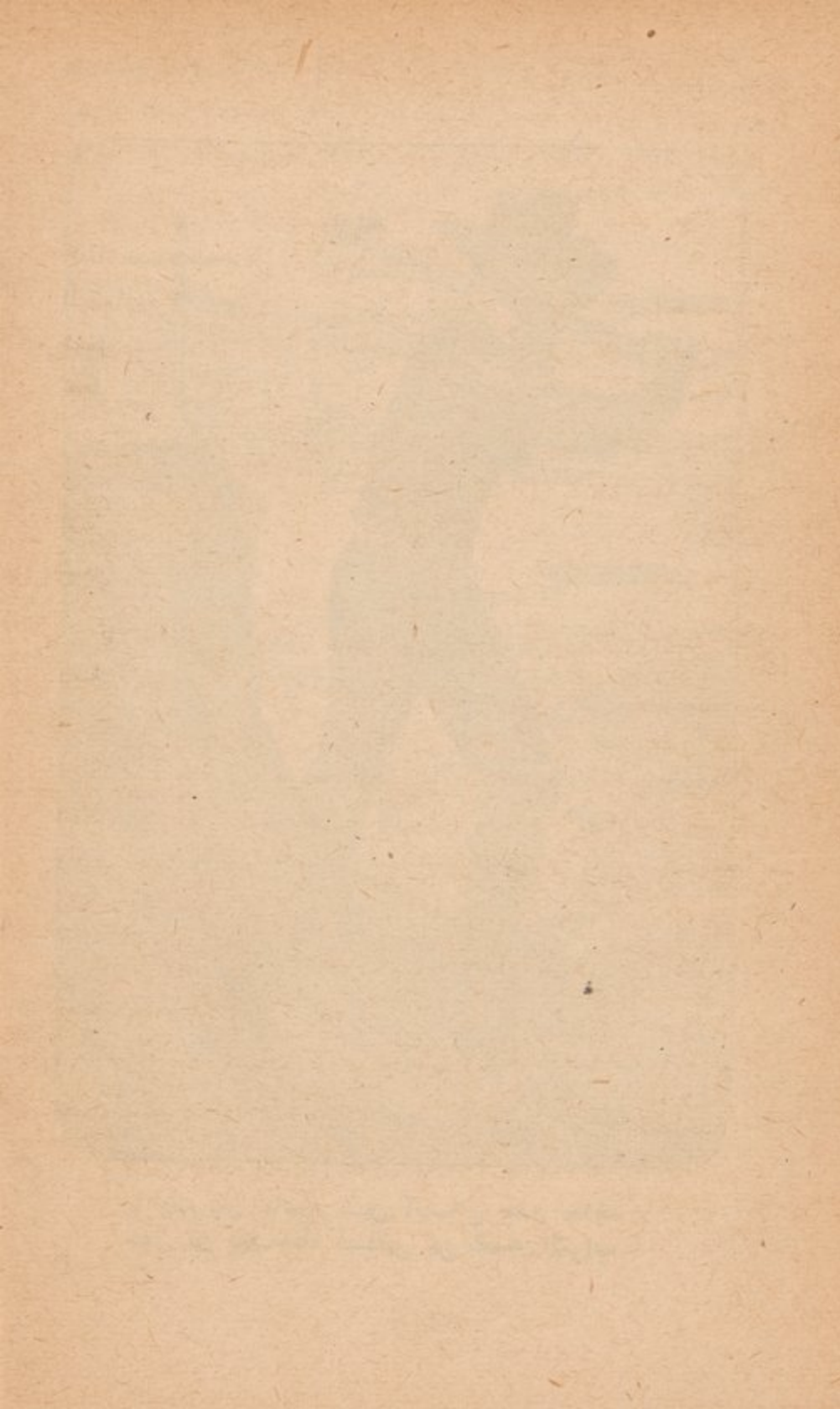
فوضع أبي ببطته على الأرض واستند الى مقبضها . وقال لها : - قد تضحكين يا ماريان ، اذا قلت لك أن هذه أحسن راحة نعمت بها منذ وقت لا أذكره !

فزمجت وقالت : لابد لكمان تتركنا راحتكما هذه مهلة ، على أى حال ، وأن تؤدية ما قد تحسبانه عملا .. فان طعام الغداء ساخن فوق الموقد وينتظر أن يؤكل !

ومضت مسرعة نحو الدار . وقد تبعناها جميعا على الفور ، وجلسنا نتناول الطعام غير مرتاحين .. وكانت أمي تقول دائما انه ينبغي للانسان أن يكون رقيقا مؤدبا وقت الطعام ، وخصوصا اذا كان ثمة ضيوف . وكانت الآن مؤدبة بالدرجة الكافية .. بل كانت بالغة الرقة ، تتكلم بما يكفى كل الحاضرين ..



« وسرعان ما عمد شين ايضا الى جذر يعالجه ،
دون أن يقف لحظة لينفض عن نفسه التراب »



دون أن تقول كلمة واحدة عن قبعتهما التى ألقتهما على كرسى
بجوار الفرن . . ولكن الامر المزعج هو أنها كانت مؤدبة أكثر مما
يلزم . . وكانت تبذل قصارى جهدها لكى تكون رقيقة وديعة .

على أنك ماكنت تحسب أن الرجلين كان فى ضيق بها . . بل
كانا يستمعان الى كلامها دون انتباه . . يجيبان اذا وجهت
اليهما سؤالاً مباشراً ، والا بقياصامتين . . لقد كان ذهنهما فى
شغل عنها بذلك الجذع القديم ، وما صار يعنيه لهما ، وكانا فى
عجلة للرجوع اليه .

ولما خرجا من الدار ، ووقفت أساعد أُمى بغسل الطباقي، أخذت
تترنم بنغم بصوت غير مسموع ، فأدركت أنها قدولى عنها الغضب .
لقد كان الفضول والحيرة يملكان عليها أمرها ، فلا يدعان مجالاً لاي
شعور آخر . .

ثم سألتني قائلة : ماذا جرى هناك يا بوب ؟ ما الذى اعتري
ذنبك الرجلين ؟

ولم أكن أدري تماماً . . وانما حاولت أن أنبئها بما كان من
ليديارد ، وكيف جرحه ضيفنا بشأن المحراث ويبدو أني
أخطأت التعبير ، لاني حين ذكرت لها كيف عمد ليديارد الى السباب ،
وكيف ظهر الغضب على شين ، احمر وجهها وثار شعورها ،
وقالت لي :

— ماذا تقول يا بوب ؟ هل خشيته ؟ هل أخافك ؟ ان أباك ما كان
ليدعه يفعل ذلك .

فقلت لها محاولاً الشرح : اني لم أكن خائفاً منه . . وانما . .
خفت فحسب . . كنت خائفاً مما قد يحدث . .
فمدت يدها ولعبت أناملها بشعري وهى تقول :

— أحسبني أدرك ذلك . . لقد بعث فى نفسى أيضاً شيئاً من هذا
الاحساس .

ثم ذهبت الى النافذة وأخذت تحقق فى المخزن • وكان الصوت
الرتيب المنبعث من ضرباتهما معا فى الجذور ، يسمع واضحا ،
على ضعفه ، فى المطبخ • ثم غمغمت تحدث نفسها : « لعل چو
يدرك ماهو فاعله » • ثم التفتت الى وقالت : هيا ارتع فى الخارج
يابوب • وسأتم تنظيف الطبايق وحدى •

وكانت مشاهدتهما الآن لاتعد لهوا •• فقد استحال
ضرباتهما فى الحشب بطيئة فى عناد •• وبعثنى أبى مرة لاحضر
له المسن لشحذ السلاحين ، ثم مرة أخرى لاتي به فأس يزيح بها
النراب عن الجذور الدنيا • وأيقنت أنه سيقظ يبعثنى هكذا
مادام يجدنى قريبا منه •• ولذا انسللت لارى ماصارت اليه حديقة
أمى بعد المطر ، ولعلى أزيد مجموعتى من الدود فى العلبة التى أحفظها
بها ، تأمبا لصيد الاسماك مع الداتى فى البلدة •

وقد تأنيت فى ذلك كله • ولعبت فى الحقول بعيدا • ولكن
حيثما ذهبت ، كنت أسمع تلك الطرقات فى الحشب على بعد •
وأن كنت فى مكانى ، لما وسعك الا أن تشعر بالسأم من سماعها ،
اذ تذكرك بأنهما لايزالان يعملان فى صبر ومثابرة •

وعند العصر تجولت حتى وصلت الى مخزن المحصولات •
فألقيت أمى هناك ، عند المصطبة التى فى المؤخرة ، وقد وقفت على
كرسى وجعلت تنظر من خلال نافذة صغيرة فوقه • ولما سمعت
وقع خطاى ، قفزت الى الارض مسرعة ووضعت أصبعها على فيها
كيلا أتكلم •

ثم قالت همسا : انى أقرران هذين الاثنين هما من بعض
الوجوه أصغر منك سنا يابوب •• انهما منك تماما ••

ثم عبست فى وجهى بشكل مضحك يدل على الثقة ، لدرجة
انى شعرت بحرارة الزهو •• وقالت :

— حذار أن تنبئهما بما قتلته الآن •• ولكن هناك شيئا مجيدا
فى هذه المعركة التى يخوضانها مع ذلك الوحش العجوز « تعنى
الجدع » •

ثم تركتني واقفا ، وذهبت صوب الدار خفيفة الحركة ،
فتبعتها لارى ماذا تعتزم أن تفعل .

ودارت فى المطبخ دورة سريعة لم تلبث بعدها حتى وضعت قدر
بسكويت على الفرن . وفى أثناء خبزه تناولت قبعتها وحاكت
الشريط القديم فى مكانه الاول . ثم قالت موجهة الحديث لنفسها
قبل أن توجه لى : ياللسخف ! لاتحسبن أنى أريد أن أقلد غيرى
من النساء ! ان هذا المكان ليس « دودج سىتى » .. بل انه
لا يرتفع الى مقام موقف للعربات .. انه مزرعة جوستايت ! وانى
لفخورة بأن أكون حيث أنا !

وسرعان مانضج البسكويت ، فكدست أكثر ماتستطيع منه فى
طبق ، والتقطت قطعة من الباقي فوضعتها فى فمها ، وأعطتني
البقية .. ثم تناولت الطبق وخرجت به وسارت خلف المخزن .
وتخطت الجذور المقطوعة ثم وضعت الطبق فوق بقعة ناعمة نوعا فى
قمة الجذع . ونظرت الى الرجلين ، واحدا بعد الآخر ، ثم قالت :
انكما اثنان من الحمقى .. ولكن ليس من قانون يحول دون أن
أكون حمقاء كذلك ..

ودون أن تلقى عليهما نظرة ، مضت مرفوعة الرأس ، عائدة الى
الدار .

وحقق الاثنان فيها حتى غابت عن بصرهما . ثم نظرا الى
البسكويت . وزفر أبى زفرة عميقة ، بلغت من العمق أنى
حسبتها قد تعالت من حذاء الشغل الثقيل الذى يلبسه فى
قدميه .. ولم تكن تدل على حزن أو أسف ، وانما كان به احساس
هو أكبر من أن يحبس دون جهد . وترك بلطته تهوى الى الارض ،
ومال الى الامام ، وقسم البسكويت قسمين بجانب الطبق ، بل انه
عد كل قسم ليضمن المساواة .. وترك أحدهما بالطبق . وتركه
وحده فوق الجذع . وتناول بلطته وتركها تسقط فى رفق على قطعة
فريدة من البسكويت فشطرها شطرين ، ثم وضع البلطة فوق

الجذع ، وتناول جزئي القطعة فوضع كل نصف منهما على كل كدس من البسكويت على حدة .

ولم يقل كلمة لشين . وانما مال على أحد الكدسين ، في حين شغل شين بأكل الكدس الآخر . ووقف الاثنان ، كل منهما تجاه صاحبة ، فوق الجذور الأخيرة ، التي لم تقطع بعد ، وهما يقضمان قطع البسكويت . وكان أكلها هو أهم عمل جاد قاما به طول حياتهما .

واتم أبى أكل كدسه ، ثم مد أصابعه فوق الطبق ليجمع الفتات الأخيرة . ثم نصب قامته ، وبسط ذراعيه الى فوق ، مع افساح ما بينهما ، وبدا الى أنه امتد ثم امتد حتى صار بمثابة برج من القوة يرتفع نحو شمس العصر . ثم انحنى فأمسك بالطبق وسلمنى اياد . وبنفس الحركة تناول بلطته وانقض بها في قوس عظيم ، على الجذر الذي كان يعمل فيه . ومع مابه من سرعة ، تابعه شين على القور ، وأخذا كلاهما يحدثان ذلك الجذع القديم حديثهما العنيف .

وحملت الطبق الى أمي ، وكانت تقشر تفاحا في المطبخ ، وهي تندندن في سرور . وقالت لي : هات الصندوق الخشبي يا بوب ! وواصلت غناءها الخافت ، وعبأت بالصندوق وقودا للفرن حتى امتلأ وفاض . ثم تسللت خارجا قبل أن يخطر لها أن تكلفني أداء مهم أخرى .

وشغلت نفسي على شاطئ النهر برمي أحجار في الماء ، وكان لا يزال موحلا من أثر المطر . واستطعت ذلك برهة من الزمن . ولكن ذلك الضروب الرتيب في الجذور كان له وقع خاص ساحر . لقد كان دائما يجذبني الى مخزن الحاصلات . ولم أدرك كيف استطاعا أن يلزما هذا العمل ساعة بعد أخرى ، ولم أفقه معنى لكدهما هكذا ، مع أن استئصال ذلك الجذع القديم هو في الواقع ليس أمرا هاما الى هذا الحد ! وبينما كنت ألهو أمام المخزن ، خطر لي أن الكسر قد اختلف عن ذي قبل ، فقد كانت بلطة واحدة تضرب في جذر !

وأسرعت عائدا ، وكان شين لا يزال يحرك بلطته ويضرب بها
فى الجذر الأخير . وكان أبى ممسكا بفأسه ، يحفر بها تحت
أحد جوانب الجذع ، ويخرج بها التراب الذى بين الجذور المقطوعة .
واذ كنت أرقبه ، رأيتنه يضع الفأس جانبا ويسند كتفه الى
الجذع ، يحاول زحزحته ، وبدأ العرق يتصبب من وجهه ، وسمع
لذلك صوت كصوت الشفط ، وزحزح الجزع قليلا من مكانه .

لقد كانت القاضية ! واستفزنى ذلك حتى كدت أسمع دمى ينبض
وراء طبلى أذنى . ووددت لو أنقض على ذلك الجذع ، وأدفعه ،
وأحركه . . ولكنى كنت أعلم أن أبى كان فى هذه الحالة يحسبنى
عقبة فى سبيله . .

وأتى شين كسر الجذر الذى كان يصده ، وجاء ليعاون أبى .
وأخذ الاثنان يزحزان الجذع بكتفیهما بكل ما أوتيا من قوة ،
فتقلقل فى مكانه زهاء بوصة ، وبانت بقعة خالية فى الطين حيث
بدأ يتزحزح . ولكنهما ما ان كفعا عن الضغط ، حتى عاد الجذع الى
مكانه .

وعادا يزحزحانه مرة بعد أخرى ، وهو فى كل مرة ينزاح قليلا
ثم لا يلبث حتى يعود الى موضعه . وقد رفعاه مرة نحو قدم ونصف ،
وكان ذلك أقصى ما استطاعاه ولم يقدرا أن يزيدا . .

وعندئذ وقفا عن العمل وهما يلهثان بشدة ، وقد تفجر العرق
من وجهيهما حتى خط عليهما أخاديد . . ونظر أبى الى تحت ،
قدر امكانه ثم قال : - لابد أن لها جذرا وتديا

. . وكانت هذه الكلمة هى الوحيدة التى قالها أحدهما للآخر ،
فيما أعلمه ، طول فترة بعد الظهر . . ثم لم يقل أبى شيئا بعدها .
كذلك لم ينطق شين بكلمة . وانما تناول بلطته ونظر الى أبى ،
ووقف ينتظر .

وجعل أبى يهز رأسه . . لقد كانت تراودهما كليهما ، فكرة ما
ترزعجهما دون أن يفصحا عنها . ونظر الى يديه الضخمتين ،

وبدأت أصابعه تثني رويدا حتى ضم قبضتيه • ثم كف عن هز رأسه ، ووقف وقد مد قامته ، وملا صدره شهيقا • ثم استدار وثبت قدميه بين جذرين مقطوعين ، وأخذ يضغط الجذع ، وقد غرس قدميه في الأرض زيادة في الثبات • ثم ثنى ركبتيه ولصق كتفيه بالجذع ، ولف يديه الضخمتين حول أطراف الجذر ، وأخذ يستقيم واقفا في بطنه وجعل الجذع يرتفع قليلا قليلا ، حتى صار جنبه إلى الحد الذي كان قد وصل إليه من قبل •

وانحنى شين لينظر إلى تحت • ثم مد بلطته إلى الفتحة ، وسمعتها تطرق الحشب ، ولكنه ما كان ليتخذ موقفا يستطيع به أن يغرس بلطته في الفوهة ، لولا أن جثم على ركبته اليمنى ومد ساقه اليسرى وفخذه في تلك الفتحة واستند إليهما بثقل جسمه ، وبذا استطاع أن يضرب بالبلطة عند زاوية منخفضة قريبة من الأرض •

وألقى نظرة عاجلة على أبي بجانبه وخلفه ، ثم أغمض عينيه ، وحبس عضلاته في جهد مضن ، واتخذ لنفسه موقفا ملائما بحيث صار كل الثقل الهائل الذي للجذع فوق نصف جسمه تقريبا ، وصار يضرب تحتها بالبلطة ضربات قوية سريعة •

وبدا أن أبي قد انزلق فجأة ، ولكنه في الواقع لم ينزلق ، بل مد قامته أكثر من قبل • وكان الجذع قد ارتفع إلى فوق بضع بوصات أخرى • فقفز شين من خارج الحفرة ورمى بلطته جانبا • وجذب أحد أطراف الجذر وساعد أبي على إعادة الجذع إلى مكانه • وكانا كلاهما ينفخان كمن جرى مسافة طويلة • ولكنهما لم يمكنا سوى دقيقة واحدة ، وبعدها كانا يرفعان الجذع من جديد • والآن صار الجذع يرتفع في يسر ، وكان التراب ينفك عنه حواليه •

وجريت إلى الدار بأسرع ما أستطيع • واندفعت إلى المطبخ وأمسكت بيد أمي ، وصحت بها : « هيا أسرعي ! يجب أن تأتي ! » • وبدأ لي في البداية أنها لم ترد المجيء ، فجذبتها وأنا أصبح بها : « يجب أن ترى ! انهما يخرجان الجذع ! » وعندئذ ثار شعورها مثل ، وجرت معي !

وكانا قد رفعنا الجذع مسافة زاوية واسعة . وكانا قد هبطا الحفرة ، كل منهما الى أحد جانبيها ، وصارا يدفعان الجذع الى فوق والى أمام ، بأيديهما وقد بسطاهما تحت جزئه الأدنى حتى صار يعلو رأسيهما . وكان يخيل الى الرائي أن الجذع سيسقط على جنبه وقد استؤصل من أساسه . ولكنه قبع هناك . . فانهما لم بقدر أن يدفعاه مسافة البوصات القليلة الباقية .

ووقفت أمي ترقبهما وهما يجاهدانه . ثم نادى أبى قائلة :
.. يا جو ! لماذا لا تعتمد الى شئ من الذكاء ؟ شد اليه بعض الحبل فتخرجه بعد لحظة قصيرة !

فبذل أبى جهدا لكى يبقى ممسكا بالجذع فى مكانه ، وأدار رأسه نحو أمي وصاح قائلا : « الحبل ! » وانفجر الصمت الذى حرص عليه الرجلان طول بعد الظهر ، فى صيحة واحدة عجيبة : « الحبل ! ويحك ! كلا . . . لقد بدأنا هذه المهمة بالقوة البشرية ، وسننتهيها بالقوة البشرية ! »

ثم أدار رأسه ليواجه الجذع مرة أخرى ، وأنزله قليلا بين كتفيه المحنيين . وكان شين وراقا حياله فنصب قامته ، ثم بدأ معا يدفعان الجذع فى هجمة جديدة . . . واهتز الجذع وتأرجح قليلا ، وبقي معلقا عند زاوية عالية خرقاء .

زمجر أبى ساخطا ، وكنت ترى القوة تتجمع فى ساقيه وفى كتفيه العريضين وذراعيه الكبيرتين المشدودتين . . . ومال جنب الجذع الملاصق له الى الامام ، بينما مال جنبه الآخر الذى احتضنه شين ، الى الوراء ، واهتز الجذع كله كأنه يوشك أن ينقض فى الحفرة فوقهما عند زاوية جديدة مضحكة .

وهممت بأن أصبح محذرا اياهما ، ولكنى لم أستطع الكلام ، لان شين كان قد مال برأسه جانبا بحركة سريعة ليحول دون سقوط شعره على وجهه ، فلمحت عينيه ! لقد كان فيهما لهب نار باردة مركزة . ولم يأت بأية حركة أخرى فريدة يمكن تمييزها ، بل كان كتلة واحدة ، ورجلا واحدا ، ينبض بفيض من قوة

لا توصف • وكنت تستطيع أن تشعر بالطاقة الوحشية التي
استعرت به فجأة ، وتدفقت في خلال جسده في جهد منسق
واحد • ومال جانب من الجذع الى الامام ، مع الجانب الذي بيدي
أبي ، في وقت واحد ، وتحورت كتلة الجذع من آخر جذر كان
يمسكها ، وسقطت على جنبها بعيدا وراءهما وقد هزمت شر
هزيمة ..

وصعد أبي ببطء من الحفرة ، ومضى الى الجذع ، ووضع يده
على طرفه المستدير وربت عليه كمالو كان صديقا عزيزا ، ولعله
كان يشعر بشيء من الأسف له ... وكان شيئ معه ، على الجانب
الآخر من الجذع ، وقد وضع يده برفق على الحشب اليابس القديم
... ثم رفع كلاهما بصره ، فالتقت نظراتهما ، ومكث كل
منهما ينظر الى الآخر كما حدث في ساعات الصباح التي طال
عليها الزمن ..

ولا بد أن الصمت كان شاملا ... أجل كان أحد يصيح صيحة
حادة لا معنى لها • وأدركت أن الصوت صوتي فأغلقت فمي •
وعاد الصمت سليما لا تشوبه شائبة ... انه منظر لن تنساه
مهما تقلب بك الزمن في سنينك القادمة ، منظر جذع قديم على
جنبه من أطراف جذوره ، فكان نموذجاً عجيباً حيال وهج الشمس
الغاربة وراء الجبال ، وقد وقف كل من الرجلين ينظر فوقه الى
عيني صاحبه !

وحسبتهما حيث تصافحان بيديهما المتقاربتين فوق طرف الجذع •
بل حسبتهما سيقول كل منهما شيئاً ما للآخر • ولكن لا ! لقد
وقفا ساكنين بلا حراك • وأخيرا استدأر أبي وتقدم نحو أمي •
وكان متعباً حتى بان التعب في مشيته • ولكن لم يكن له أثر
في صوته .. وقال :

- يا ماريان .. الآن استرحت ... وما أحسب أن أي رجل
منذ بدء الخليقة قد استراح أكثر مني !

وكان شين أيضا قادما نحونا . وهو أيضا لم يخاطب سوى
أمي ، اذ قال لها :

- يا سيدتي ! لقد تعلمت اليوم شيئا ... أن كون الانسان
مزارعا هو أكثر مما حسبته من قبل . والآن قد صرت على أهبة
الجزء من تلك الفطيرة ...

وكانت أمي ترقبهما وقد اتسعت حدقتا عينيها من الدهشة . ولما
قال هذه الكلمات صرخت فعلا قائلة :

- آه ... أنتما ... أنتما ... لقد أنسيتماني كل شيء عنها
... وأخشى أن تكون قد احترقت الآن !

وجرت نحو الدار بأقصى سرعتها حتى أنها كانت تتعثر بطرف
ثوبها .

وكانت الفطيرة قد احترقت فعلا ، وقد شممنا رائحتها حين
صرنا أمام الدار ، وأخذ الرجلان يغتسلان عند الطلمبة . وكانت
أمي قد فتحت باب المطبخ لكي تتسرب الرائحة . وسمعنا من
المطبخ أصواتا تدل على أنها كانت ترمي أشياء هنا وهناك .
وكانت الآنية تقعقع ، والطباق تطقطع . ولما دخلنا ، عرفنا
السبب : انها كانت قد أعدت المائدة ، وأخذت تضع طعام العشاء
فوقها ، وكانت تسحب الأشياء من أماكنها وتضعها على المائدة
بطرقات حازمة ... ولم تعر أحدا منا نظرة ...

وجلسنا الى المائدة وانتظرنا حتى تنضم إلينا ، ولكنها أدارت
لنا ظهرها ، ووقفت عند الرف الواطيء بالقرب من الفرن ، تحديق
في اناء الفطيرة الكبير ، والى الشيء المحروق فيه . ثم كلمها أبي أخيرا
بشيء من الحدة قائلا :

- يا ماريان ... ألا تجلسين ؟

فالتفتت إليه وحملت فيه ... وظننت أنها ربما كانت تبكي ،
ولكن لم يكن بوجهها دموع ، بل كان جافا ، ارتسم الالم على
ملامحه ، وغاض الدم منه ، وكان صوتها حادا كصوت أبي ، وقالت :

- لقد كنت أعتزم عمل فطيرة تفاح سميكة ... واني لصانعتها ... ولن يحول دون صنعها حمق الرجال ...

وتناولت الاناء الصفيح الكبير ثم خرجت به من الباب .
وسمعتها على الدرج . وبعد ثوان سمعنا صوت غطاء دلو
الفضلات ، ثم سمعتها تصعد الدرج ثانيا . ثم جاءت ومضت
الى الدكة الجانبية حيث الطباقي وأخذت تمسح اناء الفطير .
وكانت تعمل ذلك كما لو لم تكن بالحجرة ...

وكان وجه أبي يحمر من الغضب، والتقط «شوكته» ليبدأ الاكل
ثم تركها تسقط بشكل أحدث صوتا . وتململ في مقعده ، وجعل
ينظر الى أمي بطرف عينييه وانتهت أمي من مسح الاناء
الصفيح ثم مضت الى صندوق التفاح وملأت طاسها الخشبي
بقطع كبيرة مستديرة منه . ثم جلست بجوار الفرن وأخذت
تقشرها . ووضع أبي يده في أحديوبه ، وأخرج مطواته الكبيرة
القديمة . ثم مضى اليها برفق ، ومد يده فأخذ تفاحة لكي يعاون
أمي ... ولم ترفع بصرها اليه ، ولكن كان لصوتها وقع السوط
اذ صاحبت به :

- يا جو ستاريت .. حذار أن تلمس قطعة من هذا التفاح!

وبان عليه الحجل اذ عاد الى مقعده ، ثم تملكه الغضب ، وأمسك
بالشوكة والسكين وأعملهما في الطعام الذي بالطبق أمامه ، وهو
يقطع منه قطعا كبيرة ، ويلوكها بعنف . ولم يسعني والضييف
الا أن نحذو حذوه ... ولعله كان عشاء لذيذا . ولكني لا أقدر
أن أحكم ، فقد كنا نضع الطعام في أفواهنا دون أن نتذوقه حقا .
ولما فرغنا من تناوله ، لم يكن أمامنا ما نعمله ، سوى أن ننتظر ،
فقد كانت أمي جالسة بجوار الفرن مطبقة ذراعيها ، تحديق الحائط ،
وهي تنتظر حتى تخبز فطيرتها .

ومكثنا نحن الثلاثة نرقبها في هدوء مشوب بتوتر حتى لقد
تأذينا منه ، ولكننا لم نستطع شيئا قبله . وحاولنا أن ننظر الى بعيد ،

ولكن أعيننا كانت تعود فتحدق فيها . وبدت كأنها لا تلاحظ وجودنا . . . حتى لتحسبها قد نسيت أننا هناك !

على أنها لم تنس ذلك . . فانها لم تكد تشعر بأن الفطيرة قد تم خبزها ، حتى رفعتها ، ثم قطعتها الى أربع قطع كبيرة ، ووضعتها فى طباق . ووضعت القطعتين الاوليين أمام الرجلين ، وخصتني بالقطعة الثالثة ، أما الأخيرة فقد وضعتها أمام مكانها بالمائدة ، ثم جلست على كرسيها المعتاد . وكان صوتها ما زال حادا اذ قالت :

- انى أسفة اذ تركتكم تنتظرون طويلا . . . والآن أصبحت الفطيرة جاهزة .

وفحص أبى نصيبه من الفطيرة ، وكأنه خائف منه . . . وكان لابد له من بذل جهد فعلا ، لكي يمسك بالشوكة ويرفع قطعة منه الى فمه . . . ثم لأكها وازدردها ، ونظر الى أمى بطرف عينيه ، ثم نظر مسرعا الى شين عبر المائدة وقال له :

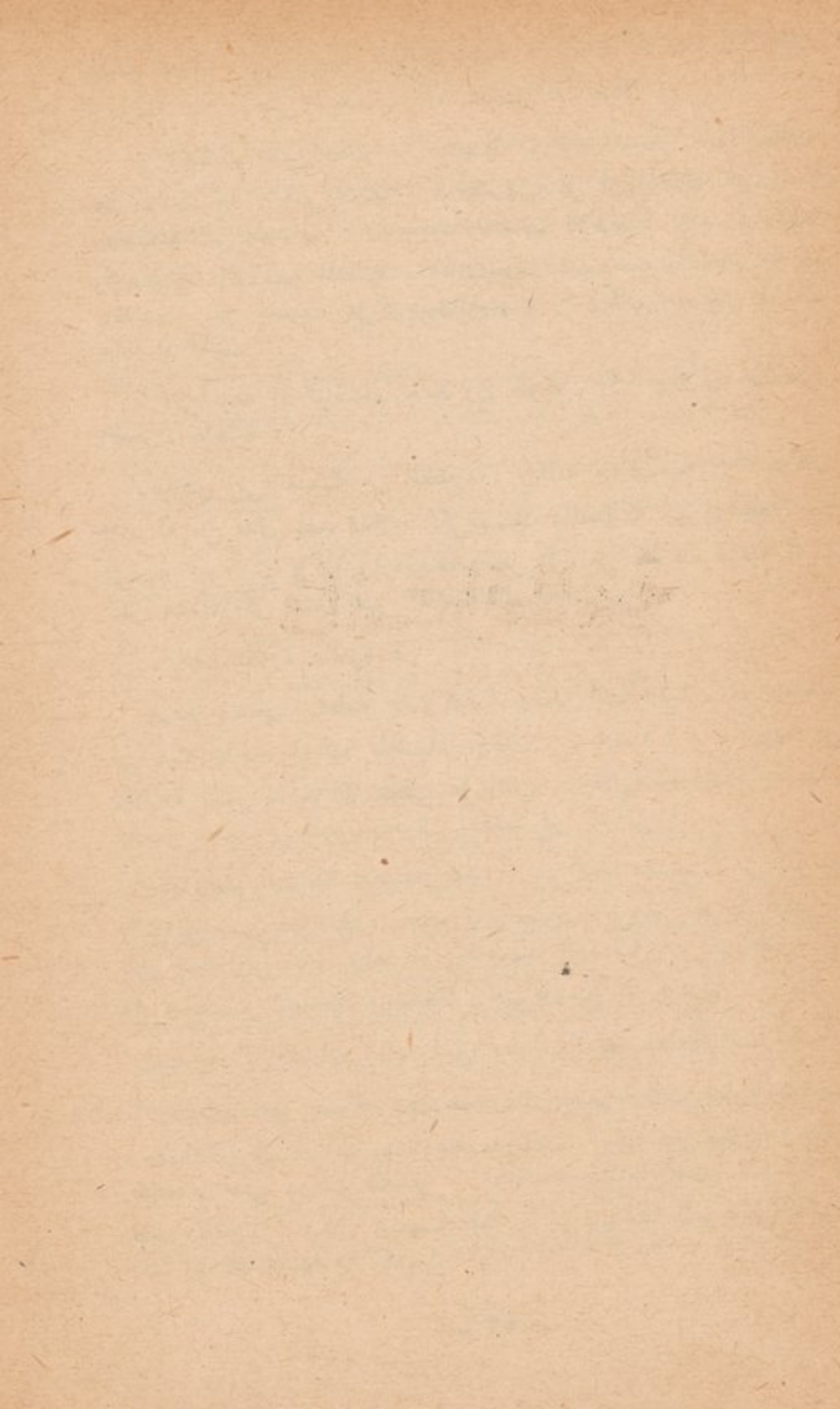
- هذه فطيرة فاخرة !

ورفع « شين » قطعة بشوكته ، ونظر اليها مليا ، ثم وضعها فى فمه وأخذ يلوكها باهتمام ، وقال : « حقا ! » . وبدأ على ملامحه تعبير ساخر لا يخفى على ناظره ، وقال : « أجل . هذه أحسن قطعة من جذع شجرة ، ذقتها فى حياتى ! »

ماذا تعنى ملحوظة سخيفة كهذه ؟ لم أجد متسعا من الوقت لأسائل نفسى عن ذلك ، فقد كان تصرف أبى وأمى غريبا حقا . . لقد حملقا فى شين وقد فغرا فاهيهما دهشة . . ثم أطبق أبى فاه وجعل يضحك ويضحك ، حتى تارجح به كرسيه . وقال :

- حقا يا ماريان ! انه لعلى صواب ! لقد فعلتها أنت أيضا !

ورددت أمى بصرها بين هذا وذاك ، ثم أرخت بصرها واحمر وجهها ، وبان فى عينيها عطف ورقة ، كما ينبغى لهما ، وجعلت تضحك حتى ذرفت الدمع . . . وأخذنا جميعا نعمل شوكونا فى تلك الفطيرة ، وكان عيها الوحيد ، بل الخطأ الفريد فى العالم ، أننا لم نجد منها ما يكفيننا !



فلتشر الطاغية

كانت الشمس ساطعة حين استيقظت من نومي في اليوم التالي ،
وكنت قد أرقنت طويلا لانشغال ذهني بحوادث اليوم وتقلباته
المثيرة • ولم أستطع أن أفسر المسلك الذي سلكه أولئك الكبار ،
ولا أدري كيف أن أمورا غير ذي أهمية فعلا قد أهمتهم الى ذلك
الحد •

ومكثت في سريري أفكر في ضيفنا الذي بالغرفة الملحقة
بالمخزن ، وبدا لي أنه لا يكاد يكون نفس الرجل الذي رأيته أول
مرة ، اذ جاء في الطريق راكبا جواده نحو دارنا ، صارم الوجه ،
مخيفا في وحدته • ان شيئا ما في أبي ، شيئا لا يتعلق بالكلام
ولا بالعمل ، ولكنه من صميم النفس البشرية ، قد انطلق وتحدث الى
هذا الرجل ، فجاء به وكشف لنا عن بعض جوانب نفسه ! وأحيانا
كان يبدو كأنه بعيد عنا ، عسير الاتصال به ، حتى وهو معنا •
ولكنه مع هذا كان من بعض الوجوه ، أقرب إلينا مما كأنه
خالي حين زارنا في الصيف المنصرم •

وكنت أفكر أيضا في الاثر الذي أحدثه في نفس أبي وأمي ،
لقد أصبحا أكثر حيوية ومجاوبة ، وكأنما أرادا أن يزيداه بيانا
بحقيقتهما ، حين يكونان معه • وكنت أستطيع أن أقدر ذلك منهما ،
لاني كنت أشعر بهذا الشعور نفسه • ولكن الذي حيرني ، هو
أن رجلا مثله ، عميق الغور ، حيوي الكيان ، سريع المجاوبة
لأبي ، كما شهدته ، يقطع وحده فوق جواده طريقا يخرج به من
ماض مغلق مجهول ، لا قبل لأحد منا بمعرفة شيء عنه •

وفزعنت اذ أدركت مدى تأخرى في النوم ، وكان باب غرفتي
الصغيرة مغلقا ، ولا بد أن أمي قد أغلقتة كي أنام دون أن يزعجني

شيء • وخفت أن يكونوا قد فرغوا من تناول طعام الافطار ،
ويكون ضيفنا قد ذهب دون أن أراه • وارتديت ملابسى مسرعا
ون أن أتمهل لربط أزرارها ، وجريت الى الباب •
وكانوا لا يزالون جالسين الى المائدة • وكان أبى يدخن قصبته
(غليونه) ، فى حين كانت أمى وشين يتناولان آخر دور من القهوة •
وكانوا ثلاثتهم ساكتين هادئين • ولما خرجت من غرفتى مندفعا ،
نظروا الى محمقين ، وصاحت أمى :

- رباه ! انك تدخل هنا كأن أحدا يطاردك ! ماذا دهاك ؟

فقلت دون وعى ، وأنا أومى برأسى نحو ضيفنا :

- لقد خفت أن يكون قد ذهب ونسينى !

فهز شين رأسه قليلا ، ونظرالى وقال :

- ما كنت لا نساك يا بوب !

واعتدل قليلا فى جلسته فوق كرسيه ، ثم التفت الى أمى ، وقال
لها بلهجة المزاح :

- وما كنت لانسى طهوك الطعام ياسيدتى ••• واذا رأيت بعد
اليوم جماعة من الناس تمر هنا وقت وجبات الطعام ، فذلك لان
رجلا عارفا بالجميل سيشيد «بفطائر الفانيلة » التى تبدينها !

فقال أبى وكأنما سره أن يجد شيئا مأمونا يتحدث عنه :

- هذه فكرة ! سنحيل هذا المكان الى فندق ، وستشبع ماريان
النزلاء من أطعمتها حتى يتخموا ، وعندئذ تمتلئ جيوبى بالمال ••
يخيل الى أن هذا مشروع مناسب للدرجة القصوى !

فسخرت أمى منه • ولكنها سرها حديثهما ، وابتسمت اذ
واصل الكلام عن هذه الفكرة ، بينما كانت تحثنى على تناول
طعام الافطار • ثم عادت فالتفت اليهما ، وأذرت أبى أن تربطه
بكلمته •• وأن تجعله يقضى طول وقته فى تقشير البطاطس وغسل
الطبق •• وكذلك كانوا يلهون ، وان كنت قد تبين لى شيء من



« فسخرت أمي منه ، ولكنهما سرهما حديثهما ،
وابتسمت اذ واصلا الكلام عن هذه الفكرة »



التوتر وراء هذا المزاج . وكان مما يسترعى الانتباه أيضا ،
جلوس شين هكذا معنا ، ومشاركته إيانا في الطعام ، بشكل طبيعي ،
وكانه فرد من أفراد أسرتنا . ولم يكن ثمة شيء من الارتباك الذي
يأتى به بعض الضيوف . وكنت تشعر بأنك لابد أن تلزم جادة
الادب أمامه ، وأن تزيد عنايتك بمسلكتك وحديثك . . . ولكن
دون تزمت ، بل فى مودة وعدوء .

وأخيرا وقف فى مكانه ، فأدركت أنه سيركب جواده ، ويذهب
من لدنا بعيدا ، وودت ولو بجذع الأنف ، ان أحول دون ذهابه . .
على أن أبى لم يلبث حتى أدى ذلك عنى . . . اذ قال له :
- حقا انك رجل متسرع ! اجلس يا شين ، فان لدى سؤالاً
أسألك إياه .

وبدا على أبى الجد فجأة . وبأن على شين فى وقفته تلك انتباه
ويقظة بعيدة . . ولكنه جلس فى مقعده على الفور .

وتفبرس فيه أبى ثم قال له :- هل أنت هارب من شيء ؟
فحدق شين فى الطبق الذى أمامه برهة ، وخيل الى أن ظلا
من الحزن قد ارتسم على وجهه . ثم رفع بصره ونظر الى أبى وقال :
كلا . لست هاربا من شيء . . بالشكل الذى تتصوره .

فقال أبى وقد انحنى الى أمام ، وضرب المائدة بسبابتة مؤكدا
كلامه : حسنا . . . استمع الى يا شين . . . انى لست صاحب
عزبة لتربية الماشية . . . وأنت تعلم الآن ذلك بعد اذ رأيت
أرضى . . . انما أنا مزارع . أجل انى أربى ماشية ، ولكنى مزارع
قبل كل شيء . وهذا ما عزم أن أكونه حين تركت تربية الماشية
بأجر للغير . وهذا ما أريد أن أكونه وأنا فخور به . وقد بدأت
بداية طيبة . . . وما أملكه من معدات ليس من الكبر كما أمل
ان يكون يوما ما . ولكن هنا من العمل أكثر مما ينهض به رجل
واحد اذا أريد له حسن الاداء . والشباب الذى كان عندى ، قد
هرب بعد أن تشاجر مع اثنين من أجراء فلنشر فى البلدة ذات يوم .

وكان أبى يتكلم بسرعة ، والآن وقف عن الكلام ليأخذ نفسه .
وكان شين يرقبه مليا . ثم حرك رأسه ليلقى من النافذة
نظرة على الوادى وماوراءه من جبال تصل الى الافق . وغمغم
قائلا وكأنه يحدث نفسه : ان الامر هكذا لا يتغير ! والوسائل
القديمة لا تنقرض بسهولة !

ونظر الى أمى ثم الى ، ثم عاد ينظر الى أبى ، وبدأ انه قد بت فى أمر
كان يزعجه . ثم قال فى رفق :

— اذن فان فلتشر يضغط عليك !

فقال أبى : انى لا أضغط بسهولة . . ولكن أمامى هنا
عملا أنجزه ، وهو أكبر من أن ينفرد به رجل واحد ، ولو كنت
أنا ذلك الرجل . ولست أجد أحدا من المشردين الذين يطرقون
هذه الطريق يستحق قلامة ظفر . .

فقال شين : — هكذا ؟

وكانت عيناه تضحكان من جديد ، وعاد واحدا منا ، ومكث ينتظر
حتى يتم أبى حديثه .

وقال أبى : ألا تمكث معنا قليلا ، وتعاوننى على تنظيم
الامور تأهباً للشتاء ؟

فوقف شين على قدميه ، وبدأ الى عبر المائدة أطول قامة مما
حسبت . وقال : انى لم أتصور نفسى قط مزارعا ياستاريت . ولو
خطر لى ذلك منذ بضعة أيام لضحكت سخرية . . ومع ذلك
فقد استأجرت لنفسك الآن أجيرا ! . . .

وكان هو وأبى يتبادلان النظر بشكل يدل على انهما يقولان أشياء
لا تعبر عنها الكلمات . ثم التفت شين نحو أمى وقال : وسأعد
الطعام الذى تطهينه ياسيدتى أجرا كافيا لى !

فضرب أبى ركبتيه بيديه وقال : — ستحصل على أجور طيبة ،
وستستحقها بعملك . ولكن أولا ماذا لا تقصد الى البلدة ، وتقننى

لنفسك بعض ثياب العمل؟ جرب الشراء من متجر جرافتون • وقل
له يقيد ماتشترية فى حسابى •

وهرع شين الى الباب وهو يقول : ساشترى بنقودى !
وخرج لايلوى على شىء •

وفرح أبى حتى انه لم يقدر أن يقعد هادئا • بل قفز وزاح
يدور بأبى ، ويقول لها : يا ماريان : أخيرا أشرق الشمس
ساطعة • • • لقد استأجرنا لانا نفسنا رجلا !

فقالت له أمى : ولكن يا جو : أوافق أنت من صواب ما فعلت؟
أى نوع من العمل يستطيع أن يقوم به رجل من هذا الطراز ؟
آه • انى أقر بأنه قد كان نذالك فيما يتعلق بذلك الجذع •
ولكن هذا كان مهمة خاصة • • انه قد اعتاد طيب العيش ووفرة
المال • • • ويمكنك أن تلحظ فيه ذلك • • • وقد قال لك بنفسه
انه لا يدري شيئا من شؤون الزراعة •

— كذلك لم أكن أدري عنها شيئا حين بدأت أفلح هذه
الارض • ان ما يعرفه الرجل ليس بالأمر ذى البال • ولكن
المهم هو ما يكونه الرجل • وانى أراهنك ان هذا الشخص كان
راعى بقر حين كان أصغر مما هو سنا ، بل كان رئيس رعاة •
وأى عمل يؤديه ، لابد أن يتقنه • • • وما عليك الا أن ترقبيه • • • انه
بعد أسبوع واحد قد يجعلنى أنا نفسى مقوس الظهر أو قد يراس
المكان •

فقالت أمى : — ربما !

— لا مجال هنا لقول «ربما» ! ألم تلحظى كيف تلقى ما قلت
بشأن أجراء فلتشر والشاب مورلى ؟ هذا الذى أغراه بالمكث
عندنا • • • انه يعلم انى فى حرج ، وليس هو بالرجل الذى
يخذلنى فى هذا الموقف • لا أحد يستطيع أن يزيحه أو يدفعه الى
الهرب خوفا • • • انه من طراز الرجال الذى أحتاج اليه •

— كيف ذلك يا جوستاريت ؟ انه لا يشبهك مطلقا • • • انه

أصغر منك قدا ، ويختلف عنك شكلا ، كما انه يلبس غير ما تلبس ،
ويتحدث بغير أسلوبك فى الكلام . . . انى موقنة انه عاش
عيشة غير عيشتك .

فبانث الدهشة على أبى وقال: انى لم أعن بما قلته أمثال
هذه الامور .

وعاد شين بزواج من السراويل من القماش الحشن ، وقميص
من « القانلة » ، وحذائين ضخمين من أحذية الشغل وقبعة متينة .
ودخل المخزن ثم خرج منه بعد لحظات قليلة وهو مرتد ثيابه
الجديدة ، يقود جواده دون سرج . وعند مدخل المرعى ترك زمامه
وربت على ظهره ثم سلمنى الزمام ، وهو يقول لى : اعتن بالجواد ،
يعتن بك ، يابوب . ان هذا الحصان قد قطع بى أكثر من ألف
ميل فى الأسابيع القليلة الأخيرة .

ثم مضى بخطوات واسعة ليلحق بأبى ، وكان يحفر فى
حقل وراء حقل القمح النامى ، كانت الأرض فيه خصبة ولكنها
كثيرة النقع ، فلا تساوى كثيرا الا اذا حسن « الصرف » فيها .
ورأيتة وهو يتأرجح فى مشيته بين خطوط القمح الصغيرة ، ولم
يعد غريبا مجهولا ، بل صار جزءا من هذه الناحية ، ومزارعا مثل
أبى ومثل . . .

غير انه لم يكن فى الحق مزارعا ، ولن يكون . . ولم تمض
ثلاثة أيام حتى كنت توقن بأنه يقف مع والدى جنبا الى جنب ،
فى أى نوع من العمل . وما عليك الا أن تريه ما ينبغى عمله ،
فيسطيع أداءه ، وقد يبتكر تحسينا ما فى طريقة انجازه ،
وكان دائما على أهبة لأن يستقل بالجزء الأصعب من أية مهمة .
غير انك مع ذلك كنت تشعر دائما بشكل ما ، انه انسان فريد
فى نوعه .

وكان أحيانا يقف عن العمل وينظر بعيدا الى الجبال ، ثم ينظر
الى نفسه والى أية أداة تكون فى يده ، كأنه يعجب من حاله ومن
العمل الذى يقوم به . . دون أن يوحى اليك ذلك بأنه يحسب

نفسه أسمى مستوى من ذلك العمل ، أو انه لا يميل اليه .
وكل ما هنالك انه كان غريبا على ذلك العمل . . . لقد أعدته
ظروفه الماضية لأشياء أخرى !

وكان قوى الجسم رغم نحافته التي قد تخدعك في البداية .
ولكنك اذا رأيته عن كثب في حركته ونشاطه ، أدركت انه
متين الجسم ، ممثلته ، وانه ليس في تكوينه اسراف في الوزن ،
كما انه ليس في حركته الناعمة الانسيابية . اسراف في الجهد .
والذي ينقصه في الحجم والقوة اذا قورن بأبى ، قد عوض نفسه
منه بسرعة الحركة ، والثناسق الغريزي بين العقل والعضل ،
وبتلك الطاقة الوحشية المفاجئة من النشاط التي استعرت فيه
حين أراد ذلك الجذع العتيق أن يسقط فوقه . وكانت هذه
الطاقة أغلب الوقت خاملة فيه ، اذ كان لا يحتاج اليها وهو يمشى
في يسر ، في خلال عمله اليومي الرتيب . ولكنها كانت اذا
استثيرت ، التهب على الفور غزيرة جامحة ، فتبعث في نفسى
الخوف كل مرة .

على انى ، كما حاولت أن أبين لأمى ، لم أكن أخاف شين نفسه ،
ولكن كنت أخشى ما يوحى به ذلك الى ، من أمور بين البشر تفوق
ادراكى . وفي هذه الاحوال كنت ترى فيه تركيزا للجهد والقوة ،
ووحدة في اليقظة بما يناسب اللحظة الراهنة ، بشكل كان
يبدو لى رائعا ومزعجا فى آن واحد . ثم لا يلبث حتى يعود الى
هدوئه ، وينقلب رجلا ثابتا يشارك أبى فى اخلاص الغلام
ولده . .

وكنت اذ ذاك قد بدأت أشعر بنزق الفتیان ، فخورا بنفسى اذ
استطعت ان أغلب «أولى جونسون» ابن جيراننا أصحاب المزرعة
التالية لمزرعتنا على الطريق . وكنت مشغول الفكر بالقتال ،
على طريقة الغلمان . . .

وانتهزت مرة فرصة انفرادى بأبى فقلت له : أتستطيع أن
تغلب شين؟ أعنى اذا تشاجرتما؟

فأجاب قائلا : هذا سؤال صعب الجواب يا بنى . . . واذا اضطررت الى ذلك لفعلته . ولكنى أكره ان أجربه . . . ان بعض الرجال يكونون الديناميت فى قرارهم ، وهو أحد هؤلاء . . . على انى أقول لك ، انى لم أصادف فى حياتى رجلا مثله ، أوثر أن يكون فى صفى لأضدى ، فى أى نوع من النزاع .

وقد أمكننى ان أفهم ذلك ، وقد أَرْضانى ! ولكن كان لشين أحوال عزت على ادراكى . فمثلا حين دخل لتناول أول وجبة من الطعام معنا ، بعد ان اتفقنا معه على البقاء عندنا ، قصد الى الكرسي الذى اعتاد أبى الجلوس عليه ، ووقف بجانبه فى انتظار جلوسنا جميعا فى أماكننا . وقد دهشت أُمى لذلك ، وتضايقت قليلا . . وهمت بأن تقول شيئا . ولكن أبى أسكتها بنظرة تحذير . ومضى نحو كرسيه المواجه لشين وجلس عليه وكأنه المكان الصحيح الطبيعى له ، وبعد ذلك صار هو وشين يتخذان هذين المكانين دائما .

ولم أفقه سببا لهذا التبديل ، حتى قرع الباب جيراننا الاقربون يوما ونحن نتناول الطعام ، ودخلوا على الفور كما اعتاد معظم الجيران ذلك . وعندئذ أدركت بغتة ان شين كان جالسا تجاه الباب حيث يمكنه ان يواجه مباشرة أى أحد منه . ورأيت ان هذا هو الذى اراده حين بدل مقعده . ولكنى لم أدرك لماذا شاء ذلك .

وفى المساء بعد العشاء ، حين كان يتحدث معنا حديث الراحة والكسل ، كان لا يجلس بجوار نافذة قط . واذا جلسنا تحت السقيفة التى امام الباب ، كان دائما يقعد بحيث يواجه الطريق . وكان دائما يميل الى ان يكون وراءه جدار ، لا لكى يسند ظهره اليه فحسب . . وحينما كان بعيدا عن المائدة ، كان قبل ان يجلس ينقل كرسيه الى المكان المناسب ، عند اقرب جدار ، دون ان يحاول لفت الانظار الى ذلك ، بل كان يضعه ثمة فحسب ، ثم ينثنى فيه فى حركة يسيرة واحدة . ولم يكن

يبدو عليه انه يدري غرابة ذلك، بل كان جزءا من يقظته الراسخة
في نفسه . . لقد كان يحرص دائما على ان يحيط بكل ما
يحدث حوله !

و كنت تلحظ هذه اليقظة ايضا في الرقابة التي يقوم بها ،
دون ان يظهر انه يقوم بجهد خاص ، كلما اقترب احد من
مكاننا . وكان اول من يعرف ان احدا سائر بالطريق ، وكان
يقف عن اى شىء هو بصدده ، ليفحص بنظره كل راكب يمر .
وكثيرا ما كان يزورنا اناس في المساء ، لان المزارعين الآخرين
كانوا يعدون ابنى زعيما لهم ، فكانوا يأتون الينا لكي يبحثوا
معه شؤونهم . وكانوا أشكالا يبعثون على التسلية ، بطريقتهم
الخاصة كانوا أشكالا شتى . . ولكن شين لم يكن
تواقا للقاء الناس ، وكان لا يسهم في حديثهم الا قليلا . اما معنا
فكان طلق اللسان الى الدرجة الكافية ، فقد كنا « أهله » من
بعض الوجوه الغامضة ! ومع اننا قد آوينا عندنا ، فقد كان
يشعر انه تبنانا ! اما مع الغير ، فقد كان متحفظا ، ومع ادبه
ورقة حديثه معهم ، كان لا يتخطى معهم خطا معيننا وضعه
لنفسه . .

ان هذه الامور قد حيرتني كما حيرت سواى . وكان الناس
الذين بالبلدة ، وكذلك الذين كانوا يمرون بمزرعتنا او يزوروننا
بانتظام ، يتساءلون عنه فى فضول . ومن عجب ان الناس جميعا
الذين بالوادي ، بل كذلك الذين فى عزب البقر فى العراء ، قد
علموا وشيكا انه صار يشغل عندنا .

ولعلمهم لم يكونوا مرتاحين الى وجوده فى الناحية ، فقد حكى
لهم « ليديارد » قصة طويلة عما حدث معه عندنا ، فجعلتهم هذه
القصة يحدقون فى شين بحدة ، كلما واتتهم الفرصة . ولكن لا بد
انهم كانوا يقدرون ليديارد حق قدره ، لانهم لم يقبلوا قصته
على علاقتها . . والحقيقة انهم لم يقدرُوا ان يحكموا لشين او
عليه ، وهذا الذى كان يضايقهم كما يبدو .

وقد سمعت الرجال اكثر من مرة يتجادلون بشأنه امام متجر
المستر جرافتون حين كنت اذهب مع « اولى جونسون »
الى بركتنا المألوفة لتصيد منها السمك . وسمعت يوما سائق
بغال شيخا يقول عنه : انه يشبه فتيل المفرقعات البطيء .
فهو هادىء من غير ضوضاء .. وهو من السكون بحيث تنسى
انه مشتعل . ثم اذا به يحدث بفتة انفجارا هائلا من المشاكل
حين يلمس البارود . . هكذا هو ! وقد ظلت المشاكل تختمر
في هذا الوادى زمنا طويلا حتى الآن . . ولعل من الخير ان
تنفجر .. ولعله من الشر .. فان الانسان لا يقدر ان يحكم !
وقد حيرنى ذلك ايضا .

على ان اكبر ما حيرنى هوشىء مكثت اسبوعين افكر فيه
دون ان اهتدى الى رأى ، فقد كان أعجب الاشياء .. ذلك ان
شين لم يكن يحمل مسدسا ! !

وفي تلك الايام كانت المسدسات شيئا مألوفا في المنطقة ، مثل
الاحذية او السروج . ولم تكن تستخدم كثيرا في الوادى الا في
الصيد اذا لاحت فرصته . ولكنها كانت حاضرة دائما . وكان
معظم الرجال لا يشعرون بتمام هندامهم الا بها ..

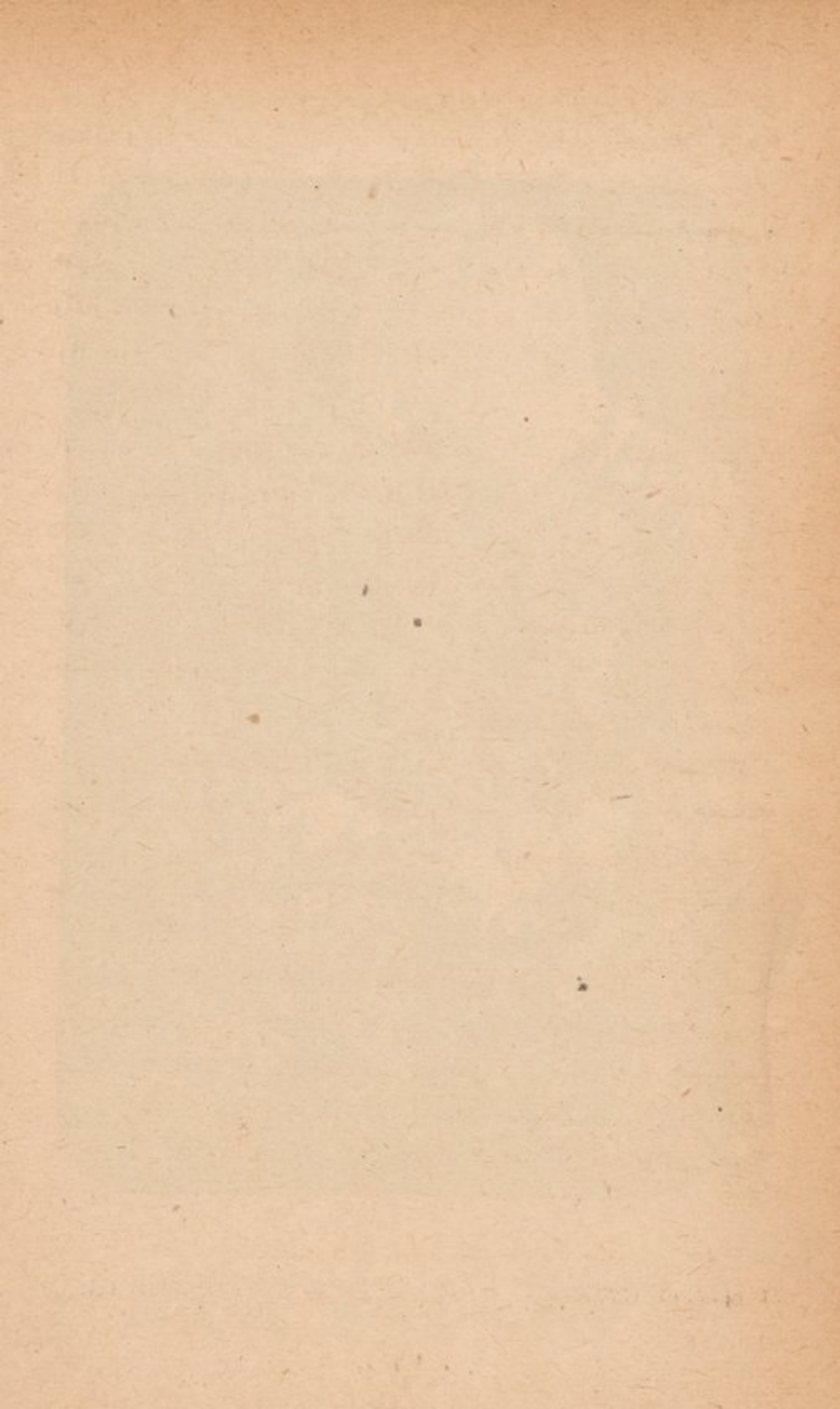
ونحن المزارعين كنا في الغالب نستخدم البنادق حين كنا نريد
اطلاق النار . اما المسدس الذى يوضع عند اسفل الجنب ، فهو
شئ مزعج للمزارع . ومع هذا كان كل رجل في المنطقة يتمنطق
بحزام الرصاص وبه مسدس في جراب ، حين لم يكن يعمل في
مزرعته او يحوم حول داره . وكان أبى يشد حزامه الى وسطه
كلما خرج على ظهر جواده ، ولوالى البلدة فحسب ، ولعل ذلك
كان بحكم العادة دون اى غرض آخر .

ولكن شين هذا لم يكن يحمل مسدسا قط ! وكان هذا امرا
عجيبا ، لانه كان له مسدس !

وقد رأيته مرة . . رأيته حين كنت وحدى يوما في مخزن
المحصولات ، ولمحت كيس السرج (الخرج) الخاص به فوق



« وعندئذ رأيت المسدس ، وكان أجمل مسدس
رأيت في حياتي . لقد جمع بين الجمال والرغبة . »



سريره . وكان عادة يحرص على وضعه تحت السرير ، بعيدا عن متناول الايدي . ولا بد انه قد نسيه هذه المرة ، فقد كان ظاهرا بجوار الوسادة . ومددت يدي لآلمسه فأحسست بالمسدس في داخله . ولم يكن أحد على مقربة ، ولذا فككت اربطة الكيس واخرجت البطاطين التي به . وعندئذ رايت المسدس ، وكان أجمل مسدس رأيته في حياتي . . لقد جمع بين الجمال والرهبة !

وكان القراب ، وحزام الرصاص المملوء ، من نفس الجلد الاسود الناعم الذي صنع منه الحذاء المدسوس تحت السرير ، وقد صنعا مثله بنفس الشكل المزرکش . ودلتني معرفتي القليلة بالمسدسات على ان هذا المسدس من طراز (كولت) المفرد ، وهو الطراز الذي يستخدمه الجيش النظامي ، والذي كان كل الرجال يؤثرونه في تلك الايام ، وكان الكبار يقولون انه احسن صنوف المسدسات .

كان المسدس من نفس الطراز ، ولكنه لم يكن من مسدسات الجيش . . فقد كان اسود اللون ، يكاد يكون فاحم السواد ، ولم يكن سواده في الطلاء ولكن في المعدن نفسه . وكان مقبضه واضحا على القوس الخارجى ، مشكلا طبق الاصابع في قوسه الداخلى ، وقد طعم بقشرتين من العاج على كل من جانبيه ، ببراعة فائقة .

وكان شكل ذلك المقبض يغريك بأن تمسك به . . وقد امسكته ، واخرجت المسدس من قرابه . وانسل منه بسهولة جعلتني لا اكاد اصدق انه صار في يدي . . وكان ثقila كمسدس أبى ، ولكنه كان بشكل ما ، أسهل استعمالا منه . وما عليك الا ان تمسكه في مستوى التسديد ، فيبدو لك انه يوازن نفسه في يدك . .

وكان نظيفا ومصقولا ، وممسوحا بالزيت . وتحركت اسطوانته الفارغة بسرعة ودون صوت ، حين فككت محبسها ،

وضربتها بخفة . وقد عجبت ان لم أجده بالمسدس البروز
الذى يكون عادة في اعلاه ، بل كانت اسطوانته ناعمة الى
طرفها ، وكان الزند قد برد الى نقطة حادة .

فماذا يفعل انسان ذلك بمسدس ؟ ولماذا يأبى رجل يملك
مسدسا كهذا ، ان يحمله ويباهى به الناس ؟ ولما تفرست في
هذا السلاح القتال ، تولانى الرعب بغتة من جديد ، واسرعت
فأعدت كل شيء الى مكانه بالضبط كذى قبل ، وهرولت الى
الخارج حيث بسطت الشمس اشعتها .

وانتهزت اول فرصة لانبىء أبى بذلك . وقلت له وانا مهتاج
الشعور : أبى ! أتعرف ماذا طوى شين عليه بظانياته ؟

— ربما كان مسدسا !

— ولكن . . كيف عرفت ذلك ؟ هل رأيته ؟

— كلا . . ولكن هذا هو الذى قد يكون لديه .

فاختلط على الامر وقلت :

ولماذا اذن لا يحمله ؟ أتظن ذلك لانه لا يحسن استعماله ؟

فضحك أبى وكأنه سمع منى نكتة . . وقال :

يا بنى : لن يدهشنى اذا تناول ذلك المسدس وأطلقه فخلع أزرار
قميصك هذا وأنت مرتديه فتشعر كأنه نسيم مر به . .

— رباه ! لماذا يخفيه اذن فى المخزن !

— لأدرى ، لأدرى تماما !

— ولماذا لا تسأله !

فنظر أبى الى نظرة جادة وقال : هذا سؤال لن أوجهه اليه
أبدا . . . ثم حذر ان تذكر له أى شيء عن هذا الموضوع . فان
هناك أمورا لا ينبغى أن تسأل الانسان عنها . . هذا اذا كنت
تحترمه . ان له الحق فى الاحتفاظ بما يحسبه أمرا خاصا
به وحده . ولكن ثق يا بوب انه اذا أبى رجل مثل شين أن يحمل

مُسَدَّسَه ، فِيمَكْنَك أَنْ تَرَاهَنْ عَلَى قَمِيصِكَ بِأَزْرَارِهِ وَكُلِّ مَا فِيهِ ،
عَلَى أَنْ هُنَاكَ بَاعَا قُوِيَالْذَلِكَ ...

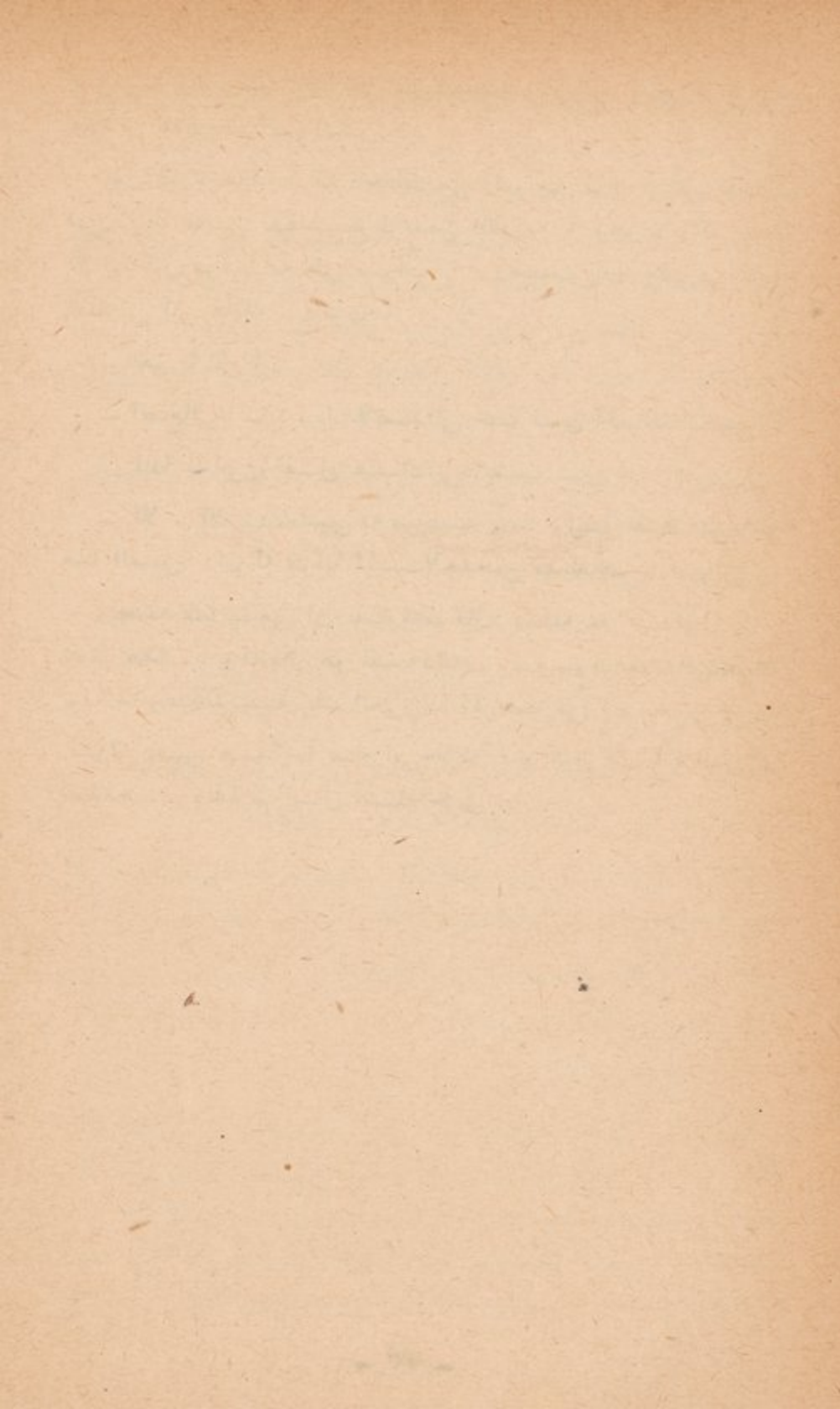
أَذْنُ فَالْأَمْرُ هَكَذَا ؟ لَقَدْ اخْتَلَطَ عَلَى أَكْثَرِ مَنْ قَبْلَ . وَلَكِنْ إِذَا أَكَّدَ
أَبِي شَيْئًا فَلَيْسَ ثَمَّةَ مَتَسَعٍ لِمَزِيدٍ مِنَ الْقَوْلِ ٠٠ وَهُوَ لَا يُؤَكِّدُ شَيْئًا
إِلَّا إِذَا كَانَ مُوقِنًا أَنَّهُ عَلَى صَوَابٍ ٠٠٠ وَهَمَمْتُ بِأَنْ أَمْضِيَ فِي سَبِيلِي
فَنَادَانِي أَبِي قَائِلًا : يَا بُوْبُ !

— نَعَمْ يَا أَبِي !

— اصْغِ إِلَى يَا بَنِي ... لَا تَعْمَدِ إِلَى حُبِّ شَيْنٍ أَكْثَرِ مَا يَنْبَغِي ...

— لِمَاذَا يَا أَبِي ! هَلْ هُنَاكَ شَيْءٌ يَعِيبُ شَيْنَ !

— كَلَّا . كَلَّا ... لَيْسَ بِهِ مِنْ عَيْبٍ ... وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ
هَذَا الْقَبِيلِ ٠٠ إِنْ لَهُ مَزَايَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنْ قَدْتَلَقَاهُمْ ... وَلَكِنْ ...
وَبَحْثُ عَمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَهُ ثُمَّ قَالَ : وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مُسْتَقَرٍّ ...
تَذَكَّرْ هَذَا .. وَقَدْ قَالَ هُوَ نَفْسَهُ ذَلِكَ ... وَسَوْفَ يَعُودُ إِلَى تَجَوَّالِهِ
يَوْمًا مَا ، وَعِنْدَئِذٍ يَشْتَدُّ بِكَ الْحُزْنُ إِذَا أَفْرَطْتَ فِي مَحَبَّتِهِ .
وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مَا عَنَاهُ أَبِي حَقِيقَةً . وَلَكِنَّهُ كَانَ مَا أَرَادَ مِنِّي أَنْ
أَعْتَقِدَهُ .. وَلِذَا لَمْ أَسْأَلْ أَسْئَلَةً أُخْرَى ...



صيف سعيد



مضت الاسابيع بعضها تلو بعض ، وسرعان ما خيل لنا ان شين كان معنا دائما ، وان من المحال ان انقضى زمن لم يكن فيه فردا منا... وكان يشتغل مع ابى ، وهو ادنى الى ان يكون شريكا له ، منه اجيرا لديه . وكان مقدار العمل الذى ينجزانه كل يوم يدعو الى العجب . وكان حرث خطوط الارض يتطلب من ابى الكدح معظم فصل الصيف ، ولكنه الآن تم فى اقل من شهر وتم بناء الطبقة العليا من المنزل وخزن الحصاد الاول للرسيم . واصبح لدينا من العلف ما يكفى مزيدا من العجول الصغيرة فى خلال فصل الشتاء لكى تسمن فى الصيف التالى . ولذا غادر ابى الوادى بجواده ، وقطع طريقا طويلة الى مزرعة الماشية التى كان اجيرا بها من قبل ، ثم عاد اليها ومعه ستة عجول جديدة .

وقد غاب عنا يومين . ولما رجع ، وجد ان شين قد ازاح سياج الحظيرة ، ليضيف اليها بقعة جديدة توازى نصف مساحتها . ونظر ابى من فوق جواده الى الحظيرة فى دهشة وكأنه لا يصدق عينيه ، فقال له شين :

— الآن يمكننا ان نجعل الامور تسير حقاقى السنة القادمة ، وينبغى لنا ان نحصل من ذلك الحقل الجديد على قدر من الدريس يكفى لتغذية اربعين راسا .

فقال ابى : — اجل .. هكذا يمكن ان تسير الامور ... وينبغى لنا حقا ان نجنى الكفاية من العلف .

وقد امتلأ قلبه سرورا ، لانه كان فى تلك اللحظة يعبس فى وجه شين كما اعتاد ان يعبس لى كلما فعلت شيئا يسره ولا يريد

أن يقر برضائه عنه ... وقفز من فوق جواده وأسرع الى الدار ، حيث كانت أمى واقفة فى السقيفة ، وسألها على الفور وهو يشير الى الحظيرة : ياماريان ... فكرة من هذه ؟

فقالت بعد تردد : لقد اقترحها شين ...

ثم أردفت قائلة بخبث ، ولكنى قلت له ينفذها ...

وكان شين قد وقف بجانبه فقال : هذا صحيح لقد حثنى بما يشبه النخس بمهماز ... لكى أتم هذا العمل اليوم ! انه نوع من انواع الهدية ... واليوم هو ذكرى زواجك ... فقال أبى : انى أوشك أن انفجر ! هكذا الحال !

ونظر ببلاهة الى أحدهما ثم الى الآخر . ثم صعد درج السقيفة وقبل أمى ، وعينا شين ترمقانه . وقد شعرت بالارتباك له واستدرت جانبا ، وصعدت نحو قدم من الدرج .. ومالبثت ان صحت قائلا : ان العجول تهرب بعيدا !

وكان اولئك الكبار الثلاثة قد نسوها . وقد بدأت العجول الستة تفرى الطريق صعدا ، متفرقة شاردة . فصدرت عن شين - وهو الرقيق الصوت عادة - صيحة ربما سمعت حتى منتصف الطريق المؤدى الى البلدة ، وجرى الى جواد أبى ووضع يديه على سرجه ثم قفز قفزة واحدة صار بها فوق ظهره ، وجعل الجواد يرمح به دفعة واحدة . وجرى هذا الجواد الذى اعتاد مطاردة البقر ، خلف تلك العجول وكان ذلك لعبيلهو به ... وما أن وُصل أبى الى مدخل الحظيرة حتى كان شين قد ساق العجول الشاردة جماعة متماسكة وهو يسير وراءها بجواده خبيا . ثم أدخلها فى الحظيرة دون أى عناء .

وفى خلال اللحظات القليلة التى أغلق فيها أبى الباب وراء العجول ، بدا شين فوق الجواد طويل القامة مستقيم الجسم ، وكان هو والجواد يلهثان قليلا ، وكانا كلاهما يختالان فخورين بما فعلا ..

ثم قال : لقد مضت عشرين سنوات منذ فعلت شيئا من
هذا القبيل آخر مرة !
فضحك أبى منه وقال له : يا شين ، لولا انى أعرفك حقا ،
لقلت انك مدع ... لا يزال بك كثير من الطفولة !
فاشرق وجه شين بأول ابتسامه رأيتها به وقال : ربما .. ربما
كان الامر كما تقول ...

احسب ان ذلك الصيف كان اسعد صيف مر بى فى حياتى !
وكانت السحابة الوحيدة فى سماء وادينا ، وهى المشكلة التى
كانت لا تفتأ تتجدد بين «فلتشر» وبيننا نحن المزارعين ، قد
انقضت فى ذلك الصيف . وكان فلتشر نفسه غائبا عن الناحية فى
معظم تلك الأشهر . وكان قد سافر الى «فورت بنيت» بولاية
«داكوتا» ، بل مضى شرقا كما سمعنا حتى وصل الى واشنطن
ساعيا فى الحصول على عقد بتوريد لحوم البقر الى وكيل
الهنود الحمر فى « ستاندينج روك » ، معقل قبيلة «سيوكس»
الهندية وراء «التلال السوداء» .

وفيما عدا رئيس عماله - فورمان - وعدة عمال مشاكسين
كبار السن ، كان أجراؤه رعاة بقر صغار السن ، لطاف المعشر ،
كانوا يحدثون ضجة بالبلدة بين حين وآخر ، ولكنهم قل أن
يحدثوا أذى ، وما يأتون به الا وهم فى حالة نشوة . وكنا نميل
اليهم حين لا يكون فلتشر هناك ، فيدفعهم الى مضايقتنا باستمرار
بطرق خبيثة . والآن وقد سافر بعيدا ، لزموا الجانب الآخر من
النهر وصاروا لا يضايقوننا . بل كانوا أحيانا يركبون جيادهم
على الشاطئ الآخر ، فاذا أصبحوا على مرأى منا ، لوحوا
لنا بأيديهم ، بطريقتهم المرحية .

وقبل أن يأتى شين ، كانوا هم أبطالى ... أما أبى فقد كان
بالطبع نسيج وحده !!

وماكان فى الامكان ان يكون له ند .. وقد كنت اتمنى لو
اصبح مثله ، كما هو دون تغيير ... ولكنى اردت اولا ان اكون
اجيرا فى مزرعة لتربية ماشية ، كما كان ابنى من قبل ، وان يكون
لى عدد من الجياد اعنى بها ، وان اسهم فى سوق الماشية الى
حظيرتها بحرق الاخشاب حولها، وان اسوق قطيعا كبيرا من
الماشية اقتحم به مدنا غريبة مع امثال هؤلاء الفرسان المرحين ،
ويكون معى اجر موسم يشخشخ فى جيبى ...

اما الان فلم اعد واثقا من بقاء احلامى هذه كما كانت ... بل
صرت رويدا رويدا اتمنى لو اكون مثل شين ، مثل هذا الرجل
الذى تصورت انه كان فى ماضيه محاطا بكل رعاية .. وكان لابد
لى ان اتصور ماضيه ، فانه ماكان يتحدث عنه قط ، باى
شكل من الاشكال . بل ان اسمه نفسه بقى خافيا علينا . وانما
كنا نعرفه باسم « شين » فحسب . ولاشئ سوى ذلك .
ولم نعرف قط ان كان هذا اسمه او لقبه ، او انه اسم أسرته
.. وقد قال لنا اول يوم : « نادونى شين » ، ولم يزد على
ذلك قط ، ولكنى تصورت له كل ضروب المغامرات ، دون ان
اربطها بوقت او مكان معين ، متخيلا اياه فى شكل شخص
نحيل القد ، قاتم اللون ، هاجم منقض ، يمر مطمئنا بأخطار
كانت تقهر رجلا دونه جراحة وقوة .

وكنت اصغى بما يشبه العبادة بينما كان بطلاى هذان ، واعنى
ابى وشين ، يتناقشان طويلا وفى مودة ، بشأن الماشية .
وكانا يتجادلان حول طرق تغذية العجول وزيادة وزنها الى الحد
الاقصى . ولكنهما كانا متفقين على ان تربية الماشية فى نطاق
محدود ، خير من تربيتها على نطاق واسع فى مزارع مفتوحة،
وانه ينبغى تحسين نوعها حتى ولو تطلب ذلك مزيدا من انفاق
المال على استيراد الثيران . وكانا يتحدثان عن امكان امتداد
التحمس لمد الخطوط الحديدية حتى يصل الى وادينا ، وبذا
يمكن شحن الماشية مباشرة ، دون ان تفقد جزءا من وزنها فى
طريقها الى الاسواق .

وكان واضحا ان شين قد بدأ يرتاح الى المعيشة معنا والعمل في الارض . وكان التوتر الذى به يزول تدريجا . أجل كان لا يزال يقظا متربصا ، مع انتباهه الغريزى لكل ما يجرى حوله . وقد أصبحت أدرك ان ذلك خلة كامنة في نفسه ، ولم يتعلمه او يكتسبه ، بل كان جزءا من كيانه الطبيعى . غير أن ذلك الافراط الحاد في يقظته الشعورية ، التى تكاد تصل الى حد توقع شر مجهول ، كان في سبيله الى الزوال .

ولكن لماذا كان يبدو عليه أحيانا انه غريب وانه مقهور ، وانه يشعر بمرارة في قرارة نفسه ؟ كان ذلك مثلا حين كنت ألعب بمسدس أعطاني إياه المستر جرافتون ، وهو مسدس قديم من مسدسات الحدود من طراز (كولث) ، وله ماسورة مشروخة ، وكان البعض قد تركه للمتجر .

وقد صنعت له قرابا من خرقة مزقت من قماش مشمع ، كما أعددت له حزاما من حبل ٠٠٠ وكنت ألهو بالقرب من مخزن الحاصلات ، وأدور كل بضعة خطوات ، لاكتشف هنديا أحمر مزعوما ، قد يكون مختفيا هناك ٠٠٠ وإذا بى أرى « شين » يرقبني عند باب المخزن . فوقفت على الفور ، وأنا أفكر فى ذلك المسدس الجميل الذى تحت سريره ، وقد خفت أن يسخر منى ومن مسدسى المكسور البائس ٠٠٠ ولكنه بدل أن يسخر منى ، نظر الى نظرة جادة ، وقال لى : كم صرعت حتى الآن يا بوب !

وهل كان باستطاعتي أن أجيبه ؟ لقد تخيلت مسدسى ، تلك اللحظة مسدسا جديدا يلعب ، وكانت يدي ثابتة كالصخرة وأنا أسحب فى العداد خرزة جديدة وقلت له :

- لقد أصبح العدد سبعة !

- هنود حمر أم ذئاب الغابة ؟

- هنود حمر ٠٠٠ كبار !

فقال برفق : - يجدر ان تترك قليلا منهم للكشفة الآخرين ،
اذ لا يحسن بك أن تثير غيرتهم منك .

واصغ الى يابوب : أنك لا تؤدى الامر كما يجب !

وجلس على سفط مقلوب وأشار الى لاقترب ، ثم قال لى :
ان القراب واطىء جدا . لا تدعه يهبط الى طول الذراع . بل ضعه
فى أسفل جنبك ، وبذا يكون مقبض المسدس فى نصف الطريق
بين معصمك وكوعك ، حين تكون ذراعك ممدودة الى جانبك فى
استرخاء وعندئذ يمكنك ان تمسك بالمسدس حين ترتفع يدك ،
ولا يزال هناك متسع لتخليص القراب دون أن تضطر الى رفع
المسدس الى أكثر مما يلزم .

- رباه ! هل هذه الطريقة التى ينبعها الذين يتقاتلون بالمسدسات ؟

فلاح فى عينيه شعاع عجيب ولكنه ولى وشيكا وقال : كلا . . .
لا يتبعونها جميعا . . . بل أن معظمهم لهم حيلهم الخاصة بهم .
فمنهم من يحب أن يكون قرابه فى الكتف . ومنهم من يضع مسدسه
فى حزام سراويله ، وبعضهم يحمل مسدسين ، ولكن هذه لعبة يراد بها
التباهى ، وفيها اسراف فى الثقل . . . يكفى مسدس واحد ، بشرط
أن تعرف كيف تستخدمه . . . وقد شهدت رجلا له قراب مشدود ،
مفتوح الطرف ، وهو مربوط بمشبك صغير الى الحزام ، ولم
يضطر وقتئذ الى جذب المسدس ، وانما رفع الماسورة الى فوق
وانطلق اللهب من أسفل جنبه .

وهذا يفى بالسرعة الفائقة فى القتال القريب ، وحين يكون الهدف
ضخما . ولكنه غير مؤكد العاقبة على بعد عشر خطوات أو خمس
عشرة خطوة ، ولا يصلح مطلقا لاصابة طلقتك حيث تريد . . .
والطريقة التى بينتها لك تعدل أية طريقة أخرى ، بل هى تفضل
معظم الطرق وهناك شئ آخر . . .

ومد يده وتناول المسدس . وانتبهت الى يديه فجأة ، كأنى
أراهما أول مرة . . . لقد كانتا عريضتين ، قويتين ، ولم تكونا

ثقيلتين ولا ممثلتين باللحم ، كيدي أبى • وكانت أصابعهما طويلة ،
مربعة الاطراف • ومن عجب أن يديه حين لمستا المسدس ، بدتا
كأنهما ذواتا ذكاء خاص بهما ، فقد كانت حركتهما ثابتة مؤكدة ،
لا تحتاج الى ارشاد من الذهن !

وأطبقت يده اليمنى على مقبض المسدس ، ولو رأيته اذ ذاك
لايقنت انه يفعل ما خلق له •
ورفع المسدس القديم ثم وضعه فى كفه ، ثم ضغطت عليه أصابعه ،
ولعب ابهامه بالزناد ليجربه •

وبينما كنت أنظر اليه مشدوها ، قذف به فجأة فى الهواء ثم
التقطه بيده اليسرى • وفى اللحظة التى أمسك به فيها ،
استقر فى يده ساكنا ، ثم رماه من جديد ، عاليا فى هذه المرة ،
وهو يدور فى الهواء رأسا على عقب ، ولما هوى مد يده اليمنى
وتناوله ، وأدخل سبابته فى قنطرة الزناد وساقية المسدس ،
وجعله متأهبا للاطلاق فى حركة واحدة لا انفصام بها • وبدأ معه
ذلك المسدس وكأنه قد انبعثت فيه الحياة ، ولم يعد قطعة من
المعدن ، جامدة ، صائدة ، بل صار جزءا من الرجل نفسه أو
امتدادا له •••

ثم قال لى : واذا كنت تنشدا السرعة يا بوب ، فلا تجزىء الحركة
الى أجزاء ، فتسحب المسدس ، وترفع الزند ، وتسدد ، ثم تطلق
النار ••• بل أرجع الزند الى الحلف فى اللحظة التى ترفع فيها
المسدس ، واضغط على الزند فور ارتفاعه الى المستوى المنشود •
- وكيف تسدده اذن ؟ وكيف تلقى نظرك عليه ؟

- لا حاجة لذلك ••• بل تعلم أن تمسكه بحيث تكون الماسورة
فى خط مستقيم مع الاصابع اذا امتدت الى الامام مستقيمة •
وعندئذ لا تضطر الى تضییع الوقت فى رفعه لكى تلقى نظرة •• وما
عليك الا ان تسدده منخفضا ، وبسرعة ويسر ، كما تسدد أصبعك •

« كما تسدد اصبعك ! » • واد نطق بهذه الكلمات ، نفذ معناها ،
فقد سدد المسدس القديم الى هدف ما بجوار الحظيرة ، وقعقع
الزناد فى الاسطوانة الحالية • ولكن اذا بيده التى حول المسدس
قد ابيضت ، وانفجرت أصابعه رويدا ، وسقط المسدس الى
الارض ، وهوت يده الى جانبه جامدة متخاذلة • ورفع رأسه ،
وفغر فاه فى مرارة ، وحدقت عيناه الى الجبال المتصاعدة على
بعد ...

فصحت به : - شين ! شين ! ماذا جرى ؟

ولم يسمعنى ••• اذ كان قد رجع به الذهن الى مكان ما ، فى
طريق الماضى المظلم •

ثم تنفس من أعماق صدره ، وأدركت الجهد الذى يمر به وهو
ينتقل الى الحاضر ، ويشعر بوجود غلام أمامه ، يتفرس فيه • وأشار
الى لارفع المسدس من الارض • ولما فعلت ، مال الى الامام وقال
لى بلهجة جادة :

- اصغ الى يا بوب : ان المسدس ليس الا اداة ••• فهو لا يفضل
أية اداة أخرى ، سواء أكانت مجرفة أم بلطة أو برذعة أو قرنا
أو أى شئ آخر ••• فتصوره هكذا دائما ••• ان المسدس يكون
جيذا أو رديئا حسب الرجل الذى يحمله ••• فتذكر ذلك !

ثم قام ومضى الى الحقول ، وأدركت أنه يريد الانفراد بنفسه •
وقد وعيت ما قاله لى ، وحفظته فى ذهنى فلا أنساه ما حييت •
ولكنى فى تلك الايام كان التفاتى لما قاله عن طريقة تناول المسدس
ونصحته لى فى شأن استخدامه • وصرت أتدرب عليه وأسائل
نفسى متى يقدر لى ان أحصل على مسدس ينطلق فعلا •••

ثم انتهى فصل الصيف • وبدأت الدراسة من جديد • وصار
النهار أقصر من قبل ، وبدأ البرد يزحف من فوق الجبال ••

الأرض الطيبة

مكتبة المجلد ١٢

وذهب مع الصيف ما هو أكثر منه : فان موسم المودة التي سادت وادينا ، كان يسير نحو نهايته ، مع حرارة الصيف . فقد عاد فلتشر من سفره ، وكان قد حصل على العقد . وكان يتحدث في البلدة ، بأنه أصبح محتاجا الى جميع المنطقة ، ويقول انه لابد من رحيل المزارعين عنها .

وكان يقول بطريقته الناعمة انه رجل « معقول » ، عادل ، ولذا فهو مستعد لان يدفع ثمننا مناسبا في مقابل المنشآت التي قد أقامها الزراع . ولكننا كنا نعرف ماذا يعنيه « لو فلتشر » بكلمة « الثمن المناسب » . . . ولم تكن ننوى الرحيل . وكانت الارض ملكا لنا بحق « وضع اليد » الذي تكفله الحكومة . ولكننا كنا نعرف أيضا ان الحكومة بعيدة جدا عن وادينا الذي في أقصى المنطقة .

وكان أقرب حاكم على بعد مائة ميل أو أكثر . بل لم يكن لبلدتنا عمدة . ولم يكن ثمة قط ما يدعو لوجوده . وكان القوم كلما احتاجوا الى التقاضى ، ذهبوا الى « شريدان » على سفر نصف يوم تقريبا بالخيول . وكانت بلدتنا صغيرة ، ولم تكن قد نظمت كبلدة . وكانت بسبيل النمو ، ولكنها كانت لاتزيد بعد عن كونها مستعمرة بجانب الطريق .

وكان أول من جاؤوا الى هذه الناحية ثلاثة أو أربعة من المعدنيين ، وقد جاؤوا يبحثون عن الذهب بعد انهيار « شركة بيج هورن » للتعدين منذ عشرين سنة تقريبا ، وكانوا قد وجدوا آثارا للذهب تقود الى عرق معتدل فى الصخور الناتئة ، التي تكاد تحيط بالوادي حيث ينتهى الى سهل . وما كان يمكن عد ذلك اكتشافا ، فان

الذين جاؤوا فى أثر أولئك ، لم يلبثوا حتى خاب أملهم • أما
الأولون القلائل فقد حسنت أحوالهم ، وجاؤوا بأسراتهم
وبعد من العمال الذين يعاونونهم •

ثم وقع الاختيار على هذا المكان ليكون محطة بدل (غيار)
لحط نقل وانتقال العربات ، ومعنى ذلك أن يصبح مكانا يمكن الركاب
فيه ، والجياد أيضا ، أن يجدوا فيه ما يشربونه ••

وبعد فترة وجيزة من الزمن بدأ رعاة البقر من المزارع التى
بالسهول ومن مزرعة الماشية التى يملكها فلتشر ، بدأوا يفدون الى
البلدة ليقضوا فيها المساء • وبدأت البلدة تتكون بعد أن
شرعنا نحن المزارعين نفد الى الناحية كذلك ، وكان واحد أو
اثنان منا يأتیان كل موسم تقريبا فيزيد بهما العدد • وسرعان
ما فتحت عدة حوانيت ، وفتح دكان حداد وسروجي ، وشيد نحو
سنة بيوت • وفى السنة الأخيرة أنشأ القوم مدرسة مؤلفة من قاعة
واحدة •••

وكان محل سام جرافتون هو أكبر الحوانيت بالبلدة • وكان
عبارة عن متجر لمختلف السلع ، قامت خلفه عدة غرف للإقامة فى
شطر من مبناه الفسيح ، وفى الشطر الآخر حانة ذات (بار) طويل ،
وعدة مناضد للعب الورق ومثل ذلك • وكان فى الطابق الاعلى
بعض غرف كان يؤجرها لبعض المندوبين التجاريين أو لغيرهم
للمبيت فيها • وكان سام جرافتون يؤدى لنا أيضا خدمة
البريد ، وكان رجلا متقدما فى العمر ، بارعا فى المساومة ،
ولكنه نزيه فى معاملاته • وأحيانا كان يقوم بمهمة القضاى فى
المنازعات الطفيفة • وكانت زوجته قد ماتت ، فصارت ابنته « جين »
تدير البيت له ، وكانت كذلك تعلم فى المدرسة ، فى وقت
الدراسة •••

ولو كان لنا عمدة ، لكان من صنائع فلتشر • فقد كان فلتشر
هو صاحب النفوذ فى الوادى فى تلك الايام • ونحن المزارعين لم
نفد الى الناحية الا منذ بضع سنين ، وكان الآخرون يحسبون

أن بقاءنا هناك انما يرجع الى تسامحه نحونا . . . وكان يربى
الماشية فى نواحي الوادى كله فى الوقت الذى جاء فيه المعدنيون
أول مرة ، وكان قد اشترى المزارع القليلة التى أمام أراضيها ،
أو أُرهب أصحابها حتى تركوها له . ثم توالى سنوات عجاف ،
انتهت بصيف جفاف ، وشتاء رهيب ، فى سنة ١٨٨٦ ، فأدى
ذلك كله الى نقص كبير فى قطعان ماشيته ، وكذلك كانت الحال
حين جاء أول المزارعين واستقر بالناحية ، فلم يبد فلتشر كثير
معارضة . أما الآن فقد صار ثمة سبعة من المزارعين ، وكان
عددهم يزيد كل سنة .

وكان من المؤكد ، كما كان أبى يقول ، ان البلدة ستنمو
وستتجه نحو ناحيتنا . وكان المستر جرافتون يعرف ذلك أيضا ،
ولكنه كان رجلا أريبا لا يصرح بأرائه بشأن أثر المستقبل فى
التجارة الراحنة . . أما الآخرون فكانوا من النوع الذى يتجه مع
الرياح حيثما اتجهت . . ولقد كان فلتشر هو الشخصية البارزة
فى الوادى ، ولذا كانوا يعتمدون عليه ويحملوننا مثله . ولو شاء
لعاونوه على اخراجنا من أراضينا . ولولا وجوده لارتضوا بقاءنا . .
والآن قد عاد فلتشر وفى جيبه عقد ، فهو محتاج الى استعادة
كل مزرعته كاملة !

وعقد فى دارنا مجلس عاجل ، على أثر انتشار النبأ . وقد
سمعه ليوجونسون ، جارنا الذى بالقرب من البلدة ، حين كان
بمتمجر جرافتون ، فسارع الى نشره ، وكان أول قادم عندنا .
ثم تبعه هنرى شيبستيد جاره الأدنى الى البلدة . وكان هذان
الاثنان أول من أتى الى الناحية من الزراع ، وقد وضعا أيديهما
على مائة وثمانين فدانا لكل منهما ، قبل سنتين من عام الجفاف ،
وصبرا على مضايقات فلتشر ، حتى حدث ذلك النقصان فى
قطيعه فشغل به عنهما . وكانا رجلين ذوى صلابة ، ممن يعتمد
عليهم ، وكانا زارعين من الطراز القديم وفدا الى الغرب من ولاية
« ايوار » . . .

ولكن هذا الوصف لا ينطبق تماما على الآخرين الذين جاؤوا
على فترات من الزمن .

وكان « جيمس ليويس » و « ادهويلز » عاملين من عمال
مزارع البقر ، فى أوسط العمر، وقد كرهما عملهما ثم أغريا أبى
بالاستقرار على أرض فى ذلك الوادى ، ومالبشا حتى راحا
يترسمان أثره ، ولكن لما كانا لم يؤتيا مثل همته ونشاطه ، فانهما
لم يصيبا نجاحا كبيرا وكان من أيسر الامور تثبيط همتهما .

وكان « فرانك تورى » جار أبى ، رجلا ضعيف الاعصاب ،
كثير التبرم ، وله زوجة مشاكسة وعدة أطفال قذرين تطول قاماتهم
كل عام . وكان دائما يتحدث عن شذرحاله والهجرة الى كاليفورينا .
ولكنه كان فى الوقت نفسه على شىء من العناد ، فكان يقول أيضا
انه محال أن يرحل من الناحية لالشىء سوى ان أحد أصحاب
المزارع من ذوى القبعات الضخمة، يريد منه الرحيل !

أما ارنى رايت « فكان صاحب آخر قطعة أرض فى الوادى ،
وكانت أرضه متداخلة فى المزرعة التى لا يزال فلتشر يستخدمها
لماشيته ، ولعله كان أضعف الجميع ، لامن الوجهة الجثمانية .
وكان رجلا لطيفا أجش الصوت، أسمر اللون لدرجة انه كان يقال
ان به دما من الهنود الحمر . وكان دائما يغنى ويحكى قصصا
طويلة . . ولكنه كان يخرج للصيد فى الوقت الذى يجب أن يشتغل
فيه ، وكان سريع الغضب حتى ليتورط فى اتيان حماقات دون
تفكير .

ولكنه كان فى تلك الليلة بادى الجدد مثل رفاقه من الزراع . وكان
المستتر جرافتون قد قال ان فلتشر يعترم الآن تعاملنا صحيحا ،
فان العقد الذى معه كان يتطلب كل لحم البقر الذى يستطيع
الحصول عليه فى خلال السنوات الخمس القادمة ، وكان مصمما
على انتهاز هذه الفرصة الى أقصاها .

وقال فرانك تورى متسائلا: ولكن ماذا يمكننا أن نفعله ؟
ان الارض لنا طالما عشنا فوقها وسنحصل على حق ملكيتها بعد

ثلاث سنوات • وبعضكم أيها الرفاق قد حصل فعلا على هذا الحق •

وقال جيمس ليويس : انه لن يحدث شرا حقيقيا ... ان فلتشر لم يكن قط من الرجال الذين يطلقون النار ... انه كثير المجععة ، والمجععة لا يمكن أن تحدث لنا أذى •

فاوماً كثير من الآخرين رؤوسهم، ولكن جونسون وشيبستيد لم يبد عليهما انهما موافقان على هذا القول •

أما أبي فانه لم يكن قد قال شيئاً بعد ، والآن نظروا اليه جميعا • فقال : لقد أصاب جيم • • • فذا فلتشر لم يدع فتياته يسيثون الينا بهذه الطريقة • • • حتى الآن على الأقل • ولكن هذا لايعنى انه لن يلجأ الى هذه الطريقة اذالم يجد أمامه سواها • • • ان به عرقا يدفعه الى الصلابة • • • غير انه سيظل برهة دون أن يحدث شرا حقيقيا • • • وما أحسبه سيشرع فى الاتيان بماشية جديدة قبل أن يحل فصل الربيع • • • والذي أعتقد هو انه سيشرع فى الضغط علينا فى هذا الحريف ثم فى الشتاء الذى يليه ، ليرى ان كان يستطيع أن يفت فى عضدنا • • • وربما بدأ هنا ، عندى • • • انه لا يحب أخدامنا، ولكنه يكرهنى أكثر منكم جميعا • فقال اد هويلز ، معبرا عن قرارهم الضمنى بأن أبى زعيمهم : هذا صحيح • وماذا تحسبه سيفعل ضدك ؟

فأجاب أبى فى بطاء وقد ابتسم ابتسامة مغتصبة كأنه يعرف ان بيده ورقة طيبة فى لعبة حامية : أحسبه سيبدأ بأن يحاول اقناع شين بأنه ليس من الخير له أن يشتغل معى ! فقال ارنى رايت : أتعنى انه سيفعل كما فعل مع • • •

فقاطعه أبى قائلا : أجل : • • • كما فعل مع الشاب مورلى • • • وكنت أنظر خلصة من خلال باب غرفتى الصغيرة • • • وقد رأيت شين جالسا بعيدا الى جنب ، وهو يصغى فى هدوء كعادته • • • ولم يظهر عليه أى أثر للدهشة ، ولم يبد عليه كذلك أى اهتمام

بمعرفة ما حدث للشباب مورلى . وكنت أعرف ذلك ، فقد رأيت مورلى يوم عاد من البلدة ، مضروباً به رضوض ، فجمع حاجياته ولعن أبى الذى استأجره ، ثم ركب جواده دون أن ينظر خلفه . . . ولكن شين جلس هناك فى هدوء ، وكأن ما حدث لمورلى لا يعنيه مطلقاً . . . بل انه لم يهتم بمعرفة ما حدث . . . ثم أدركت سبب عدم اكترائه . . . لقد كان ذلك لانه ليس مورلى ولكنه شين !

لقد أصاب أبى ! لقد كان الشعور السائد ، بشكل ما ، هو ان شين هو الشخص المقصود !

كان محط الانظار بوصفه رمزا من نوع ما ! وان أبى اذ اتخذه أجيرا ، قد قبل بطريقة ما التحدى ممن فى المزرعة الكبيرة وراء النهر . . . ان ما حدث لمورلى كان نذيرا لأبى ، وقد أجاب أبى عمدا على هذا النذير . وقد طالت حالة التوتر ، والآن احتدت بعد فترة الهدوء فى الصيف . لقد كانت المشكلة فى وادينا واضحة ، وكان لابد من دفعها مع الوقت حتى تصل الى نهاية . واذا أمكن ابعاد شين ، فان ذلك يؤدى الى حدوث ثغرة فى صفوف الزراع ، والى هزيمة لا تقتصر على فقد رجل ، بل تمس الكرامة والمقام . . . انه يكون بمثابة كسر فى السد ، يضعف البناء كله ، ويفيض منه الماء أخيرا .

وقد زاد فضول الناس فى البلدة عنه فى أى وقت آخر ، ولم يكن موضوع فضولهم الآن ، ماضى شين ، ولكن ماذا يكون موقفه اذا حاول فلتشر أى شىء ضده ؟ وكانوا يقفوننى حين كنت أسرع ذاهبا الى المدرسة أو عائدا منها ، ليوجهوا الى أسئلة بهذا الشأن . وكنت أعرف ان أبى لا يحب أن أقول شيئا ، ولذا كنت أظهار بآنى لا أدرك ما يقولونه . ولكنى كنت أرقب شين عن كثب ، وأعجب كيف يتركز التوتر البطئ فى وادينا ، هكذا فى شخص واحد ، وهو مع ذلك يبدو غير مكترث له الى هذا الحد ! لقد كان بالطبع شاعرا به . فانه كان لا يفوته شىء . ولكنه

مع ذلك استمر في عمله كال المعتاد، وكان يبتسم لى مرارا ، ويمازح
أمى وقت وجبات الطعام بطريقته المهذبة، ويتناقش مع أبى مناقشة
ودية كذى قبل بشأن مشروعات السنة القادمة . والشئ الجديد
الوحيد هو انه ظهرت حركة ناشطة حديثة وراء النهر . وكان
من دواعى الدهشة ان فتيان فلتشر صاروا يلقون لهم أعمالا
كثيرة، تجعلهم على مرأى من البقعة التى نحن فيها !

ثم حدث بعد ظهر أحد الايام، حين كنا نخزن الحصاد الثانى
والاخير من البرسيم ، أن انكسرت احدى أسنان المدرة الكبيرة التى
كنا نرفع بها البرسيم الى الغرفة العليا من المخزن . فقال أبى فى
استياء :

— سأضطر الى اصلاحها فى البلدة .

ثم أخذ يربط الحزمة .

فنظر شين الى ما وراء النهر حيث كان أحد رعاة البقر يروح
ويغدو بجواده فى كسل ، مع عدد من الماشية . وقال :

سأخذها الى البلدة !

فنظر أبى الى شين ، ثم نظرائى ما وراء الطريق ، وقطب ، ثم
قال : حسنا . . . ان الوقت مناسب كائى وقت آخر . . .
ورمى آخر ربطة على الارض، وبدأ يعود الى البيت . وقال: بعد
دقيقة واحدة أكون مسـتعدا للذهاب الى البلدة معك !

فقال شين بصوت رقيق ولكنه جعل أبى يقف عن السير : هون
عليك ياـجـو ! لقد قلت انى سأخذها الى البلدة !

فاستدار أبى ليووجهه ، وقال له : ويحك يارجل ! أتظن انى
أدعك تذهب وحدك ؟ افرض انهم

ولكنه أمسك ولم يتم الجملة . . . ومسح وجهه بيده فى بطة،
ثم قال مالم أسمعه يقوله لاي رجل من قبل : — انى آسف . . .
كان يجب أن أكون أحسن ادراكا للامر . . .

ووقف ثمة صامتا يرقب شين، وهو يمسك بالزمام ثم يقفز
لى مقعده بالعربة .

وخفت أن يمنعنى أبى من الذهاب مع شين . . ولذا انتظرت
حتى خرج شين بالعربة من الزقاق ، وسرت مخفيا رأسى خلف
الخن ، ثم حول طرف الحظيرة ، ثم قفزت الى العربة أثناء مرورها .
وعندئذ أبصرت راعى البقر وراء النهر يدير جواده ويسرع به فى
اتجاه وراء المزرعة .

ورأى شين ذلك أيضا وبدأ أنه راقه . . ومد يده الى وراء
، جذبنى فوق المقعد وأجلسنى بجانبه .

وقال لى : أنتم يا آل ستاريت تحبون التدخل فى أمور
نناس . .

وحسبت لحظة انه سيدعنى أرجع الى الدار ، ولكنه على
العكس ضحك وقال لى : سأشترى لك مطواة حين نصل
الى البلدة .

وقد أوفى بوعده واشترى لى مطواة كبيرة جميلة ذات حدين
و « بريمة » . . ثم تركنا المذراة عند الحداد ، بعد ان علمنا ان
اصلاحها يستغرق ساعة ، ثم جلست القرفصاء على درج
السقيفة المستطيلة التى امام مبنى جرافتون ، وشغلت بقطع
الخشب بالمطواة الجديدة ، بينما دخل شين الى ناحية الحانة
وطلب لنفسه مشروبا . وكان « ويل اتكى » كاتب جرافتون
النحيل ، ذو الوجه الحزين - وهو فى الوقت نفسه الموكل بالبار -
واقفا خلف البار ، وكان عدة أشخاص يتسكعون عند احدى
المناضد .

ولم تمض بضع لحظات حتى جاء اثنان من رعاة البقر مسرعين
فوق جواديهما ، ومضيا فى الطريق ، حتى اذا صارا على بعد
خمسین ياردة من ارضنا ابطأ فى السير ، وقصدا الى محل
جرافتون ، وهناك نزلا من فوق الجوادين وربطوا زماميهما

بالقضبان التى امام المحل . وكنت قد رايت أحدهما مرارا ، وهو شاب كان الجميع ينادونه باسم « كريس » ، وكان قد قضى عدة سنوات فى خدمة فلتشر ، وقد اشتهر بمرحه وشجاعته الفائقة . أما الثانى فكان جديدا على ، وهو شاب أصفر الوجه غائر الخدين ، لا يكبر الآخر كثيرا ، ويبدو ان حياته كانت حافلة بالبؤس والضييق . ولا بد انه كان احد الاجراء الجدد الذين كان فلتشر يأتى بهم الى الوادى منذ حصل على ذلك العقد .

ولم يعرنى الشابان التفاتا ، بل صعدا درج السقيفة برفق ثم قصدا الى نافذة القسم من المبنى ، الذى به الحانة . واذ نظرا من خلاله ، أوما « كريس » ومد رأسه الى داخل الحانة ، ونصب الآخر قامته ثم مال على النافذة ليدقق النظر ، واذا به قد استدار فجأة ومربى وذهب على الفور الى جواده . فذعر « كريس » وجرى وراءه . وكانافى شغل عنى حتى لم يشعرا بوجودى ، ورفع الاجير الجديد الزمام فوق رأس جواده ، ولكن كريس امسك بذراعه ، وقال له : ماذا دهاك ؟

— انى راحل !

— ماذا ؟ انى لا افهم ما تقول !

— انى راحل من هذه الجهة ولن أعود !

— استمع الى . . أتعرف ذلك الشخص ؟

— انى لم أقل انى أعرفه . . ولا يقدر احد ان يزعم انى قلت ذلك ! ويمكنك ان تخبر فلتشر . . ان هذه الناحية ارض تاعسة على اى حال . .

وبدا الغضب يشتد بكريس ، فقال لصاحبه : كان ينبغى لى ان اعرف ! . . انك خائف !

فاحمر وجه الاجير الجديد مع شحوبه ، ولكنه مع ذلك صعد فوق جواده ، وابتعد عن القضبان ، وقال بصراحة :

— لك ان تحسب الامر كذلك!

ومضى فى الطريق خارجا من البلدة ، ومبتعدا عن الوادى .
وكان كريس لا يزال واقفاعد القضبان التى امام المحل ،
وهو يهز رأسه عجباً . ثم قال يحدث نفسه : « لا بأس . .
سأعالجه وحدى ! » . وصعد الى السقيفة ومنها دخل فى
الحانة .

وهرعت أنا الى القسم الذى به المتجر ، ومنه الى الردهة التى
بين القاعتين الكبيرتين . وقبعت فوق صندوق بالمحل بحيث
استطيع ان اسمع كل شىء من مكانى ، وان ارى معظم ما يدور
فى القاعة الاخرى . وكانت قاعة طويلة عريضة . وكان « البار »
يبدأ من عند الباب ويمتد الى جانب الحائط الداخلى حتى
الحائط الخلفى ، الذى قامت وراءه غرفة كان جرافتون يتخذها
مكتباً له . وكان ثمة صف من النوافذ فى الجانب الاقصى ، أعلى
من ان تتيح لأحد ان ينظر الى الداخل . وخلفها سلم صغير
يؤدى الى ما يشبه الشرفة فى المؤخرة ، ولها ابواب تفتح على
عدة غرف صغيرة .

وكان شين متكئاً باحدى ذراعيه فى استرخاء على « البار » ،
وقد امسك مشروبه بيده الاخرى ، فجاء كريس الى مسافة
ست اقدام تقريباً منه ، وطلب لنفسه زجاجة ويسكى وكأساً .
وتظاهر كريس بأنه لم يلحظ وجود شين فى البداية ، واوماً
برأسه محيياً الجالسين الى منضدة ، وكانا اثنين من سائقى
البغال كانا يأتیان الى الوادى بانتظام ، حاملين سلعا لجرافتون
والمحال التجارية الاخرى . وانى لموقن أن شين حين فحص
كريس بطريقته الخاصة — دون اكتراث ظاهر — قد بدت عليه
خيبة امل . .

وانتظر كريس حتى قدم اليه الويسكى وتجرع جرعة كبيرة
منه . ثم نظر الى شين كأنه لم يره قبل هذه اللحظة . وقال له :
هالوا . . ايها المزارع !

وقد نطق هذه الكلمة بلهجة من يكره المزارعين . . فنظر
إليه شين باهتمام ، وقال له بلطف وهو يفرغ كأسه :
أتقصدنى ؟

— لست أرى أحدا واقفا هنا سواك . . هيا خذ كأسا من
هذا !

وأزاح كريس زجاجته على البار ، فصب شين لنفسه منها
حتى ملاً كأسه ورفعها إلى شفثيه .

فقال كريس : حقا انها لعجبة ! انت تشرب ويسكى ؟
فوضع شين الكأس جانبا وقال : لقد كنت أشرب خيرا
من هذا الصنف . ولكن لا بأس ! «

فضرب كريس على فخذه بصوت مرتفع ، والتفت إلى
الآخرين وقال لهم : هل سمعتم ذلك ! ان هذا المزارع يشرب
الويسكى ! ما كنت لأحسب ان هؤلاء الفلاحين الذين يسوقون
المحراث ويزيحون الاقدار ، يشربون شيئا غير الصودا !

فقال شين بلهجة ودية كذى قبل : ان بعضنا يشرب الويسكى . .
ثم ولى عنه اللطف وقال بصوت قاصف : لقد شبعنا مزاحا ،
وانه حقا لمزاح الصغار . . والآن أجز إلى بيتك ، وقل لفلتشر
ان يرسل رجلا ناضجا فى المرة القادمة . .

والتفت جانبا وقال لويل آتكى : هل لديك صودا ؟ انى
أريد زجاجة .

فتردد ويل هنيهة ، وبان عليه شيء من الحيرة ، ثم دب إلى
قاعة البدالة . وعاد توا يحمل زجاجة صودا كان جرافتون
يحفظها لديه دائما لنا نحن اطفال المدرسة . وكان كريس واقفا فى
هدوء ، لا يبدو عليه من الغضب بقدر ما يبدو من الحيرة على
ما حسبت . وكانا كأنهما يلعبان لعبة عجيبة ، وكأنه غير مطمئن
إلى الحركة التالية . .

ثم زم شفثيه فجأة وغمز بأنفه وصاح يقول : ماذا جرى هنا ياويل ؟ .. هاهنا رائحة فاسدة .. انها ليست رائحة رعاة البقر النظيفة .. ولكنها رائحة قدرة لشون الحاصلات !

ونظر كريس الى شين ، ثم قال له : أنت أيها الفلاح : ماذا تربية أنت وستاريت هناك ؟ خنازير ؟

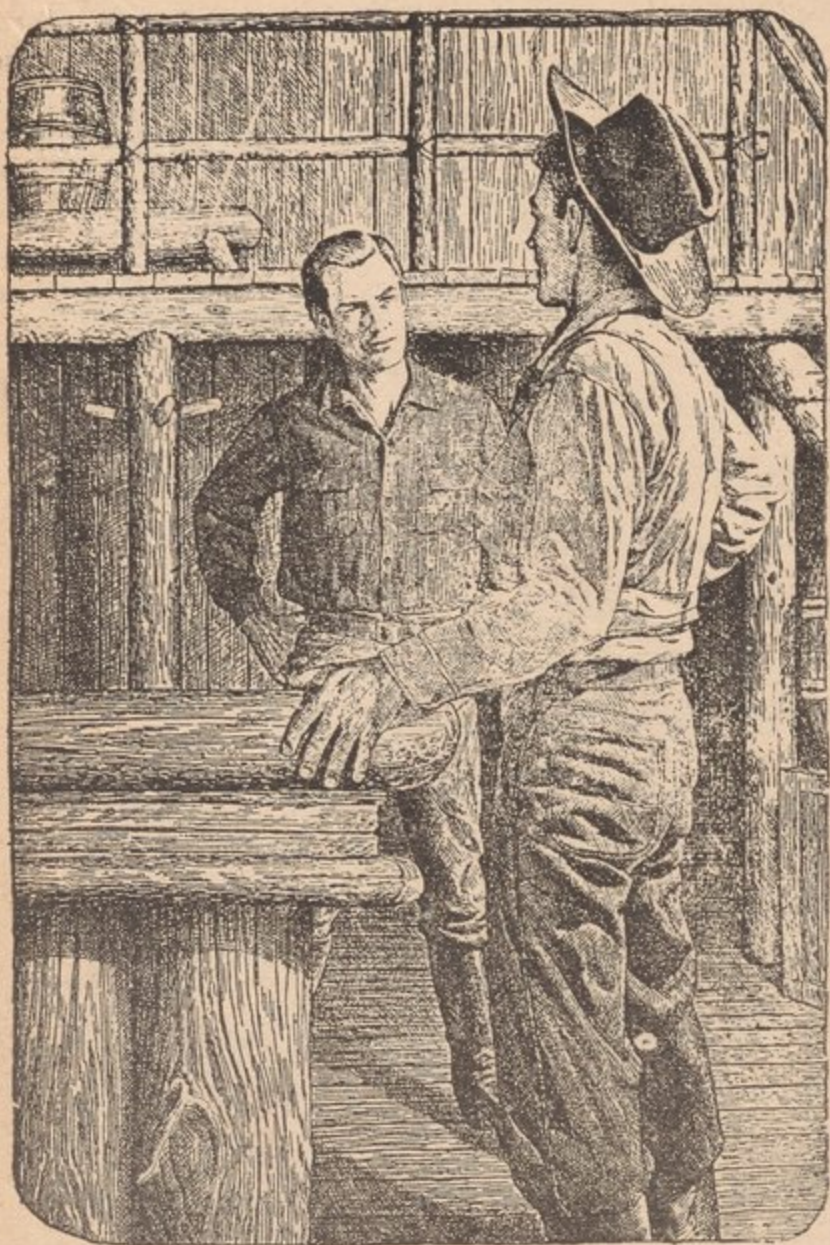
وكان شين قد امسك لتوه بالزجاجة التى جاءه بها « ويل » ، فأطبقت يده عليها ، وابيضت عظام اصابعه .. وتحرك ببطء بشكل يكاد يدل على عدم الرغبة .. لكى يواجه كريس .

وكان كل خط من خطوط جسمه متوترا كطرف السوط ، منتعشا زائحا باشتياق هائل . وبدا عليه ذلك التركيز الوحشى وقد تملك كيانه ، وتوقد فى عينيه . وفى تلك اللحظة لم يكن يرى فى القاعة سوى ذلك الشاب الذى يهزأ به ، على بعد خطوات منه .

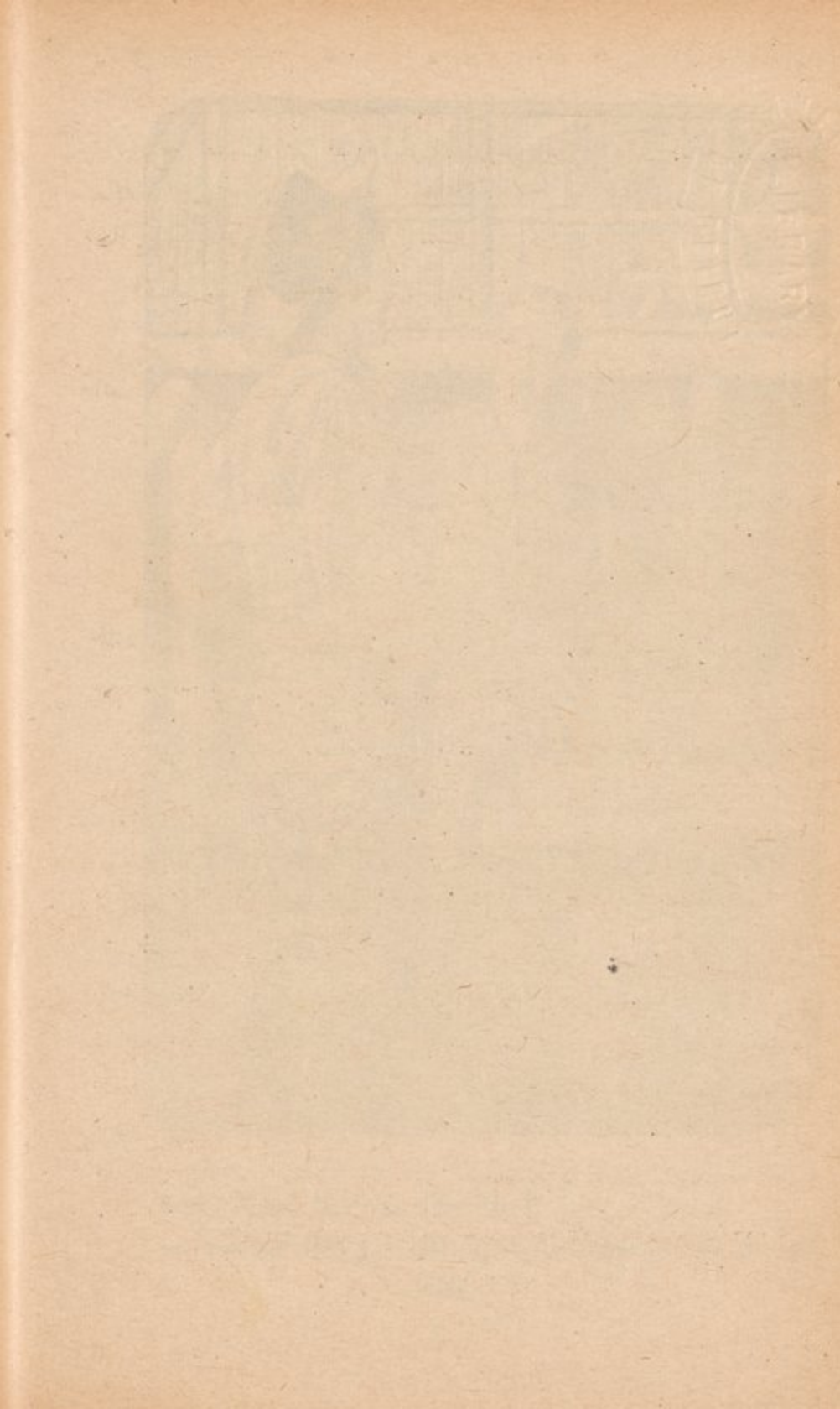
وشمل القاعة سكون تام يكاد يؤذى النفوس . وتراجع كريس الى الوراء بحركة لا شعورية ، خطوة ، فخطوتين ، ثم وقف منتصب القامة . ومع ذلك لم يحدث شئ بعد . وكانت عضلات عارضيه الرفيعة ناتئة كالصخر ..

ثم زفر شين زفرة كانت مكتومة ، بصوت ناعم بدد السكون ، وحاد ببصره عن كريس ونظر بعيدا ، متخطيا اياه ببصره ، فوق الابواب المتأرجحة ، وفوق سطح الكوخ الذى بالطريق ، الى الفضاء الذى تحيطه الجبال فى عزلتها اللانهائية . ثم مشى فى هدوء ، وقد نسي الزجاجة فى يده ، قريبا من كريس حتى ليكاد يلتصق به ، ولكنه مع هذا لم يبد عليه انه يراه ، حتى وصل الى الباب وخرج ! ..

وسمعت احدا بالقرب منى يتنفس الصعداء .. وكان المستر جرافتون قد جاء من خلفى ، من حيث لا ادري . وكان يرقب كريس بابتسامة عجيبة ساخرة ارتسمت عند طرفى فمه . وكان كريس يحاول ألا يظهر غروره ، ولكنه تمايل وهو ماض



ونظر كريس الى شين ، ثم قال له :
- أنت أيها الفلاح ! ماذا تربيه أنت وستاريت هناك ؟
خنازير ؟



الى الباب ، ونظر فوقه وقال من فوق كتفه : لقد رأيت بنفسك
يا ويل . . لقد هرب منى !

ورفع قبعته الى قمة رأسه وتراجع على كعبيه ، وضحك
قائلا : هرب ومعه زجاجة سودا ! وكان لا يزال يضحك وهو
خارج ، حتى سمعناه يركب جواده وينطلق به .
فغمغم جرافتون قائلا : يا له من فتى احمق !

وجاء ويل آتكى الى المستر جرافتون خائفا يقول : ما كنت
اتصور ان شين يسلك هذا المسلك !

فقال له المستر جرافتون : لقد خاف يا ويل !

— اجل ! وهذا هو العجيب حقا ! لقد كنت احسبه قادرا
على قهر كريس !

فنظر المستر جرافتون الى ويل نظرتة التى كثر ما رمقه بها ،
كأنه يعبر بها عن اسفه عليه . . وقال : كلا يا ويل . . انه لم
يكن خائفا من كريس ، ولكن من نفسه !

وبان عليه التفكير ، وربما الحزن ايضا ، واستطرد يقول :
هناك شر مخبأ لنا يا ويل ! أرفع شر شهدناه !

ثم انتبه لوجودى فقال لى : يحسن بك ان تخرج يا بوب ،
وتلقى صديقك . . هل حسبت انه اخذ زجاجة السودا لنفسه ؟

وقد كان صادقا . . فانى وجدت شين ينتظر فى دكان الحداد .
وكانت السودا ممزوجة بشراب الكريز الذى احبه . . ولكنى لم
اقدر ان استمتع بها كثيرا . . فقد كان شين صامتا ، ظاهر
الجد . وقد عاد الى عبوسه الذى شهدته عليه حين جاء الى
أرضنا راكبا جواده أول مرة . ولم يكلمنى الا مرة واحدة ، وقد
ادركت انه لا يتوقع منى ان افهم ما يقوله أو أجيب عنه . قال :

— لماذا يحطم انسان ، لا لشيء سوى أنه أوتى الشجاعة وصعد
بما امر به ؟ ان الحياة عبء شاق يا بوب ! لقد اعجبني ذلك الفتى !

ثم عاد كتوما كذى قبل ، وشغل عني بخواطره ، وظل على هذه الحال حتى وضعنا المذراة في العربة وقطعنا شوطا من طريق العودة الى الدار . وكلما اقتربنا منها عاد اليه سروره . حتى اذا دارت العربة نحو مخزن الحاصلات كان كما احب منه ان يكون ، يجعد ما حول عينيه لي ، ويسألني عن الهنود الحمر الذين سأسلخ فراء رؤوسهم بالمطواة

واندفع ابني خارجا من باب المخزن بسرعة تدل على أنه كان ينتظر عودتنا في قلق شديد . وكان ممتلئا فضولا ، ولكنه مع هذا لم يرض لنفسه ان يبادر شين بسؤال . . وبدلا من ذلك التفت الى وقال :

— هل رأيت احدا من ابطالك رعاة البقر بالبلدة ؟

فرد عليه شين بدلا مني قائلا :

— اجل فقد طاردنا احد فتیان فلتشر الى داخل الحانة ليقدم

لنا احترامه . .

فقلت أنا فخورا بما عندي من المعلومات :

— كلا بل كان هناك اثنان لا واحد !

انقال شين متسائلا : اثنان ؟

ولكن ابني لم يدهش ، وسألني شين : وماذا فعل الآخر ؟

فقلت له : لقد صعد درج السقيفة ونظر من خلال النافذة

الى حيث كنت فانت ، ثم عاد على الفور وركب جواده !

الى مزرعة فلتشر ؟

— كلا بل اتجه الاتجاه الآخر ، وقال انه ذاهب الى حيث

لا يعود .

فتبادل ابني وشين النظر ، وكان ابني يتسسم ، وقال : ذهب

احدهما دون ان تعلم . . وماذا فعلت بالآخر ؟

— لا شيء . . لقد ابدى بعض ملحوظات عن الزراعة والفلاحين

. . فعدت الى دكان الحداد !

فكرر ابى هذه الكلمات الاخيرة وكان لها معنى خفيا ! وقال :
انت . . . عدت . . . الى دكان الحداد ؟ !

ثم التفت الى وسألتنى : ومن كان ذلك الشخص ؟
- لقد كان « كريس » !

فعاد ابى يبسم . . . انه لم يكن هناك فى الحانة ، ولكنه صار
الآن يرى الامر فى جلاء . . . ثم قال :

- لقد اصاب فلتشر اذ ارسل اثنين . . . فان الشبان
الصغار من امثال كريس يجب أن يخرجوا أزواجا للصيد كيلا
يجلبوا لانفسهم الاذى . . .

وضحك بشكل يدل انه قدراقه ذلك . . . ثم قال :

- لا بد ان كريس قد دهش كثيرا حين هرب صاحبه . . .
ودهش اكثر حين خرجت انت !!

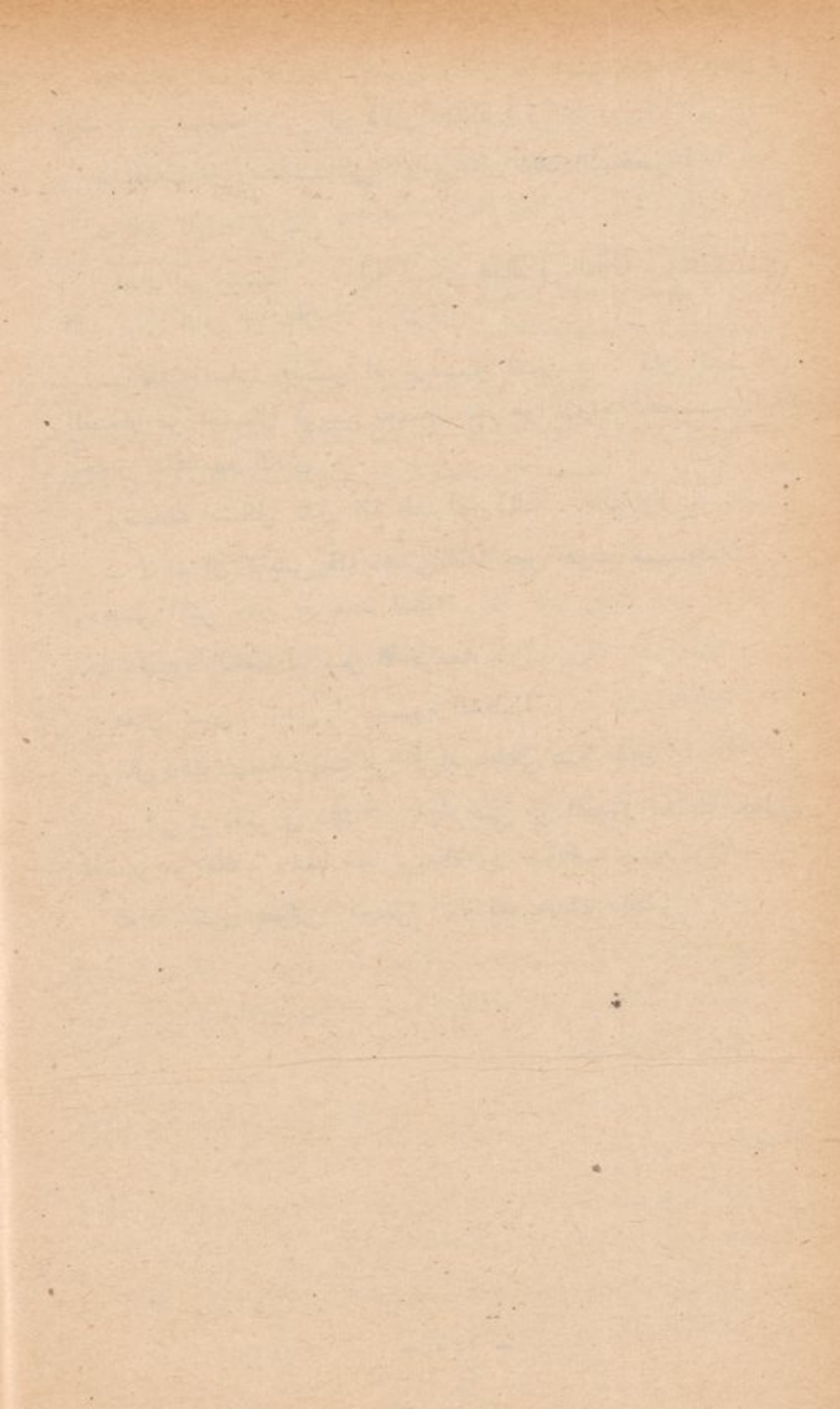
. . . ولسوء الحظ لم يبق الآخرمعه .

فقال شين : اجل ! لسوء الحظ !

قال ذلك بلهجة نبهت ابى الى امر خفى عنه فقال :

- انى لم افكر فى ذلك . . . ان كريس من الغرور بحيث يخطيء
تفسير موقفك ! وهذا مما يزيد الامور سوءا .

فعاد شين يقول : أجل . . . قد يحدث ذلك !



مات الخنازير

تجلیاتِ انوارِ اقبال

لقد حدث ، ما توقعه أبى وشين ، فانه قبل أن تغيب الشمس
فى الغداة ، كان كريس قد قص ما حدث بينه وبين شين لكل من
صادفه ، حتى ذاع وشاع فى الوادى كله ، وكان كل من يسمع
هذه القصة يحكيها لغيره بعد أن يزيد عليها حواشى من لدنه ..
لقد أصبح لفلتشر الآن ميزة علينا ، وسارع الى استغلالها ..
وكان بارعا فى أمثال هذه الامور ، ومثله فى ذلك رئيس عماله
المدعو « مورجان » ، وهو « لوح » من الرجال عريض الجسم مسطح
الوجه ، صغير الرأس بالقياس الى كتفيه الضخمين المنحنيين
... وقد جعلا رجالهما على أهبة دائمة لمشاكستنا نحن المزارعين فى
كل فرصة .

وقد بدأوا يتخذون معبرا على النهر يطل على مستقر « أرنى
رايت » ، وينحدرون من ثم الى الطريق ، مارين بدورنا ، كلما
وجدوا ذريعة للذهاب الى البلدة . وكانوا يسيرون على مهل ،
متفرجين علينا بشكل وقح ، مع ابداء ملحوظات عابرة ضدنا !

وفى الاسبوع نفسه ، وربما بعد ثلاثة أيام من حادث كريس ،
مرت جماعة منهم بينما كان أبى يضع مفصلة جديدة فى باب
الحظيرة . وتظاهروا بأنهم فى شغل بالنظر الى أرضنا وأنهم
لم يروه ، على قربهم منه ... ثم قال واحد منهم :

— لا أدرى أين يؤوى « ستاريت » خنازيره ! فانى لا أرى
واحدا منها !

فصاح آخر : — ولكنى أشم رائحتها !

وعندئذ شرعوا يضحكون ويصيحون ويصخبون ، ثم مرقوا
من المكان مخلفين وراءهم عاصفة من التراب ، تاركين أبى وقد زم

شفتيه في غيظ مكتوم . وكانوا يوزعون أذاهم على المزارعين
بالعدل والقسطاس ويبدلونه على طول الطريق كلما
لاحت لهم الفرصة . . ولكنهم كانوا يؤثرون أن يسمعوا أبي
سخريتهم ، حين يكون على مسمع منهم ، ويثرون بها غيظه و
غضبه !

لقد كان ذلك منهم سخفا وحطة . وبدا لي أن من الحق أن
يسلك أناس كبار مثل هذا المسلك ! ولكنه كان يحدث أثره !
أجل أن شين قد بقي ثابتا كالصخر ، متجاهلا تلك الصغائر .
وكذلك أبي استطاع أن يروض نفسه على الصبر عليها مع ما به
من غل . ولكن المزارعين الآخرين لم يسمعهم إلا أن يبدوا السخط
لتلك الاهانات ، وقد أصبحوأثري الأعصاب قلقين . ولم
يكونوا يعرفون شين على حقيقته ، كما نعرفه ، أنا وأبي . وحسبوا
أنه ربما كان فيما قصه كريس شيء من الحقيقة . . .

وساءت الأمور حتى أنهم صاروا كلما دخلوا محل جرافتون ،
صاح أحدهم يطلب زجاجة صودا ! وسرعان ما يدور الحديث بين
الجالسين قريبا ، حول الحنازير وكنت تستطيع أن تشعر
بالاحتقار الناشئ في البلدة لنا ، من جانب أناس كانوا من قبل
على الحياد لا يتحيزون لطرف دون آخر .

وبدا أثر ذلك أيضا في مسلك جيراننا حيال شين ، فقد
أصبحوا متحفظين نحوه كلما زاروا أبي ووجدوا شين معه لقد
كرهوا أن تكون لهم به صلة ومن ثم بدأ رأيهم في أبي يتبدل .
وهذا الذي حرك شين في النهاية . أنه لم يبال رأيهم فيه ،
فانه منذ لقي كريس في الحانة ، بدا كأنه قد كسب لنفسه نوعا
من السكينة . أجل لقد ظل يقظا متربصا كذئ قبل ، ولكن ظهرت
عليه رصانة حلت محل التوتر السابق . وأحسبه لم يكثر
لما يعتقده أي شخص فيهِ ، ما عدانا نحن ! لقد كان يدرك أنه
معنا ، واحد منا لا يتغير !

ولكنه كان يهمله رأى الناس فى أبى وكان واقفا على السقيفة
ليلة كان ارنى رايت ، وهنرى شيبستيد ، يناقشان أبى . وكان
ارنى رايت يقول :

— انى لا أقدر أن أهضم أكثر مما هضمت ! انك تعرف المتاعب
التي عانيتها من أولئك الرعاة الملاحين الذين كانوا يقطعون سياج
حظيرتى ... واليوم جاء اثنان منهم ليساعدانى فى اصلاحه .
يساعدانى ! قاتلهما الله ! لقد سكتا حتى أتمنا اصلاحه ، ثم قالا
لى ان فلتشر لا يحب أن يهرب أى خنزير من خنازيرى فيختلط
بماشيته . خنازيرى ! لا يوجد أى خنزير فى هذا الوادى بأجمعه ،
وهم يعرفون ذلك . انى لم أعد أطيق سماع هذه الكلمة !

وزاد أبى الموقف سوءا بضحكه لقد كانت ضحكة متجهمة
ولكنها ضحكة ! ثم قال : — يبدو انها من أفكار مورجان . . . انه
ذكى ... صحيح انه حثير ، ولكن

ولم يدعه هنرى شيبستيد يتم كلامه وقال له : ليس هذا
مما يضحك يا جو ... بالنسبة لك أنت على الخصوص . . . اننى
يارجل قد بدأت أرتاب فى حسن تقديرى للأمور ! ان أحدا منا
لم يعد قادرا على أن يرفع رأسه فى هذه النواحي ! لقد كنت قبل
برهة فى محل جرافتون ، وكان كريس يصيح ساخرا من رجلك
شين ، ويقول انه بلغ به الخوف انه لم يأت الى البلدة ، أخيرا طلب
الصودا !

وكان كلاهما يهاجمان أبى الآن . وكان جالسا مستريحا
دون أن يقول شيئا ، ولكن سحابة قاتمة كانت تظلل وجهه .

وقال له رايت : انك لا تستطيع أن تتنصل من هذا الامر يا جو !
ان شين هو المسئول ! ويمكنك أن تظل طول الليل تفسر الموقف ،
ولكن ذلك لا يغير الحقائق . . . لقد تحدها كريس للقتال فهرب ،
وتركنا نغير بتلك الخنازير المزعومة الكريهة الرائحة !

وزمجر هنرى شيبستيد قائلا : انك تعلم كما أعلم ماذا يفعل
فلتشر ... انه يتحرش بنا ، ولن يسكت حتى يفيض الغيظ

بأحدنا ، فيأتى عملا طائشا ، وعندئذ يتدخل لانتهاء الامر على
هواه !

وقال ارني رايت : - عملا طائشا أو غير طائش ... لقد نفذ
منى الصبر ! وفي المرة القادمة اذا جاء واحد من ...
فقاطعه أبى بتلويح يده وقال .. استمعا ! ماهذا ؟

وكان الصوت صوت جواد يرمح ، يقطع حارتنا الى الطريق .
وقفز أبى الى الباب ونظر الى الخارج .

وجاء الآخرون فى أثره ، ووقفوا وراءه . وقالوا فى صوت
واحد : شين ؟

فأوما أبى برأسه ، وكان يتحتم كلمات لم أسمعها . واذ
كنت أرقب ما يدور ، من باب غرفتى الصغيرة ، رأيت عينيه
تلمعان وترقصان .. وكان يكيل السباب لشين ويلعنه ،
برفق ... ثم عاد الى كرسيه ، وضحك من زائريه ، وقال : هذا
شين !

ثم قال لهما : كل ما نستطيعه الآن هو أن ننتظر !

وكانت هذه الكلمات تعنى أكثر من معناها الظاهرى .

ومكث الثلاثة ينتظرون معا . وتركت أمى ما كانت تحيكه فى
غرفة النوم حيث كانت تستمع كعادتها ، وجاءت الى المطبخ ،
وأعدت وعاء قهوة ، وجعل الثلاثة يرتششون فونها ساخنة وهم
منتظرون ...

ولم ينقض من الزمن أكثر من عشرين دقيقة ، واذا بنا نسمع
صوت أقدام الجواد من جديد ، وقد جاء مسرعا الى حارتنا دون
أن يبطئ من سرعته . وسمعنا وقع خطى سريعة فى السقيفة ،
ثم بدا شين واقفا بالباب ، وكان جامد الوجه يلهث ، وقد أصبح
فمه خطا رفيعا فى وجهه الشاحب ، وكانت عيناه غائرتين تحيط
بهما عتمة .. ونظر الى شيبستيدورايت ، وقال دون أن يخفى
الاشمئزاز فى صوته :

- لقد ماتت خنازيركم ودفنت !

ولما أدار نظره الى أبى عادت الرقة الى قسيمات وجهه • ولكن صوته كان لايزال ينم عن مرارة اذ قال : لقد قهر شخص آخر ! ولن يستطيع كريس أن يضايق أحدا فترة من الزمن !

ثم استدار واختفى ، وسمعناه يقود جواده ناحية المخزن • وفى خلال السكون الذى تلا ذلك ، سمعنا وقع حوافر جواد على بعد • ثم زاد صوتها ارتفاعا ، وجاء هذا الجواد الثانى الى حارتنا ، ووقف بهراكه • وقفز « اد هويلز » من فوق ظهره الى السقيفة وجاء مسرعا يقول : أين شين ؟

فقال له أبى : فى المخزن ...

- بل أنباءك بما حدث ؟

فأجاب أبى : لم يقل لنا شيئا كثيرا •• وانما ذكر شيئا من دفن الخنازير •

فجلس « اد هويلز » على كرسى • وبدأ كان به دوارا • وصار فى البداية يتكلم فى بطة كأنما يريد أن يعي سامعوه مايقول • وقال : لم أى فى حياتى شيئا كهذا !

وقص علينا ماحدث !

وكان قد قصد الى محل جرافتون لبيئاع بعض السلع ، ولم يحب أن يدخل الى الحانة اذ كان بها وقتئذ « كريس » ، و « رد مارلن » ، وهو راعى بقر آخر من رجال فلتشر ، وكانا يلعبان البوكر مع آخرين واذا بالحانة يسودها السكون فجأة • فذهب ليختلس النظر الى مايدور هناك ، فرأى شين قاصدا الى البار فى برود واسترخاء كما لو كانت القاعة خالية الا منه •• ولم ينطق كريس ولا « رد مارتن » ببنت شفة ، مع أن الفرصة قد واتتهما لكى يطلقا ملحوظاتهما الساخرة السخيفة • وكانت نظرة واحدة الى شين فى تلك اللحظة ، تكفى لمعرفة السبب فى سكوتهما •• لقد كان باردا •• استرخيا حقا ، ولكن كانت حركاته تدل على ثقة

بالغة بالنفس، فكان الناظر اليه يوقن دون وعى منه ، بأن السكون هو خير سياسة فى تلك اللحظة ..

وصاح بويل آتكنى : هات زجاجتين من شراب بالصودا !
ثم استند بظهره الى البار ، وصار ينظر الى لعبة البوكر الدائرة بشئ من الاهتمام الودى ، فى حين جاء « ويل » بزجاجتى الشراب من المتجر ، ولم يحرك أى شخص فى القاعة ساكنا ، بل كانوا جميعا يرقبونه ، ويتساءلون عما ينتويه . ثم أخذ الزجاجتين ، ومضى بهما الى المائدة ، ووضعهما عليها ، ومد يده بواحدة منها فوضعها أمام كريس ، وقال له :

— حين كنت هنا آخر مرة ، قدمت لى شرابا . والآن جاء دورى لأقدم لك مثله .

وكانما تناقلت الكلمات فى ذلك السكون الشامل . وقال ان هويلز ان شين قد عنى مدلول كلماته هذه .. لقد أراد أن يقدم مشروبا الى كريس .. وأراد أن يقبل كريس منه تلك الزجاجاة ، وأن يضحك معه ويشاربه ...

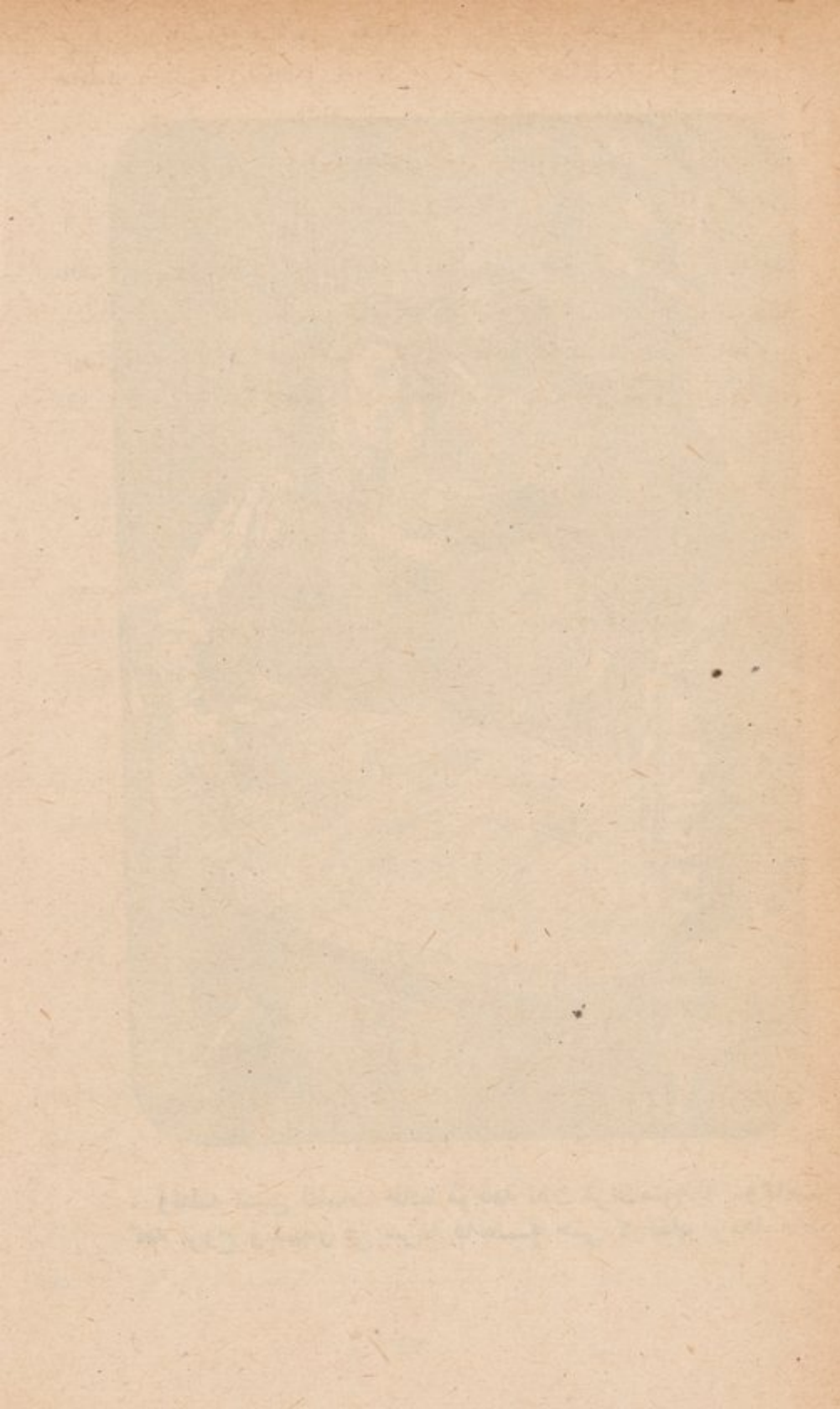
ولو كانت ثمة حشرة لسمعت ديببها ، اذ وضع كريس الورق الذى بيده اليمنى على المائدة ، ثم مد تلك اليد الى الزجاجاة ، والتقطها سريعا ثم قذف بها شين من فوق المائدة .

غير أن شين أتى بحركة سريعة ، كما قال لنا اد هويلز ، لدرجة أن الزجاجاة كانت لاتزال فى الهواء حين أفلت منها وانقض الى الامام وأمسك كريس من مقدمة قميصه ورفعته دفعة واحدة من مقعده الى ما فوق المائدة . واذ جاهد كريس كى يقف على قدميه ، ترك شين قميصه ، ولطمه لطمات حادة موجعة ثلاث مرات متوالية ، وكانت كفه تروح وتغدو فى سرعة فائقة حتى لاتكاد تراها ، وكان للطمات قرعة وكأنها طلقات الرصاص !

ثم تراجع شين الى الراء ، بينما وقف كريس يترنح قليلا ويهز رأسه لكى يفيق ، وتملكه غضب شديد ، فهجم على شين



« ولطمه شين لطمت حادة موجعة ثلاث مرات متوالية ، وكانت
كفه تروح وتغلو في سرعة فائقة حتى لا تكاد تراها . »



يريد أن يضربه بقبضتي يديه ، فتركه شين يقترب منه وسرعان ما طوى ذراعيه الى الداخل ، وعالجه بضربة موجعة في أسفل بطنه . واذ شهق كريس وطأطأ رأسه ، رفع شين يده اليمنى وبسطها وضربه بمؤخرتها على فمه بشكل جعل رأسه يميل الى الوراء ، ثم ضربه ضربة أخرى على أنفه وعينييه . وكانت هذه الضربة من

القوة بحيث جعلت كريس يفقد توازنه ، فتعثر وقد سحقته شفتاه وسال الدم عليهما من أنفه المجروح . وأحمرت عيناه وصار يرى بهما بصعوبة . وكان وجهه ، كما قال لنا اد هويلز ، يبدو كأن حصانا قد وطئه بأحدى أقدامه ! ولكنه مع هذا هجم على شين من جديد وهو يتمايل بوحشية ظاهرة . .

وعندئذ خفض شين رأسه وأمسك بمعصميه ، ولوى ذراعه ليحول دون انثنائها ووضع كفه تحت مرفق ذراعه ، وجذب معصمه بشدة ، فمال كريس الى الامام ، ولا يزال شين ممسكا بذراعه وقد جذبها الى جنبه ، وترك ثقله فوقها حتى كنت تسمع صوت عظامها تتكسر اذ سقط كريس على الارض .

وصار كريس يئن أنينا طويلا ثم سكت ، حتى لم يعد يسمع صوت في القاعة . ولم يلق شين أية نظرة على جسمه الممدد على الارض ، بل وقف جامدا ، رهيبا ، في سكون ، وقد توتر كل عضل في جسمه . ولكنه ظل واقفا في مكانه لا يتحرك ، وانما كانت عيناه تدوران ، متفرستين في وجوه الجالسين ، وقد استقر نظره على « رد مارلن » ، وكان هذا قد غاص في مقعده . .

لقد جلس رد مارلن هادئا ساكنا ، كأنه يخشى مجرد التنفس ! وظهرت نقط صغيرة من العرق على جبينه . لقد كان خائفا ، وربما كان ذلك لأول مرة في حياته . وأدرك الآخرون ذلك ، وأدرك هو أنهم عرفوا منه هذا ولكنه لم يكثر . . ولم يلمه أحد منهم قط ! واذ كانوا يرقبون ، انطفأت النار المشتعلة في نفس شين رويدا ، وبدا كأنه قد عاد منطويا على نفسه ، وكأنه قد نسي وجودهم جميعا .

ثم التفت الى كريس وهو راقد على الارض دون وعى ، فتملكه
شئ من الحزن ، كما قال لنا اد هولمز . وانحنى عليه وأمسك
به ، ثم رفعه بين ذراعيه ، وحمله الى احدى الموائد ، ووضع عليه
برفق ، وقد وقعت ساقاه فى استرخاء على طرفها . ثم مضى
الى البار ، وتناول الخرقه التى كان ويل يمسح البار بها ، وعاد
الى المائدة ، ومسح بها الدم من وجه كريس فى حنان ظاهر .
وجس الذراع المكسورة بعناية، وأوما برأسه لخطرته خطرت له
وفى خلال ذلك كله لم ينطق أحد بكلمة . وما كان أحد من
الحاضرين ليتدخل فى شأن هذا الرجل ولو فى مقابل أجر سنة
كاملة ! ... وأخيرا تكلم شين، ورن صوته فى القاعة ، اذ قال
« لرد مارلن » :

— يحسن بك أن تحمله الى البيت وتدعو احدا لربط ذراعه
.. ولتعتن به كل العناية ! ان له مايؤمله لان يصبح رجلا بين
الرجال !

ثم كأنما نسى الجميع ونظر الى كريس ، وقال يحدثه وهو
غائب عن وعيه لا يسمعه : « ان لك عيبا واحدا ، وهو انك لاتزال
صغير السن .. ولكن الزمن سوف يداوى هذا العيب ! »
وقد آلمته هذه الفكرة ، فمضى نحو الباب المتأرجح ، ومنه الى
فضاء الليل .

هذا ما أنبأنا به « اد هولمز » . ثم ختم كلامه قائلا :

— ان الحادث كله لم يستغرق خمس دقائق .. ولم ينقض سوى
ثلاثين ثانية تقريبا منذ أمسك بكريس الى أن ارتمى كريس على
الارض بلا حراك .. انى أعتقد أن شين هذا هو اخطر رجل رايته
فى حياتى ! ويسرنى أنه يشتغل هنا ، عند جو ، وليس عند فلتشر !
فنظر أبى هنرى شيبستد نظرة المنتصر ، وقال له :

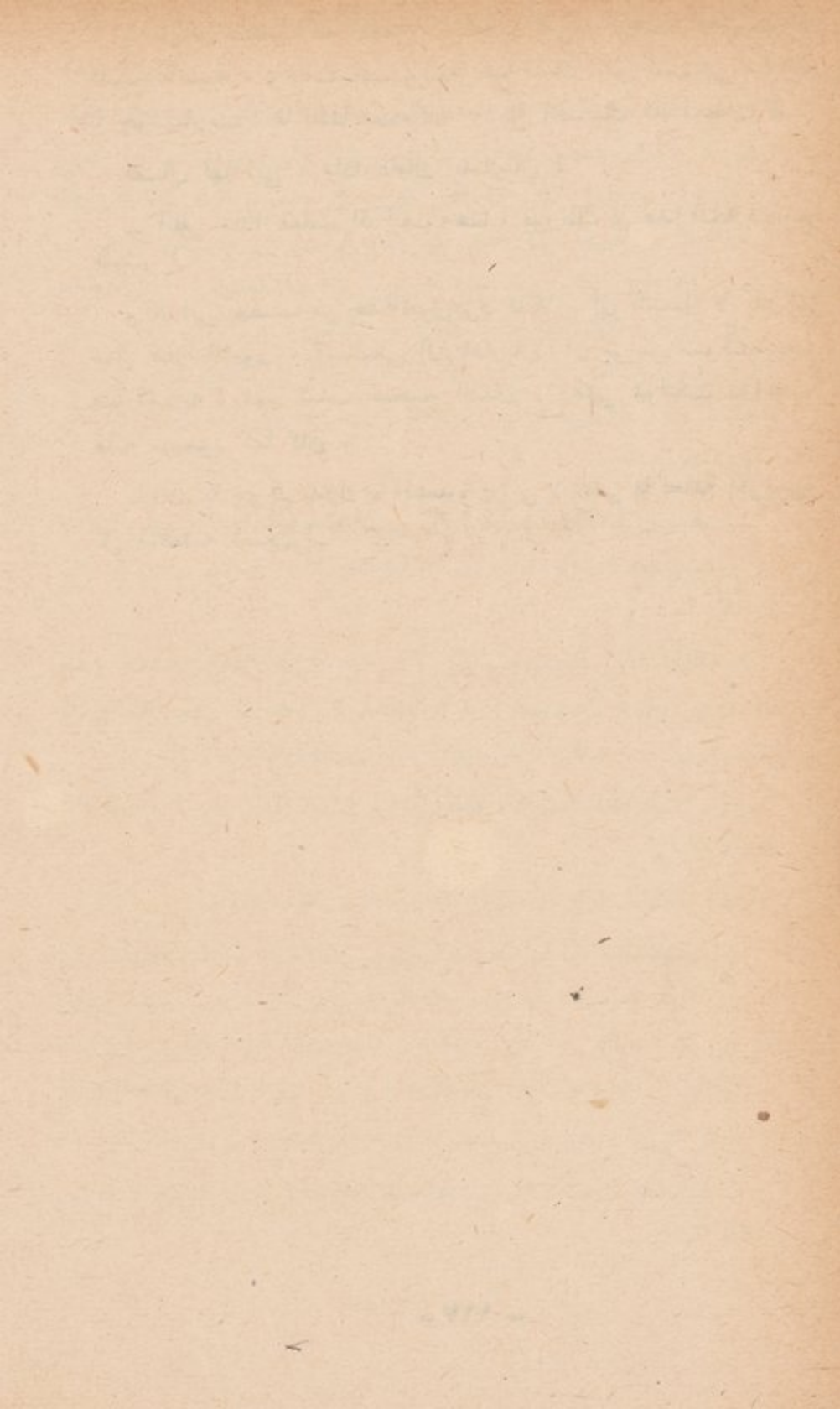
— اذن فقد أخطأت اذ استخدمته ، كما كنت تزعم ؟ أليس
كذلك ؟

وقبل أن ينطق أحد بكلمة ، تكلمت أمي ، وقد دهشت إذ
كانت غاضبة ، وقالت بصوت مرتفع قليلا : لو كنت في مكانك
يا جوستاريت ، لما اطمأنت هكذا . . بل احسبك قد أخطأت !
فقال لها أبي : ماذا دهاك ياماريان ؟

— انظر ماذا فعلت إذ أبقيته هنا ، فورطك في هذا الخلاف مع
فلتشر !

وكاد أبي يغضب من هذا القول فرد قائلا : أن النساء لا يدركن
مثل هذه الأمور . استمعي إلى ياماريان : أن كريس سوف يشفي
مما أصابه ، فهو شاب صحيح البدن ، ومتى عولجت ذراعه ،
فأنه سيعود كما كان .

— انك يا چو لم تدرك ما أقصده . أني لا أعني ما فعلته بكريس ،
بل ما فعلته بشين !



لن تضيع المزرعة !

كانت أمى على حق فى هذه المرة ، فقد تغير شين بالفعل ! لقد بذل جهده كيلا تتغير حاله معنا ، وبقي كل شىء كما هو فى الظاهر ، ولكنه فقد الهدوء والصفاء اللذين كانا قد نفذا الى نفسه فى خلال الصيف ، ولم يعد يجلس مطمئنا ويتحدث معنا مليا كنى قبل ، بل كان قلقا ينتابه يأس خفى .

وأحيانا كان هذا الشعور يتمكن منه فيطوف وحده فى أرضنا ، وكان ذلك هو الشىء الوحيد الذى يعيد الى نفسه طمأنينتها . وكنت أرقبه من حيث لا يدري ، وهو يمر بيديه على سياج الحظيرة الذى وثق أخشابها ، ثم يشده هذه الأخشاب ليستوثق من متانتها ، ثم يمضى مارا بمخزن الحاصلات وهو ينظر الى النرفة العليا (الطقيسى) البارزة ، ثم يقصدا الى حيث كانت سيقان القمح قائمة متكدسة ، ثم يغمس يديه فى الأرض ويرفع قليلا من طينها ويدعه يتساقط من بين أصابعه .

وكان يميل على سياج المرعى وينظر نظرة فاحصة الى قطيعنا الصغير ، وكأنه فى نظره أكثر من مجرد عدد من الثيران البلدية ، تطعم وتسمن لبيعها فى السوق ، . . وأحيانا كان يصفر بفمه برقة فيسمعه جواده ويمشى خبيا الى السياج ويرفع أنفه نحوه - وقد سمن هذا الجواد وبانت جودة صنفه ، وصار يمشى بقوة وثقة بالنفس تجعلك تتذكر شين نفسه . وكثيرا ما كان شين يختفى من الدار فى باكورة المساء عقب العشاء .

وكنت بعد أن أغسل الأطباق أسلل مرارا الى الخارج تاركا أمى وحدها بالمطبخ ، فأجده وحده فى مؤخرة المرعى بعيدا ، ومعه جواده . وكان يقف هناك ، وقد وضع إحدى ذراعيه على عنق

الجواد المقوس الناعم ، وهو يمسح بأصابعه حول أذنيه فى رفق ، ثم ينظر الى أرضنا حيث غابت أشعة الشمس الاخيرة وراحت تتأرجح خلف الجبال ، لتجلل هاماتها بوهج عميق ، باسطة على الوادى وشاحا من الغسق الخفى ..

وقد ولى الآن بعض الثقة بالنفس التى كانت به حين جاء اليها ، وبدأ أنه فى حاجة الى تبرير ما فعله حتى أمامى أنا الغلام الذى يسير فى أثره .

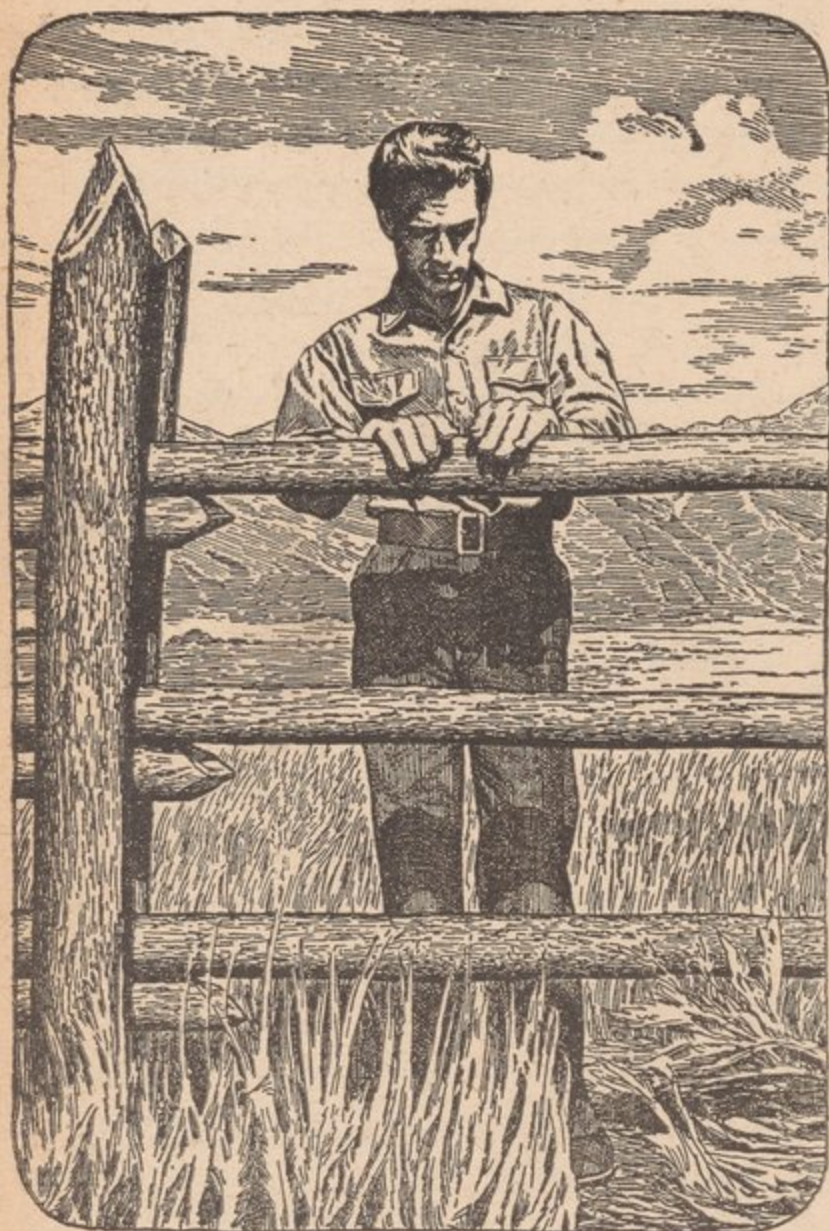
وقلت له : - أما علمتنى كيف أطرح أحدا أرضا كما طرحت كريس ؟

فسكت عن الجواب طويلا حتى حسبته لن يجيب . وأخيرا قال : ان الرجل لا يتعلم مثل هذه الاشياء .. بل انه يعرفها ، وهذا كل ما فى الامر .

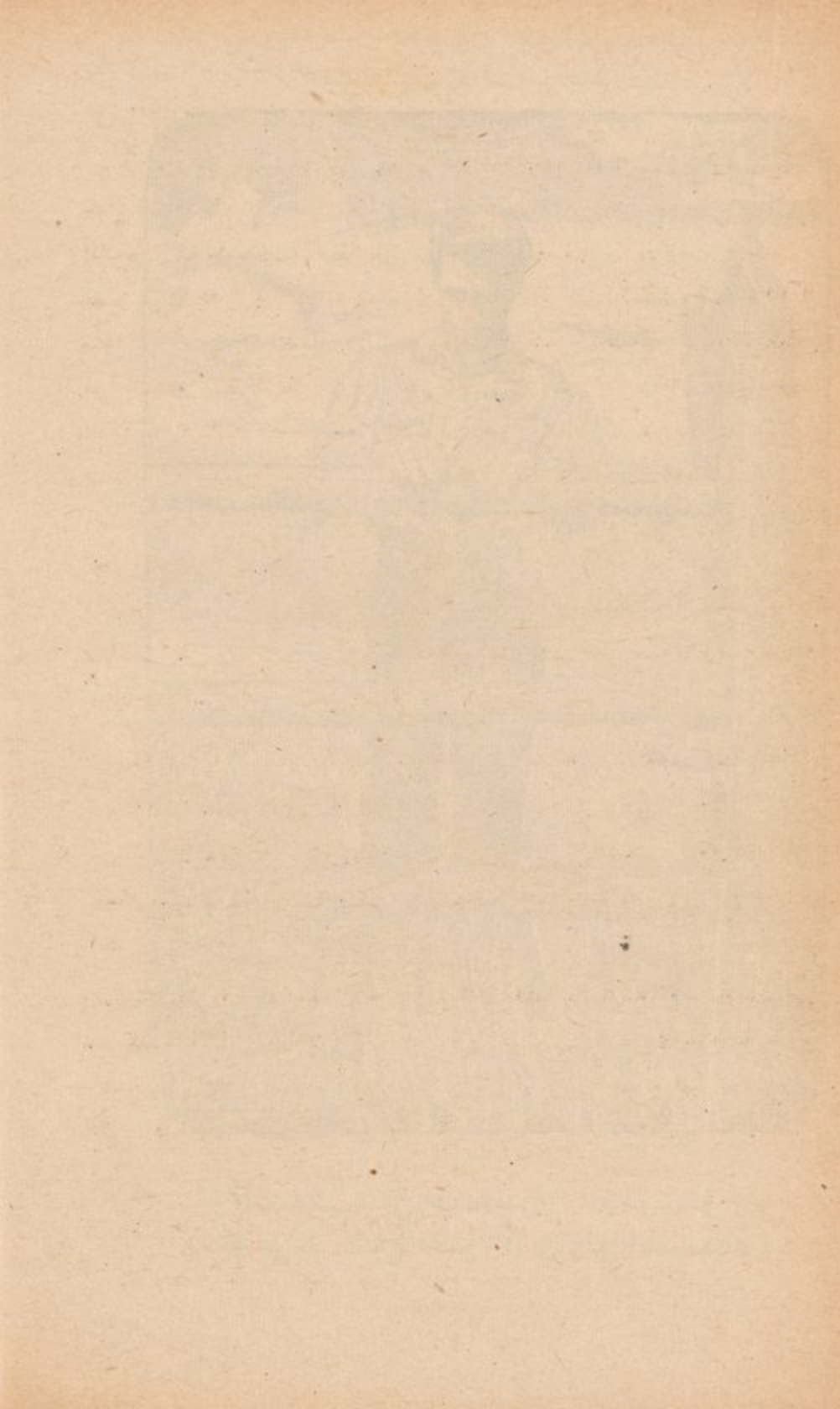
ثم قال لى بلهجة سريعة تكاد تنم عن الاعتذار : لقد حاولت الا يحدث له ذلك . وأنت تدرك ذلك يا بوب . أليس كذلك ؟ لقد تركته يسىء الى وأتحت له الفرصة ! ان الانسان يمكنه أن يبقى على كرامته دون أن يسىء الى الناس . وأنت تدرك ذلك بلا شك يا بوب ! ولكنى لم أدرك شيئا . . فقد كان يحاول ان يفسر لى شيئا هو فوق ادراكى وقتئذ . ولم أجد ما أقوله . فاستطرد قائلا :

- لقد تركت الامر فى يده . ولم يكن مضطرا للعدوان على فى المرة الثانية . . وكان يمكنه ان يعتذر عن عدم قبول الشراب دون شجار ، لو كانت له الرجولة الكافية . ألا ترى ذلك يا بوب ؟ وبقيت لا أدرك ذلك . . ولكنى قلت له انى أدرك ما يقول ، فقد كان يتكلم بلهجة جادة ، وكان مهتما بان أقره على رأيه وانقضى زمان طويل حتى أصبحت قادرا على فهم ما قاله وقتئذ ، اذ أصبحت رجلا ، ولم يعد شين حاضرا لى يفسر لى موقفه !

ولست أدري ، هل لاحظ أبى وأمى ذلك التغير الذى اعتراه وقتئذ ؟ انهما لم يتحدثا عن ذلك ، فى حضورى على الأقل . . ولكن



« وكنت أرقبه من حيث لا يدري ، وهو يمر
بيديه على سياج الحظيرة الذي وثق أخشابته »



بعد ظهر أحد الايام طرق اذنى شىء دلنى على ان أمى كانت مطلعة على ذلك التغير الذى حدث به .

وكنت قد اسرعت فى عودتى من المدرسة الى البيت ، وارتديت ثيابى القديمة ، وخرجت لأرى ماذا يفعله أبى وشين فى حقل القمح ، ثم خطرت لى حيلة جربتها مرارا فنجحت : ذلك أن أمى كانت تصر على تحريم الأكل بين وجبات الطعام ، وكان هذا وهما خاطئا منها ، وكنت قد آليت على نفسى أن آكل من الكعك الذى تحفظه فى علبة صفيح على الرف الذى بجوار الفرن . وكانت فى تلك الساعة جالسة بالسقيفة وأمامها مقدار من البطاطس تقشره ، فتسللت الى مؤخرة البيت من خلال نافذة غرفتى الصغيرة ، ومشيت على أطراف أصابعى الى المطبخ . وفيما أضع كرسيًا بعناية تحت الرف ، سمعتها تنادى شين ولا بد انه كان قد جاء الى المخزن لأمر ما ، لانه لم تمض لحظة حتى وافاها بالسقيفة . فنظرت من النافذة ورأيت واقفا على مقربة من أمى ، وقدر فع بصره قليلا ليراها وهى تميل قليلا الى الامام على مقعدها .

وقالت له : لقد كنت أنتظر كى أكلمك حين لا يكون چو هنا ! فقال لها : نعم ياماريان !

وقد ناداها باسمها الاول كما يناديها أبى ، بدون كلفة ، ولكن باحترام ، وكان دائما ينظر اليها بحنان يخصصها به دون أى أحد آخر .

واستطردت أمى قائلة : لقد كنت قلقا بشأن ما قد يحدث فى مشكلة فلتشر ، أليس كذلك ؟ وحسبت ان الامر لا يعدو عدم دفعك الى الفرار من هنا خوفا ، ومعاونتنا فى وقت الشدة ! ولم تكن تقدر أن يصل الامر الى ما وصل اليه . والآن أنت قلق بشأن ما يمكن ان تفعله اذا لم يحدث قتال جديد .

— انك امرأة قوية الملاحظة ، ياماريان !

— وقد أخذت تفكر فى انك قد تعود الى الترحال .

- وكيف عرفت ذلك ؟

- لانه هو ما ينبغي لك أن تفعله . . لاجل صالحك . . ولكنني
أطلب اليك أن لا ترحل !

وكانت أمي تتكلم بجذواهتمام ، وقد بدت أجمل مآريتها ،
والضوء ثمة يتخلل شعرها .

واستطردت تقول : لا تذهب يا شين . . ان « چو » في
حاجة اليك . . الآن أكثر من أي وقت سابق ! وأكثر مما يمكن
أن يصرح به !

فقال وشفتاه لا تكادان تنفرجان ، ودون أن استوثق مما
قال : وأنت ؟

فترددت أمي هنيهة . ثم رفعت رأسها وقالت : أجل . .
من الانصاف ان أقول . . وأنا أيضا في حاجة اليك !
فقال برقة ، تكاد الكلمات تتعثر على شفثيه : هكذا !

ونظر اليها بجد ثم قال : أتدريين ماذا تطلبينه مني يا ماريان ؟
- اني أعرف . وأعرف انك أنت الرجل الذي هو أهل لما
أطلبه . قد يكون أيسر لي ، من بعض الوجوه ، أن ترحل من هذا
الوادي ولا تعود أبدا . . ولكننا لا يمكننا أن نخذل جو . .
اني أعتمد عليك لكيلا تدعني أخذه أبدا لأن عليك أن
تمكث هنا يا شين ، مهما شق علينا ذلك ! ان چو لا يمكنه أن
يحتفظ بهذا المكان بدونك . . انه لا يقدر أن يكافح فلتشر
وحده !

وكان شين ساكتا ، وبدا لي أنه كان مضطربا ، حائرا .
وكانت أمي تكلمه كلاما مباشرا ، ببطء وكأنها تتخير الكلمات ،
وقد بدأ صوتها يرتعش .

واستطردت قائلة : لو فقد جو هذه الارض لقضى عليه . وهو
أكبر سنا من أن يشرع من جديد في جهة أخرى . أوه ! انه قد
يواصل الجهد ، وقد ينجح . . . أليس هو « چو ستاريت » ؟ !

انه رجل بمعنى الكلمة ، ولا يتردد عن عمل ما ينبغي عمله . ولكنه
وعدنى بهذا المكان حين عقد قرانا . وكان مشغول الفكر به
طول خمس سنوات . وقد جعل يؤدي وحده عمل رجلين ليحصل
على المال الذى تشتري به ما سنحتاج اليه . ولما كبر بوب حتى استطاع
المشى ومساعدتى قليلا ، جاء چو وحده الى هنا وسجل وضع يده
على هذه الارض ، وشيد هذا البيت بيديه ، ولما جاء بنا الى
هنا ، وجدناه مشوى لنا . ولن يحل محله بيت آخر فى تقديرنا ،
فتنهذ شين من أعماق صدره ثم ابتسم لها . ومع هذا شعرت
بالآلم له . . .

ثم قال : يجدر بجو أن يكون فخورا بزوجة مثلك ! لا تقلقى
بعد اليوم يا ماريان ! انك لن تفقدى هذا المكان !

فاستراحت أمى فى مقعدها ، وأشرق وجهها بالسرور كما رأيت
من النافذة . ثم غلبت عليها طبيعة المرأة فجعلت تعارض
نفسها بنفسها وقالت : ولكن فلتشر رجل وضع مختل . أو اثنى
أنت من أن الامر سينتهى الى خير ؟

وكان شين قد مشى صوب المخزن . فوقف فى طريقه واستدار
لينظر اليها وقال لها : لقد قلت انك لن تفقدى هذا المكان !
لقد كان يعرف انه على صواب فى قوله هذا ، من جراء اللهجة
التي قاله بها ، ولا نه قاله !

تیه لہ مکرمہ

نعم وادينا بفترة أخرى من الهدوء والطمأنينة . ومنذ تلك الليلة التي ذهب فيها شين الى البلدة وحدث بينه وكريس ما حدث ، أقلع رعاة البقر من اجراء فلتشر عن استخدام الطريق التي تمر ببيوتنا ، ومزارعنا ، ولم يعودوا يضايقوننا بأشكال ، وصرنا لا نرى أحدا منهم راكبا وراء النهر الا بين الفينة والفينة . وكانت لهم ذريعة يتذرعون بها في تركهم ازعاجنا : وهى انشغالهم باصلاح مباني مزرعة البقر ، واقامة سياج حول حظيرة واسعة جديدة ، استعدادا للماشية الجديدة التي اعتزم فلتشر احضارها فى الربيع .

ومع ذلك لحظت أن أبى قد أصبح مثل شين ، يقظا متربصا . وكانا كلاهما يعملان معا دائما ، ولم يعودا يتفرقان ليؤدى كل منهما عملا على انفراد فى جزء من اجزاء المزرعة . بل صارا يشتغلان سويا ، ويذهبان على جواديهما معا الى البلدة حين يتطلب الامر شراء شئ منها . وصار أبى يحمل مسدسه معه دائما ، حتى فى الحقول . وقدرت الى حزامه بعد تناول طعام الافطار ، غداة يوم مشاجرة شين مع كريس ، ورأيتة يرمق شين بنظرة تساؤل وهو يغلق محبس حزامه . ولكن شين عز رأسه ، فأومأ أبى برأسه ، قابلا ما ارتآه صاحبه ، وخرجا سويا دون أن يتبادلا كلمة .

تلك كانت أياما جميلة ، صافية مثيرة ، وكانت برودة الجو تكفى لان يشعر الانسان ، بقشعريرة ، ولكنها لم تصل بعد الى الزمهرير القارس الذى أوشك أن ينحدر من الجبال . وكان يبدو محالا ان فى موسم حصاد كهذا ، ينعش الروح ليساير رخاء الجسد ، يمكن العنف أن يفاجئنا ويدعمنا !

وفى مساء السبت كنا جميعاً نجلس فى عربة الشغل الصغيرة ، وكان أبى وأمى يجلسان على مقعد القيادة ، وأنا وشين فى المؤخرة تتأرجح أقدامنا ، ونذهب على هذا الشكل الى البلدة . لقد كان ذلك خروجاً على نظامنا الرتيب ، نتطلع اليه طوال أيام الاسبوع .

وكان بمتجر جرافتون حركة دائبة ، والناس انذين نعرفهم راثحون غادون . وكانت أمى تتابع مؤونة الاسبوع سلفاً ، وتقضى فى ذلك وقتاً طويلاً ، وتحدث مع النساء اللاتى تصادفهن . وكانت هى ونساء المزارعين الاخريات ، بارعات فى تبادل وصفات الطهو ، وكان ذلك هو موضوع حديثهن المؤلف . أما أبى فكان يسلم المستر جرافتون بياناً بما يريد شراءه ثم يذهب توا الى البريد . وكان يتلقى دائماً نشرات (كالتوجات) عن أجهزة المزارع ورسائل مطبوعة من واشنطن . وكان يتصفحها ثم يقرأ ما قدورد اليه من خطابات ، ثم يجلس فوق برميل ويقرأ الجريدة التى اعتاد قراءتها . . . وسواء أراد أم لم يرد ، لا يلبث حتى يدخل فى مناقشة مع أى شخص حاضر ، حول أحسن المحاصيل الملائمة للمنطقة ، وعندئذ يقرأ الجريدة شين لا أبى ، حق قراءتها . . .

وقد اعتدت أنا أن أستكشف المتجر ، وأشبع نهى من البسكويت الخالى من السكر (المنين) من برميل مفتوح عند لوحة الحساب (الحزينة) ، وألعب (المساقة) مع قطعة كبيرة عجوز للمستر جرافتون ، كانت بارعة فى صيد الجرذان . . . وكثيراً ما كنت أقلب الصناديق لاطارد فيراناً سميناً ذات فراء ، لكى تنقض عنها . وإذا كانت أمى صافية المزاج ، فانه تشتترى لى كيساً من الحلوى وتضعه فى جيبى . . .

وفى هذه المرة كان هناك داع لأن نمكث مدة أطول مما اعتدناه ، وقد كرهت أنا ذلك الداعى . . . وكانت معلمتنا ، جين جرافتون ، قد أعطتني رسالة صغيرة منها الى أمى ، تطلب فيها اليها أن

تلقاها اذا جاءت الى البلدة ٠٠٠ وكان ذلك بشأني ! وأقول بداءة
انى لم أكن قط تلميذا مجتهدا فى المدرسة ٠٠٠ وزاد من
« بلادتي » فى التلمذة اشتغالى وقلقى بما يجرى فى المزرعة الكبيرة
وما يمكن أن يفعله فلتشر وقومه بنا ٠ ولعل المس جرافتون قد
صبرت على حين كانت الظروف مواتية ٠٠٠ ولكن الذى أزعجها
حقا ودفعها الى الكتابة لامي ، هو الجو ٠٠ فانه لا يتوقع أحد من
غلام به أى نشاط ، أن يظل محبوسا فى قاعة الدرس فى جو
كذلك الجو ! وكنت فى ذلك الأسبوع قد حضرت (أولى
جونسون) على الهرب معى من المدرسة بعد ساعة الغداء ، لنرى
ان كان السمك لا يزال يغريه « الطعم » فى بركتنا المحبوبة
عند منحدر البلدة ٠٠ ؟

وانتهت أمى من شراء آخر سلعة فى بيان السلع الذى أعدته ،
ونظرت الى ثم تنهدت ونصبت قامتها ٠٠ وكنت أعرف انها
ذاهبة الى غرف السكنى التى وراء المتجر لكى تتحدث مع المس
جرافتون ٠ فتضاءلت وتظاهرت بانى لا أراها ٠ ولم يكن بالمثل
وقتنذ سوى قليل من الناس ، وان تكن الحانة فى القاعة
المجاورة زاخرة بهم ٠

وذهبت الى حيث كان أبى يتصفح نشرة (كتالوج) مصورة
وربنت على كتفه قائلة :

- تعال معى يا جو ٠ ينبغي لك أن تسمع معى ٠٠٠ حقا
أن ذلك الولد قد كبر على فلا أستطيع معالجة أمره وحدى ٠
فألقي أبى نظرة سريعة على المتجر ، وسكت مصغيا الى
الاصوات المنبعثة من القاعة المجاورة ٠ وكنا لم نر أحدا من
رجال فلتشر طول المساء ، ويبدو أن ذلك قد سره ٠ ونظر الى شين
وهو يطوى الجريدة ، وقال له :

- لن يتغلب الامر وقتا طويلا ٠ وسنعود بعد لحظة ٠
واذ ولجا انباب الذى فى مؤخرة المتجر ، مضى شين الى مدخل

الحانة ، وألقى نظرة أبصر بها كل ما فى الحانة ، بطريقته
السهلة اليقظة ، ثم دلف الى الداخل ، وتبعته ، ولكن كان المفروض
ألا أدخل الحانة . . . ولذا وقفت بسابها . .

وكان شين عند البار ، يمازح ويل آتكى بوجه جاد الملامح ،
قائلا له أنه لا يظن أنه سيتناول شرابا بالصودا هذه الليلة . . .
وكان فى القاعة جماعة مشئتون ، كان أكثرهم من حوالى البلدة ،
وكنا نعرفهم بوجوههم على الأقل . وتحرك القريبون من شين مبتعدين
عنه قليلا وهم ينظرون اليه فى فضول . ولكنه لم يبد عليه أنه
لحظهم .

وتناول مشروبه وتجرعه ، مسندا إحدى كوعيه على البار ،
دون أن يميل الى الأمام نحو الحاضرين ، ودون أن يتجنبهم
كذلك ، ولكنه كان على أعبء لا بداء جانب الود اذا رام أحد
مودته ، وابداء جانب العداوة اذا أراد أحد لنفسه ذلك . . .

وكنت أجول ببصرى فى القاعة محاولا أن أربط بين الاسماء
وبين الوجوه ، واذا بى أرى احدا ابواب المتأرجحة يفتح ،
ورد مارلن ، ينظر من خلاله . وقد رأى شين ذلك أيضا .
ولكنه لم يستطع أن يرى أن بالسقيفة أناسا آخرين . لانهم
كانوا قريبين من جدار البناء ، بالجانب الذى به المتجر . وكنت
أشعر بوجودهم من خلال النافذة القريبة منى ، كاشكال جسيمة
فى الظلام . . . ولقد تملكنى الرعب حتى صرت لا أكاد أقوى على
الحركة .

ولكن كان لا بد لى أن أتحرك . . . وكان لزاما على أن أدخل ،
على خلاف القاعدة التى وضعتها لى أمى . وقد دلفت الى الحانة ،
واقتربت من شين وقلت له

- شين . . هناك جماعة منهم فى الخارج أمام هذه الدار !

ولكن فات الوقت . . . فاز رد مارلن كان قد دخل ، وجاء
الآخرون مسرعين ، وقد وءمواعلى شكل مروحة دون مدخل
الحانة . وكان مورجان بينهم ، وقد بدا الشر والعزم على قسمات



« واقتربت من شين وقلت له همسا :
- شين .. هناك جماعة منهم في الخارج أمام هذه الدار ! »

وجهه المسطح ، وكاد يسد الباب بكتفيه العريضين وهو داخل *
وجاء خلفه راعي بقر يسمونه بالمجدد ، - كبرى - من جراء
شعره الأشعث القبيح * وكان غبيا ، بطيء الحركة ، ولكنه كان
بدينا قويا ، وكان قد اشتغل مع كريس عدة سنين * وتبعهما
اثنان آخران ، وكانا جديدين على ، وكانت نظراتهما تنم عن خبرة
رعاة بقر قدامى .

وكان لا يزال هناك المكتب الخلفى ، وله باب يفتح على شرفة
المدخل ثم يؤدى الى عطفة خلفية * وكانت ركبتاى ترتعشان ، فجذبت
شين وحاولت أن أقول له شيئا ، ولكنه قاطعنى بإشارة حادة ،
وكان صافى الوجه ، لامع العينين ، فرحا بشكل ما ، لا بشكل
الضحك والبهجة ، ولكن لان فترة الانتظار قد انتهت ، وقد آن
الأوان لوقوع ما كان ينتظره ، وهو مستعد له ! ووضع احدى
يديه على رأسى وهزه بلطف بينما كانت أصابعه تداعب شعرى *
وقال لى :

- يا بوبى * يا ولدى العزيز * أتريد منى أن أهرب ؟!
وسرت فى جسمى محبتى لذلك الرجل ، وغاصت حرارة هذه
المحبة الى ساقى فعادت اليهما صلابتهما ، وصرت أشعر بالفخر
لوجودى معه ، حتى لم أتمالك نفسى فانساب الدمع من عينى * وكنت
أدرك أنه على حق ، فصدعت بما أمرنى به اذ قال لى :

- أخرج من هنا يا بوب * ان ما سيقع لا تسرك رؤيته *
ولكنى لم أذهب الى أبعد من موقفى الاول بداخل المتجر ، حيث
أستطيع أن أرى معظم القاعة الكبيرة ، وكأنما ربطت فى تلك اللحظة
حتى أنى لم أفكر فى أن أجرى الى أبى .

وكان مورجان الآن فى مركز القيادة بين رجاله الذين انتشروا
وراءه * وتقدم الى نصف المسافة من شين ووقف * وكانت القاعة
هادئة الا من صوت وقع الاقدام ، اذ أسرع الرجال الواقفون عند
البار والجالسون الى أقرب الموائد ، أسرعوا الى الحائط الاقصى ، وهرب
بعضهم من الابواب الامامية * ولم يعرهم شين ولا مورجان أى التفات ،

وانما كان كل منهما مهتما بالآخر وحده ، ولم ينظرا جانبا الى المستر جرافتون الذى كان يشم الشر فى محله من بعيد ، وقد جاء الآن من المتجر ، وهو يخطو خطوات ثابتة ، وممر بويل آتكى خلف البار ، وقد ارتسم شعور لاسستسلام على وجهه ، ومد يديه الى ما تحت الحاجز ثم ظهرنا وبهما مسدس ذو قصبية قصيرة ، ثم وضعه على البار امامه ، وقال بصوت جاف ينم عن اشمزاز :

- لن يكون هنا اطلاق مسدسات يا سادة ، وكل تلف سيدفع عنه تعويض !

فرد مورجان بايالة قصيرة من رأسه ، دون أن يحيد ببصره عن شين . ثم زاد اقترابا منه ، ووقف ثانيا على مسافة ذراع منه ، وقد مد رأسه الى الامام ، وكان مقبضا يديه الضخمان منقبضين الى جانبيه .

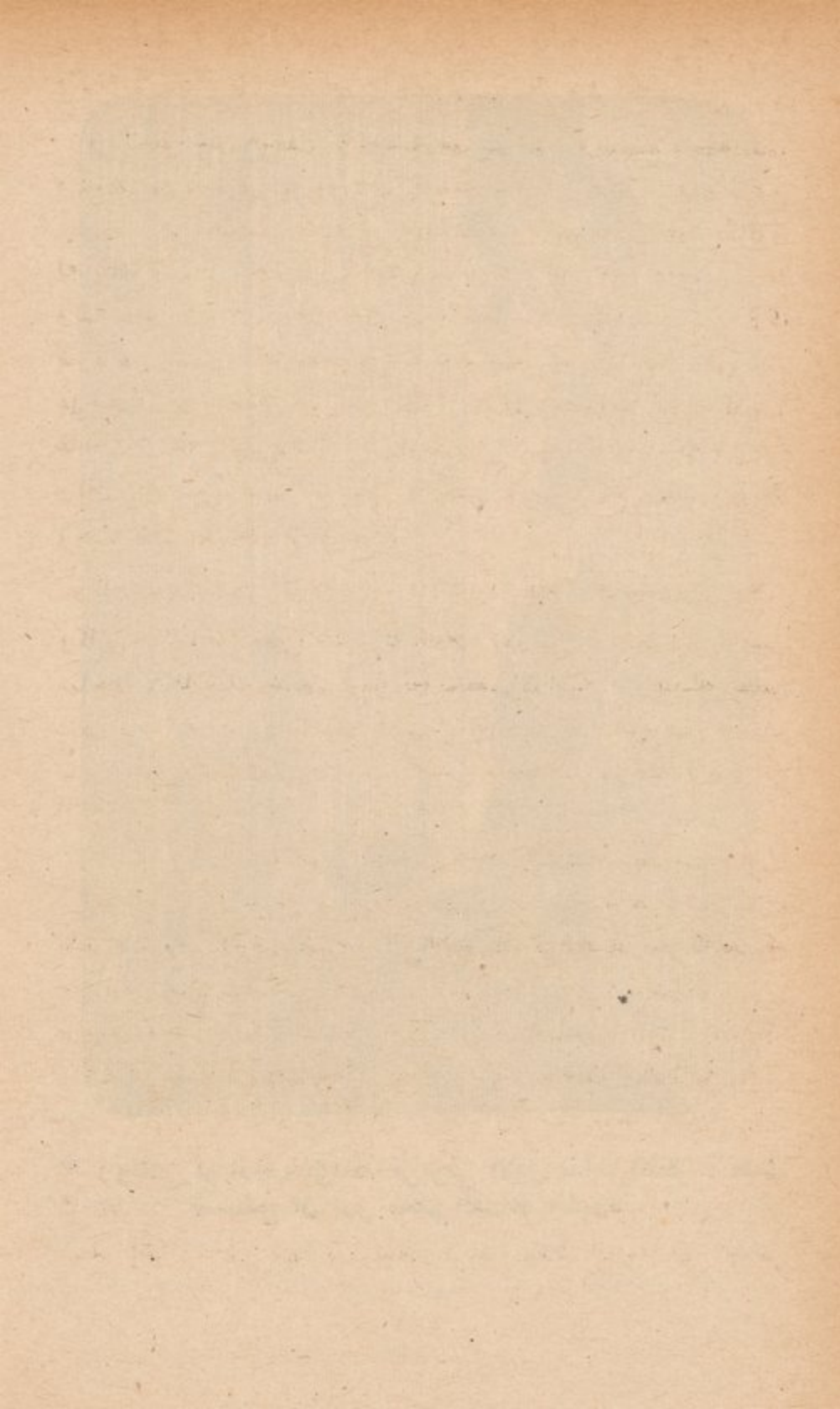
وقال لشنين : لا أحد يضرب فتى من فتيانى ، وينجو بذلك ! اننا سنخرجكم من هذا الوادى مسرعين ، يا شنين ! سنتخذ معكم العنف حيننا ، حتى نطردهم ثم تمكثون بعيدا ولا تعودون ! فقال شين برقة : اذن قد دبرتم ذلك !

وتحرك وهو يقول ذلك ، وتدفق نشاطه فى حركة سريعة حتى لا تكاد تصدق ما يحدث ! ورفع كاسه التى كانت مملوءة الى نصفها ، ورجها ، ثم قذف بمحتواها فى وجه مورجان . ولما مد مورجان يديه نحوه ليضربه ، قبض على معصميه ، وتراجع الى الوراء جاذبا اياه معه ، وانثنى جسمه الى الارض ، ثم ثنى ساقيه وضرب بقدميه مورجان فى بطنه تحت حذائه ، فقذفه فى الهواء ، وسرعان ما سقط بشكل مضحك على الارض ، كتلة واحدة بين المقاعد والمائدة . . .

وعندئذ هجم الاربعة الآخرون هجمة واحدة على شين . ولما جاؤوا اليه ركم على يديه وركبتيه ثم قام وقفز وراء مائدة ورفعها وقذفهم بها ، ففترقوا مسرعين ليتفادوها . . . ثم تحرك حركة خفيفة سريعة حول الطرف ، وانقض على أقرب واحد منهم ، من ناحيته ، وكان أحد الأجراء الحديثين ، وصبر على ضرباته لكى يلتصق به ، ثم



« ولكنى لم اذهب الى أبعد من موقى الاول بداخل المتجر ، حيث
أستطيع أن أرى معظم القاعة الكبيرة » •



رأيت ركبته ترتفع وتضرب الرجل في أسفل بطنه ، فصرخ هذا صرخة مدوية وسقط على الأرض واخذ يجرح جسمه نحو الباب ...

وعاد مورجان فوقف على قدميه وهو يترنح ، ويمسح وجهه بيده ، ويجهد بصره ليرى ما يدور في القاعة حوله . وكان الثلاثة الآخرون يضربون في شين ، محالين أن يحصروه بينهم . وكانوا يكيلون له الضربات ، ويضيقون عليه الحناق ، وكان هو يدافع بسرعة وثقة ، ولعلك لا تصدق أنهم لم يستطيعوا إيذائه ! وكنت ترى ضرباتهم تصيب ، وتسمع قرقرة مفاصل أصابعهم وهي تقع على لحمه ... ولكن لم يكن لها أثر فعال .. وانما بدت كأنها غذاء لنشاطه وحيويته ! وصار يتحرك بينهم كأنه شعلة من نار ! وكان يفلت من بينهم ثم يدور وينقض عليهم ، ومن عجب أن رجلا وحده كان يضغط ثلاثة رجال !

وكان قد اختار الأجير الجديد الثاني ، وصار يهاجمه دون توان ، وكان « كيرلى » بطيء الحركة ظاهر الارتباك ، فصار يزمرجر ساخطا ، فأمسك بشين ليعاركه ويخفض ذراعيه . وعندئذ خفض شين أحد كتفيه ، واذا أطبق كيرلى على ذراعيه أشد من قبل ، رفع شين كتفه فجأة تحت فك غريمه بحركة مفاجئة طرحته أرضا على مسافة ...

والآن أخذوا حذرهم ، فلم يحاول أحد منهم أن يقترب منه . ثم جاء إليه « رد مارلن » من أحد الجوانب ، فاضطره الى الالتفات ناحيته ، وفي الوقت نفسه ، أتى الاجير الثاني الجديد بحركة عجيبة ، فقد قفز قفزة عالية في الهواء وكأنه أرنب برى ، وضرب شين في رأسه ضربة قوية بحذائه .. ورأى شين الضربة قبل أن تصيبه ، ولكنه لم يقدر أن يتفادها ، ولذا أدار رأسه فتلقاها على جنب الرأس ، وهزته هزة شديدة ، ولكنها لم تحدث أثرها مباشرة ، فقد رفع شين يديه ، وأمسك تلك القدم ، فسقط الرجل على الأرض على أسفل ظهره . ولما عاد يضرب بقدمه ، لوى شين ساقه كلها وارتمى عليها بكل ثقله ، وعندئذ سقط الرجل على الأرض

كالأفعى إذا ضربتها ، وأخذ يتأوه بحدة ، وراح يجرد رجله بعيدا ،
وقد فقد كل قدرة على العراك .

غير أن شين لما استدار ليرقى على ساق الرجل ، صار ظهره الى
كيرلى ، وكان هذا الرجل العملاق هاجما عليه ، فأحاطه بذراعيه
بحيث جعلهما لاصقين بجسمه . وقفز رد مارلن ليعاونه ، وحصر
الاثنان شين بينهما .

وتقدم مورجان الى الامام وقد تجلى فى عينيه البغض ، وصاح
قائلا : « أمسكا به ! » .

ولعل شين كان حتى فى هذه اللحظة يستطيع الافلات . وقد
رفع احدى قدميه بحذاء الشغل الثقيل الذى عليه وداس بطرف
كعبه وبكل قوته على قدم كيرلى القريبة منه . واذ تراجع كيرلى
وسحب قدمه الى الوراء ، وفقد ثباته ، جعل شين جسمه فى شكل
قوس قوى ، فكنت ترى اذ ذاك أذرعهم تنزلق وتنفك من حول
جسمه . ورأى مورجان ذلك أيضا ، فتناول زجاجة من فوق البار وضرب
بها شين على رأسه من الخلف ، فترنح شين وكاد يقع لولا أنهم
كانوا ممسكين به . وعندئذ استدار مورجان ووقف أمامه ليرقبه ،
فرجعت الى شين حيويته ورفع رأسه . وعاد مورجان يصيح :
« أمسكوا به ! » ثم ضربه بقبضة يده فى وجهه . وحاول شين أن
يحيد بوجهه عن هذه الضربة ، فأخطأت فكه ، ولكنها مزقت خده
اذ أحدث الحاتم الثقيل الذى بيد مورجان جرحا مستطيلا به .
وتراجع مورجان لكى يضربه ضربة ثانية . ولكنه لم يقدر له أن يحقق
غرضه ! ..

وما كان أى شىء أقوله ، ليشغلنى عن مشاهدة ما يدور
بين هؤلاء الرجال . ولكنى سمعت بجوارى شهقة تنبعث من أحد ،
وكان الصوت عجيبا ولكن مألوفالدى ، فالتفت على الفور ...

لقد كان أبى هناك ، واقفا بمدخل الحانة !

وبدا مديد القامة ، رهيبا فى وقفته تلك ، وكان ينظر الى شين
وراء المائدة المقلوبة والكراسى المبعثرة ، وقد رأى جانب رأسه

الذى علتة زرقة داكنة من الرض ورأى الدم الذى سال على خده . .
ولم أر أبى فى حياتى بذلك الشكل : لقد تخطى مرحلة الغضب ،
وتملكه هياج كان يهز كيانه فوق ما يحتمل !

وما كنت أحسبه يستطيع أن يكون سريع الحركة الى هذا الحد :
لقد انقض عليهم قبل أن يدركوا أنه فى القاعة ! وهجم على مورجان
بعنف لا حد له ، وقذف بهذا الرجل العملاق عبر القاعة . . ومد
احدى يديه العريضتين وأمسك بكيرلى من كتفه ، فكنت ترى
أصابعه وهى توغل فى كفه ! ثم أمسك بحزام كيرلى بيده الأخرى
وحرر شين من قبضته ، وقض قميصه من فوق ظهره ، فكنت ترى
عضلاته ثمة معقدة بارزة وهو يرفع كيرلى فوق رأسه ثم يرميه
بعيدا عنه . وطار كيرلى فى الهواء ، وأعضاؤه تتأرجح بغير انتظام
ثم سقط فوق مائدة بجوار الحائط ، وتحطمت المائدة تحته قطعاً
متناثرة ، وارتطم الرجل والاشباب بالجدار ، وحاول كيرلى أن يقوم
وهو يستند بيديه الى الأرض ، ولكنه سقط الى الورا وخمدت حر كته .

ولا بد أن شين قد تفجر به النشاط فى اللحظة التى أزاح أبى
كيرلى عنه ، فقد سمعت الآن ضجة أخرى : ذلك أن ردمارلن قد تقلص
وجهه وهرع الى البار واستند اليه كيلا يقع ، وسار متعثراً ،
ولكنه استعاد توازنه وجرى نحو المدخل الأمامى ، هارباً لا يلوى
على شيء . ومرق من الابواب المتأرجحة ، دون أن يبسط لكى يدفعها ،
فتحركت الى الأمام وإلى الخلف بصوت كالحفيف ، ثم عدت ببصرى
توا الى شين لأننى سمعته يضحك !

وكان واقفاً ثمة ممدود القامة ، رائعا ، وكان الدم يلتمع على وجهه
كأنه وسام ، وكان يضحك ضحكة رقيقة ناعمة ، لا سخريّة من
رد مارلن ، ولا لائى باعث آخر ، ولكن فرحاً لأنه حى ، ولأنه تحرر
من النظام الرتيب الذى طال مده . . . وجاوب هاتف الجسم
والنفس . . وكانت القوة القليلة الباقية فيه ، على خلاف قوة
أبى الهائلة ، تتحدث عن نفسها فى كل عرق من عروقه .

وكان مورجان فى الركن الخلفى ، وقد بانّت على وجهه سحابة

غم وقلق • وكان أبى قد أفرغ عنفه وسيخطه فى ذلك الجهد الذى
قذف به كبرى ، فنظر حوله ليرقب رد مارلن وهو يهرب ،
والآن هم بالهجوم على مورجان ، ولكن شين جعله يقف فى مكانه ،
اذ صاح به قائلاً :

— انتظر يا جو • ان هذا الرجل غريمى أنا !
وجاء الى جانب أبى ووضع يده على ذراعه ، واستطرد يقول :
— يحسن بك أن تخرجهما من هنا !

وأوما برأسه نحوى • ولحظت مع الدهشة أن أمى كانت على
مقربة منى ، تشاهد ما يحدث • ولعلها قد تبعت أبى ووقفت هناك
طول الوقت • وكانت فاتحة فاهادеше ، ولمعت عيناها وهى تنظر
الى القاعة كلها لا الى شخص أو شىء بعينه •••

وبدا على أبى الكدر • وقال لشين زمجراً :

— ان مورجان أدنى الى حجمى أنا !

ولم يكن خائفاً على شين ، ولكنه أراد أن يجد ذريعة ليعارك
مورجان بنفسه • ولكنه لم يزد على ذلك ، ونظر الى الرجال الذين
يجوار الحائط وصاح بهم :

— هذا دور شين ! واذا حاول أحد أن يتدخل فان شأنه
سيكون معى !

وكانت لهجته تدل على أنه ليس متكدراً منهم ، بل ليس
محذراً لهم فى الواقع ، وانما أراد أن يوضح لهم الموقف فى هذا
العراك • ثم وجاء اليها ونظر الى أمى قائلاً :

— انتظرى فى الخارج عند العربة يا ماريان ! لقد جلب مورجان
هذا على نفسه منذ زمن ••• وليس هذا المنظر مما تشاهده امرأة !
ولكن أمى هزت رأسها دون أن تحيد ببصرها عن شين • ثم
قالت :

— كلا يا جو ••• انه واحد منا • وسأشاهد ما يحدث الى
النهاية •

ووقفنا نحن الثلاثة معا ، وكان ذلك حقا ، لانه كان ثمة شين !
تقدم شين نحو مورجان برشاقة الفأر العجوز في جانوت بقالة ،
وبسرعته . . . وكان قد نسي وجودنا كما نسي الرجال المحطمين على
الارض ، والآخرين الواقفين عند الحائط ، ونسي المستر جرافتون
وويل آتكي القابعين خلف البار . وانما تركز كيانه كله ضد الرجل
العملاق الواقف أمامه .

وكان مورجان أطول منه قامه ، وأعرض منه بمقدار النصف ،
وقد اشتهر في الوادي بعنفه في القتال . ولكنه لم يكن بادي
الارتياح الى هذا العراك . . . واستيأس ! وآثر أن لا ينتظر
حتى يهجم عليه شين . فهجم هو عليه ليقهره بثقله وهو أصغر
منه قدا . . .

وأفلت شين منه . واذ مر مورجان أمامه ، وجه اليه ضربة
قوية في بطنه ثم أتبعها أخرى في جانب فكه ، وكال له الضربات
في سرعة خاطفة ، فصارت لا تتبين لنا الا كحركات متوالية .
ولكن كان جسم مورجان الضخم يهتز اثر كل ضربة منها ، وكان
يتوقف عن الحركة لحظة ثم تدفعه قوة الصدمة الى الامام . وكان
يهجم على شين مرة بعد أخرى ، تتقدمه قبضتاه القويتان ، وكان
شين يتفاداه دائما ثم ينهال عليه باللكمات . . .

ثم توقف مورجان عن العراك وهو يلهث بشدة وقد أدرك
عبث القتال وجهها لوجه . ثم اندفع الى شين وقد فتح ذراعيه
ليطبقهما عليه ثم يطرحه أرضا . ولكن شين كان على أهبة لهذه
الحركة ، وتركه يتقدم نحوه دون أن يتفاداه ، ودون أن يبالي
الذراعين الممدودتين للاحاطة به . ورفع يده اليمنى مبسوطة الكف ،
كما ذكر لنا اد هويلز من قبل ، وضربه بكل قوتها على فمه ، ثم
لطمه بها على خده ، ومال رأس مورجان الى الورا وترنح في وقفته
من جراء ذلك ، وبقوة هجمته التي أخفقت . . .

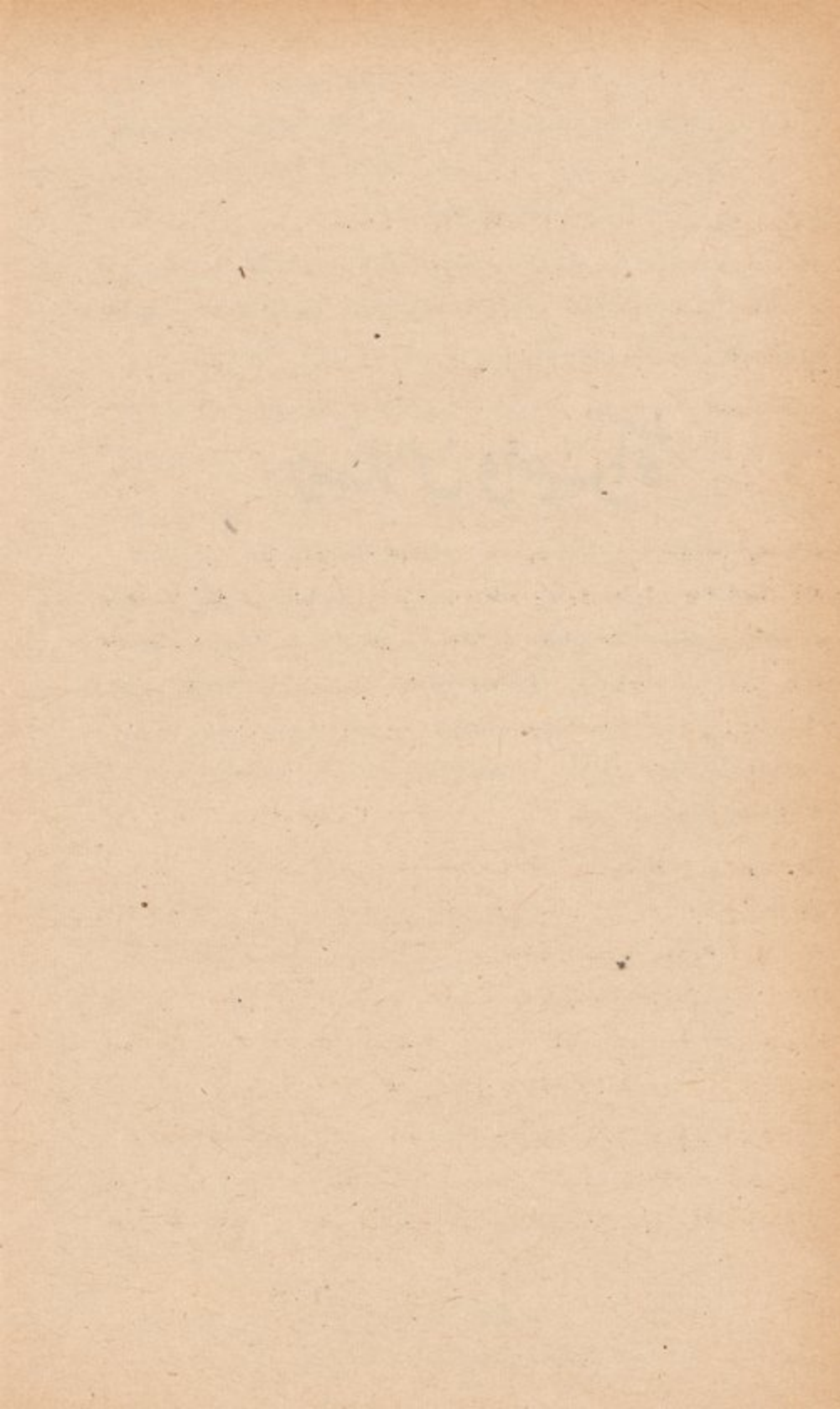
وكان وجه مورجان وارما ، مرقطا بنقط حمراء . ويغمغم
بكلمات لا معنى لها ، ورفع كرسيها ثم أمسك به أمامه ، ومد

ساقيه الى الامام ثم هجم على شين من جديد ، فخطا شين خطوة سريعة الى جنب • وكان مورجان يتوقع ذلك فوقف بغتة ، ورفع كرسيه في شكل قوس ليهوى به على جنبه بكل قوته • وقد تحطم الكرسي ، وترنح شين ، ومن عجب أنه بدا كأنه انزلق وسقط على الارض ، وهو الثابت القدمين عادة ...

وترك مورجان كل حذر فانقض عليه ، وعندئذ ثنى شين ساقيه وضرب مورجان بحذائه الثقيل فدفعه الى الوراء دفعة قوية ارتطم منها بالبار بشكل هز جسمه كله هزة عنيفة •

وقام شين على الفور ، وقفز منقضا على مورجان وكأنه كان فوق زنبرك على الارض ... وضرب مورجان بكفه الايسر على جبهته ضربة أمالت رأسه الى الوراء ، ثم ضربه بقبضة يده اليمنى في عنقه ، فكنت ترى وجه مورجان وقد تقلص من الألم ، وبان الخوف في عينيه • ثم اتخذ شين من قبضته اليمنى هراوة • ونصب جسمه كله خلفها ... وصار يضربه على عنقه ، تحت الاذن وخلفها • وكان الضرب يحدث صووتا كئيبا يجرى بالغثيان ، وسرعان ما ابيضت عينا مورجان وهما تدوران في مخجريهما ، وخذت حركة جسمه كله ، ومال في ببطء الى الامام ، وسقط على الارض !

رَجُلَانِ وَامْرَأَةٌ



لما طرح مورجان أرضاً ، شمل قاعة البار الفسيحة سكوت
قام ، لدرجة أن صوت ويل آتكى وهو يخرج من مخبئه وراء البار
بدا واضحاً عالياً ، ثم وقف ويل فى مكانه مرتبكاً خائفاً .
ولم ينظر شين نحوه ولا صوب أى أحد من الرجال الذين
ينظرون اليه من عند الحائط . وإنما كان يوجه بصره إلينا
وحدنا ، الى والى أبى وأمى ، ويبدو أنه لم يرتج الى وجودنا
هناك .

وكان يتنسم أنفاساً عميقة ، وصدره يمتلئ شهيقاً فيحبسه
برهة طويلة فى ألم ، ثم يزفره ببطء وتنهد . ثم بدا فجأة أنه
عاد هادئاً ساكناً . وظهر لنا الآن مقدار ما أصابه من أذى ،
وما يسيل منه من دم . وكان فى اللحظات السابقة لا يظهر منه
سوى روعة حركاته ، وفيض قوته ونشاطه ، حتى ليخيل
إليك أنه لا يصيبه أذى ولا يمكن تحطيمه . والآن وقد هدأ وانطفأت
النار المشتعلة بنفسه ، كنت توقن أنه تلقى ضرباً موجعاً . . .

وكانت ياقة قميصه معتمة مبتلة . وكان الدم يبللها من
ناحية منها ، من جراء الجرح الذى فى خده . وكان يسيل بغزارة
تحت شعر رأسه المتلبد حيث ضربه مورجان بالزجاجة . ووضع
يده دون وعى على موضع ذلك الجرح فتلوئت بدم لزج ، ونظر
إليها غابساً ثم مسحها بقميصه ، وترنح قليلاً حتى اذا مشى صوبنا
كان يجر قدميه حتى كاد يقع على وجهه !

وتقدم المستر وير ، وهو رجل ودود يدير بريد العربات ،
تقدم من ناحية الحائط ، يقول بعض كلمات العطف بصوت
كقرق الدجاج . . وهم بمعاونته . وعندئذ نصب شين قامته وأشار

اليه بالرفض ، ومضى نحونا مستقيماً الجسم رائعا دون خلجة
في مشيته ، حتى كنت تدرك أن روح الجلد والنشاط فيه ،
قد تسنده وحدها الى أقصى مسافة ، وأبعد زمن ...

ولكن لم يكن به حاجة لذلك ... فقد كان هناك الرجل
الوحيد في وادينا ، بل الوحيد في العالم كما أعتقد ، الذي يقبل
شين منه المعونة ، يقبلها دون أن يلتمسها منه .. وكان هو على
أعيا لاعطائه معونته ... وذلك الرجل هو أبى ! وقد خطا نحوه
ليلقاه ، ومد ذراعه الضخمة تحت كتفيه .

وقال شين بصوت رقيق أشك أن الذين بالقاعة سمعوه :
حسنا يا جو ! وأغمض عينيه واستند الى ذراع أبى وقد استرخى
جسمه ومال رأسه قليلا الى جنب . فأنحنى أبى ووضع ذراعه الاخرى
تحت ركبتى شين ، وحمله هكذا كما كان يحملنى حين كنت أفوت
موعدنومى ، فيثقل رأسى ويحملنى الى فراشى ...

وحمل أبى شين هكذا بين ذراعيه ونظر الى المستر جرافتون
وقال : يكون جميلا منك يا سام أن تقدر التلف الذى حصل للمحل
وتضيفه الى حسابى .

ولما كان المستر جرافتون دقيقا فى الحساب (الفواتير ، وبارعا
فى المساومة ، فقد أدهشنى منه قوله اذ ذاك : كلا . بل سأضيف
ذلك الى حساب فلتشر ... وسأعرف كيف أجعله يدفعه !

وزادنى دهشة حين أردف قائلا على الفور بلهجة الجدد :
اصغ الى ياستارييت : لقد حان الوقت لان تكسب هذه البلدة
لنفسها شيئا من المجد .. وربما حان الوقت أيضا لان نبدى كرم
الجوار نحو المزارعين .. سأفتح اكتتابا لتعويض التلف الذى
حدث . ولقد كنت فى خجل من نفسى منذ بدأ الشجار الليلة ،
اذ وقفت هنا وتركت خمسة رجال ينقضون على الرجل الذى
عندك !

وسر أبى من ذلك ، ولكنه كان يعرف ما يريد فقل له :

هذا جميل منك يا وير . . ولكن هذا الشجار لا يتعلق بك . ولو كنت في مكانك لما باليت أن أبقي بعيدا عنه .

ثم نظر الى شين ، وبدا عليه الفخر ، واستطرد قائلا : الحقيقة انهم تكاثروا عليه الليلة حتى كدوا يفتكون به لولا أن تدخلت في المعركة . . . ان فلتشر لن يدفع شيئا من تعويض التلف . بل سأدفعه أنا !

ورفع رأسه ثم قال : كلا والله ! سندفع التعويض . . . أنا و « شين » !

ومضى الى الابواب المتأرجحة ، ومال جانبا لكي يفتحها بدفعها الى الامام . وأمسكت أُمى بيدي وتبعناهما . وكانت دائما تدرِك متى يحسن بها أن تتكلم ، ومتى يخلق بها أن تسكت . . . ولم تقل شيئا ونحن نرقب أبى وهو يرفع شين ويضعه فى مقعد العربى ثم يصعد الى جانبه ، ويجلسه بوضع احدى ذراعيه حوله ، ثم يمسك الزمام بيده الاخرى . وأسرع ويل أتكى يحمل بضاعتنا ووضعها فى العربى . وقبعت أنا وأُمى فى مؤخرة العربى ، ونادى أبى لكى يسير الجواد ، وهكذا بدأنا طريق العودة الى الدار .

ولم نكن نسمع صوتا سوى وقع حوافر الحصان وصريف (تزييق) العجلات . ثم سمعت صوت ضحكة مكتومة فى مقدمة العربى . . . وكانت صادرة عن شين ، وقد أنعشه الهواء البارد فجلس معتدل القامة يتأرجح تبعا لحركة العربى .

وقال لأبى : ماذا فعلت بالعملاق يا جو ؟ لقد كنت أنا مشغولا بذى الشعر الاحمر .

— لقد أزحته من الطريق . وهذا كل ما فى الامر . وأراد أبى أن يقف الامر عندهذا الحد ، ولكن أُمى ما لبثت حتى قالت : لقد رفعه الى فوق وكأنه . . . وكأنه كيس بطاطس ، وقذف به بعرض القاعة . . .

ولم تكن توجه قولها هذالشين ، ولا لأحد غيره ، وانما

قالت له ليل، وللظلمة الحلوة المحيطة بنا ، وكانت عيناها تلمعان في ضوء النجوم .

ثم استدارت بنا العربة حتى بلغت الدار ، ودخلنا ، بينما فك أبي رباط الحصان . ودخلت أمي الى المطبخ ووضعت بعض الماء ليغلي على الفرن وأكرهتني على أن آوى الى فراشي . ولم تكذ تدير لي ظهرها حتى كنت أنظر من خلال فتحة الباب . وجاءت بعدة خرق نظيفة ، وحملت اناء الماء من فوق الفرن ، ومضت تمسح رأس شين . وكانت أرق ما تكون ، وهي تغني بصوت منخفض لنفسها في خلال ذلك . وقد تألم شين كثيرا اذ غمر الماء الجرح الذي تحت شعر رأسه ، واذا غسلت الدم الذي جمد على خده . ولكن يبدو أن ألمها كان أشد من ألمه ، فقد كانت يدها ترتعش في أسوأ مواضع الجروح، وكانت هي التي تجفل عندئذ ، بينما كان هو جالسا في هدوء يبتسم لها ليطمئنها .

وجاء أبي فجلس بجوار الفرن، وجعل يرقبهما . ثم تناول غليونه وملاه بالطباق ثم أشعله بعناية فائقة .

وأتمت أمي أغسل الجروح . ولم يدعها شين تضع عليها ضمدة . وقال : « ان الهواء هو أحسن دواء » . وقنعت مرغمة بغسل الجروح وتنظيفها تماما ووقف كل نزيف . ثم جاء دور أبي . فقالت له :

— اخلع هذا القميص يا جو . لقد تمزق كله من الظهر . دعني أرى ماذا يمكنني أن أفعل به .

ولكن قبل أن يقوم أبي كانت قد غيرت رأيها فقالت : كلا . بل نحفظه كما هو لكي يكون تذكارا لهذه الليلة . لقد كنت رائعا يا جو اذ قذفت بذلك الرجل بعيدا و

فقاطعها أبي قائلا : هذا هراء . كل ما هنالك أني تملكني الغيظ اذ رأيته ممسكا بشين لكي يضربه مورجان !

وكانت أمي الآن وسط المطبخ تردد بصرها بين الاثنين ، ثم قالت

لشين : وأنت يا شين : لقد كنت أيضا رائعا ، فان مورجان
ضخم فطيع ومع ذلك لم تدع له فرصة . . . وكنت رابط الجأش
سريع الحركة . . . و . . . وخطرا . . . و . . .

فقاطعها شين قائلا : لا يجدر بامرأة أن ترى أمثال هذه
المناظر .

وكان يعنى مايقول . ولكنها كانت مسترسلة في الكلام فقالت :
- أظن انى لا يجدر بى أن أرى مثل ذلك القتال لانه وحشى شنيع ،
وليس مجرد قتال يغلب به أحد الطرفين الآخر ، بل كان وضعيا
ردينا ، يراد منه الغلبة بأية وسيلة ، مجرد الغلبة ؟ . . . انه
كذلك طبعا . ولكنك لم تكن البادى ، ولم تكن تريده . حتى
أرغموك عليه . . . وأنت انما قاتلت لأنك أكرهت على القتال .
وكان صوتها يرتفع رويدا ، وكانت تنظر الى الامام والى الخلف ،
وقد بدأت تفقد السيطرة على أعصابها . . . ثم قالت :

- هل كان لاية امرأة رجلان كهذين ؟!

وحادت ببصرها عنهما ثم مدت يدها الى كرسى وجلست عليه
توا وقد غطت وجهها بيديها وتساقط من عينيها الدمع .

فتفرس فيها الرجلان ، ثم نظر كل منهما الى صاحبه نظرة
فهم بين الكبار تعلو على ادراكى ! وقام شين وتقدم نحو أمى ، ووضع
يده برفق على رأسها ، ثم أحسست بأنامله تتخلل شعري ، وبمحبتته
تسرى فى جسمى . ثم خرج من الباب بسكون الى الظلام .

وسحب أبى غليونه وكان قد انطفأ فأشعله وهو شارد الذهن .
ثم قام ومضى الى الباب ومنه الى السقيفة . ورأيته ثمة فى الظلام
وهو ينظر صوب النهر .

وسكت نشيج أمى رويدا ، ورفعت رأسها ومسحت دموعها .
ثم قالت : جو !

فالتفت أبى ومشى ووقف بجوار الباب . فقامت ومدت اليه يديها
فاحتضنها بين ذراعيه . وقال لها :

- أظنني اني لا أعرف يا ماريان ؟

- كلا ... انك لاتعرف .. لاتعرف حقا ... انك لاتقدر

ان تعرف ... لانى أنا نفسى لاأعرف !

وكان أبى ينظر فوقها الى الحائط دون أن يرى شيئا معينا .

ثم قال لها :

- لاتزعجى نفسك ياماريان ... ان لى من الرجولة ماأعرف

به من هوخير منى اذا صادفته ! مهما يحدث فانه منته الى خير !

- آه ياچو . قبلنى ! قبلنى ياچو ! احتضنى بقوة ولا تدعنى !

ستارک ولسن

ان مادار تلك الليلة في المطبخ كان فوق ادراكي وقتئذ • ولكني
لم أقلق لان أبى قال ان كل شىء سينتهى الى خير ، ولا يشك أحد
يعرف أبى حق المعرفة ، فى أنه سيحقق كلمته •••

ولم يعد رجال فلتشر يزعجوننا مطلقا ، بل صرنا لا نشعر بوجود
مزرعة كبيرة لتربية الماشية على الضفة الاخرى من النهر، ممتدة
الى الوادى دون انتظام ، وبالفعة الى ارض «ارنى رايت» الى جانبنا •
لقد تركونا وشأننا حقا ، وصرنا لا نكاد نرى أحدا منهم
فى البلدة • وعلمت من رفاقى الصغار فى المدرسة أن فلتشر
نفسه قد سافر من جديد ، فقد ركب عربة السفر الى شينين
وربما الى ما بعدها ، ولا يدري أحد لماذا ذهب •

غير أن أبى وشينين صارا أشد حذرا من قبل ، وصارا أشد
حرصا على أن يكونا معا، وأصبحا يمشيان فى الحقول من الوقت
الا ما تقضى به الضرورة • ولم تعد لنا جلسات فى السقيفة ليلا
لنتجاذب أطراف الحديث ، وأن يكن جو الليل قد أصبح لطيفا
يدعوك الى الخروج والبقاء تحت قبة السماء ونجومها الوامضة •
وصرنا نلزم البيت ، وكان أبى يصير على جعل المصابيح مظلمة،
وقد صقل مسدسه وعلقه معبأ بالرصاص على مسمارين بجوار
باب المطبخ •

على أنى لم أدرك معنى لكل هذه الحيلة • ولذا سألت يعد
أسبوع من ذلك ، ونحن نتناول طعام الغداء :
— هل هناك شىء جديد ليس على ما يرام ؟ ألم ينته ذلك الخلاف
الذى شجر بيننا وبين فلتشر ؟

فرد شينين وهو ينظر الى من فوق فنجان قهوته :

- ينتهى ١٩ يا عزيزى بوبى .. انه انما ابتداء !

وأردف أبى قائلا :

- هذا صحيح .. لقد أوغل فلتشر الى حد لا يمكنه معه التراجع وأصبح الامر بالنسبة له أن يحقق غرضه الآن أو لا يحققه أبدا . واذا استطاع أن يكرهنا على الفرار ، فانه سيبقى مطمئنا فترة طويلة من الزمن . واذ لم يستطع فان طرده من هذا الوادى سيكون مسألة وقت وحسب . وهناك ثلاثة أو أربعة من الرجال جابوا خلال هذه الناحية فى السنة الماضية وهم على أهبة لان يضعوا أيديهم على أراض هنا ويستقروا عليها ، حين يأمنون على أنفسهم شره . وانى أراهم أن فلتشر يشعر الآن بأنه كمن يمسك بذيل الدب ، وانه يحسن به لو تركه يمضى فى سبيله ..

فقلت أنا : ولماذا اذن لا يفعل شيئا ؟ يبدو لى أن كل شيء هادىء حولنا فى الايام الاخيرة !

فقال أبى : يبدو لك ! يبدو لى أنك لاتزال أصغر سنا من أن يبدو لك شيء كثير .. ولكن لا تقلق يا بنى ! ان فلتشر يدبر الآن شيئا ما . والحشائش التى تنمو تحت قدميه لا تكفى لاطعام بقرة . ولو أنى علمت ما هو بصدده الآن لكنت أكثر طمأنينة ..

وعاد شين يحدثنى بالشكل الذى أحبه ، كما لو كنت رجلا يفهم كل ما يقوله ، وقال :

- أنت ترى يا بوب أن فلتشر بالتجائه الى الجعجعة والعنف قد جعل الامر بيننا وبينه ، أمر نصر أو هزيمة . فهو أشبه برجل ركل بقدمه حجرا فانزلت به صخرة ، وكل ما يأمله بعد ذلك هو أن يركبها حتى تصل به آمنا الى القرار .. ولعله لما يدرك ذلك ، ولكنى أحسبه يدركه . ولا تدع الهدوء يخدعك . واذا كانت ثمة ضجة ، فأنت تعرف أين تنظر ، وماذا يحدث . أما اذا كانت الاحوال هادئة ، فعندئذ ينبغى لك أن تزيد من حذرك ..

وهنا تنهدت أمي • وكانت تنظر الى خد شين حيث بدأ الجرح يستحيل الى ندبة، كأنها خط رفيع يجرى الى الخلف بقرب الفم • ثم قالت :

- أحسبكما كليكما على صواب • ولكن هل لابد من قتال جديد ؟
فسألها أبي :

- تقصدين من نوع ما حدث في تلك الليلة ؟ كلا يا ماريان •
لا أظن ذلك • لقد تلقى فلتشر درسا لا ينساه •

وقال شين : لقد علم الآن ما لم يكن يعلم ، وهو أن مثل ذلك العراك لا يجديه نفعا • ولو كان كما أحسبه ، فقد عرف الموقف منذ الليلة الذي حرض به كريس • واني أشك في أن تلك الحركة الاخيرة كانت من وحيه بل كانت من رأى مورجان • والآن سيبحث فلتشر عن وسيلة أخرى أدق وأقرب الى اللهاء ، وتكون حاسمة •

فغمغم أبي وقال : أتعنى وسيلة قانونية ؟

فقال شين : ربما •• اذا وجد لنفسه وسيلة من هذا القبيل •
ثم هز كتفه ونظر من النافذة وأردف قائلا : واذا لم يجد ، فهناك وسائل أخرى • وأنت لاتقدر أن تتوقع ما يفعله رجل مثل فلتشر ، فان الامر يتوقف على المدى الذي يريد أن يذهب اليه ولكن مهما يفعل ، فانه متى استعد ، سينجز فعلته بسرعة وثقة •

فغمغم أبي ثانيا وقال : الآن وقد فسرت الموقف هكذا ، أراك على صواب • ان الطرق التي يتبعها فلتشر هي من هذا القبيل وأراهن أنك قد صادفك من قبل رجل من طرازه ••
فلم يجب شين وانما استمر ينظر من خلال النافذة • فاستطرد أبي يقول :

- حبذا لو كان لي مثل مالك من الصبر حيال هذه المسألة !
اني لا أحب هذا الانتظار !

غير أننا لم ننتظر طويلا . ففى الغداة ، وكان يوم جمعة ،
وقد كدنا نفرغ من تناول طعام العشاء ، جاء ليو جونسون
وهنرى شيبستد ، يحملان الينا النبأ اليقين . . وقالا لنا أن
فلتشر قد عاد ، ولكنه لم يعد وحده ، بل جاء رجل معه !

ورآهما ليو جونسون وهما ينزلان من عربة السفر . وأتى
له أن يرى ذلك الغريب مليا وهما ينتظران أمام مكتب البريد حتى
يحضر اليهما جوادان من العربة . ولما كان الوقت قرب الغروب ،
فان ليو جونسون لم يتبين له وجه ذلك الغريب تماما . غير
أن الضوء المنبعث من داخل مكتب البريد كان كافيا لان يرى
من أى نوع كان ذلك الرجل !

لقد كان طويل القامة ، عريض الكتفين ، نحيل الوسط
وله شارب يعنى به ، ولما أدار الرجل عينيه رأى جونسون فيهما
بارقة جمود ، وبريقا أخافه . .

وكان هذا الغريب ممن يهتمون بشيائهم ، ولكن ذلك كان غير ذى
أهمية . . ولما استدار ، انفتحت السترة التى يلبسها ملأمة لسراويله ،
ورأى جونسون ما كان مختبئا هناك ! لقد كان الرجل يحمل
مسدسين كبيرين من طراز خمسة وأربعين ، فى قرابين معلقين
فى أسفل الى الامام ، وكان القرابين مربوطين الى ساقيه
بأشرطة رفيعة . وقال جونسون انه أبصر المشبكين الصغيرين
حين وقع عليهما الضوء .

وكان هذا الرجل يسمى « ويلسن » ، فهكذا ناداه فلتشر
حين جاء راعى بقر يقود لهما جوادين . وكان له اسم آخر
مضحك وهو « ستارك » . فاسمه الكامل اذن هو « ستارك
ويلسن » . ولم يكن هذا كل ما هنالك . .

وقد انزعج ليو جونسون وقصد الى محل جرافتون حيث
وجد ويل آتكى الذى عنده دائما النبأ اليقين عن القادمين ، لانه
كان دائما يتسع الى كلام من يأتون الى البار . ولما ذكر له جونسون
اسم ذلك الرجل ، لم يصدق ويل فى البداية . وظل يردد قوله :

ماذا يفعله هنا ؟ ثم صرح ويل بأن هذا الرجل هو رجل شرير
قاتل ! وأنه بأرع فى القتال بالمسدس ، ولا تقل احدى يديه
براعة عن الاخرى ، وانه سريع كاسرع من يطلق الرصاص .
وقال ويل انه سمع بأن ستارك ويلسن هذا قد جاء الى «شايين»
من كانساس تسبقه شهرته بأنه قتل ثلاثة رجال هناك ، ولا يدري
أحد كم من رجال آخرين قد قتلهم فى المناطق الجنوبية الغربية .

وكان ليوجونسون لا يزال يثرثر ويضيف من التفاصيل ما يتذكره
فى حين قبع هنرى شيبستيد فى كرسى بجوار الفرن . وكان أبى
يدخن غليونيه مقطب الجبين ، ويبحث فى جيبه عن عود ثقاب
وهو شارد الذهن . واذا بشين قد قطع على جونسون حبلا
الحديث بشكل مفاجئ أفزعنا . وكان صوته حادا رائقا حتى بدا
أن له قرعة فى الهواء . . وكنت تشعر بأنه قد استولى على تلك
الغرفة وعلى أزمئنا جميعا . .

وقال : متى جاء الى البلدة ؟

— فى الليلة الماضية .

فقال بلهجة سخط : وأنت قد صبرت حتى الآن دون أن تنبئنا !
. . حقا أنك مزارع قح ، يا جونسون ، وستبقى كذلك الى آخر
حياتك !.

ثم استدار نحو أبى وقال له : اسرع يا جو . . أيهما أكثر
حمقا ، أيهما أيسر جرا الى شجار ؟ تورى ؟ أم رايت ؟
فأجاب أبى ببطء : أرنى رايت !

— هيا تحرك يا جونسون . امتط ظهر جوادك وأسرع الى دار
رايت وأحضره الى هنا . واثنا بتورى أيضا . ولكن هات رايت
أولا . .

فقال هنرى شيبستيد بكلمات متثاقلة : ولكنه سيضطر الى
الذهاب للبلدة من أجل ذلك . . وقد مررنا بهما كليهما بالطريق
وهما ذاهبان الى البلدة !

فقفز شين من مجلسه . وكان ليوجونسون يمشى نحو الباب متلکئا ، فأزاحه شين جانبا ، ومضى الى الباب بنفسه ، وفتحه وخرج ، ثم وقف ومال الى الامام وأخذ ينصت .

وكان هنرى شيبستد يزمر قائلا : - هون عليك يا رجل . . ما الداعى الى هذه السرعة ؟ لقد أخبرناهم بقـدوم ويلسن وسياتون الى هنا فى طريق عودتهم .

على أنه وقف فجأة عن الكلام ، فقد سمعنا جميعا فى تلك اللحظة صوت حصان يرمح قداما فى الطريق .

ودخل شين الى الغرفة وهو يقول بحرارة : هذا هو الجواب ! وألصق أقرب كرسي بالحائط وجلس ، وقد خمدت النار التى كانت مشتعلة فى نفسه من قبل . وانفرد بأفكاره وخوابره ، وكانت سوداء لاتسر !

وسمعنا الجواد يقف فجأة امام واجهة الدار . وكان الصوت واضحا حتى كنت تسمع قدميه الاماميتين وقد ثبتتا فى موضعهما وغرس حافراهما فى الارض .

وجاء فرانك تورى مندفعاً ، وكانت قبعته قد ضاعت ولعب الهواء بشعره ، وكان صدره يعلو وكأنه جرى بقدر ما جرى الحصان به . واستند الى مقابض الباب كى يحفظ توازنه ، ولما تكلم كان صوته همسا خشنا وان يكن قد جهد ن أن يصيح عبر الغرفة ليسمع أبى ، وقال :

- لقد أطلق الرصاص على أرنى ! لقد قتلوه !

فجعلتنا هذه الكلمات نقفز من أماكننا ووقفنا نحملق دهشة ، ماعدا شين فإنه لم يتحرك من مكانه ، حتى لقد تحسب أنه لم يكثرث لما قاله تورى !

وكان أبى هو الذى قبض على ناصية الموقف ، فقال بهدوء : ادخل يا فرانك . احسب أنه تدفات الوقت الذى كان يمكننا فيه أن نعاون أرنى ! اجلس وحدثنا ولا تدع شيئا الا أخبرتنا به .

وقاد فرانك تورى الى مقعد ودفعه اليه . ثم اغلق الباب وعاذ الى كرسيه . وكان يبدو عليه الالقاء وكأنما كبر به العمر . ومضت فترة من الوقت حتى استعاد فرانك تورى رباطة جأشه ، واستطاع ان يقص علينا ما حدث . وكان خائفا وقد استقر الخوف فى أعماق نفسه ، وكان فى خجل من ذلك .

وقال لنا أنه هو و « ارنى رايت » كانا قد قصدا الى مكتب البريد ليسألا عن طرد كان ارنى ينتظر وصوله . ثم عرجا على حانة جرافتون ليحتسبا شرابا منعشا قبل أن يعودا . ولما كان الهدوء قد ساد فى المدة الاخيرة ، فأنهما لم يخشيا سوءا ، وان يكونا قد ابصرا فلتشر والرجل الجديد ، ستارك ويلسون ، جالسين يلعبان البوكر الى المائدة الكبيرة . ولكن لابد أن فلتشر وويلسن كانا يترقبان فرصة كهذه . فادنيا أيديهما الى فاهيهما واحداثا صوتا كقرق الدجاج .. وجاءا معا الى البار .

وكان فلتشر لطيفا مؤدبا قد رامكانه .. وقد أوما تحية لتورى ، واختار أن يحدث ارنى على حدة ، وقال له أنه آسف ... ولكنه محتاج حقا الى الارض التى شيدارنى عليها ، فأنها المكان الملائم لان يقيم عليها حظائر شتوية تكون وقاء من الرياح لقطع الماشية الذى سيجلبه وشيكا . وقال أنه يعلم أن ارنى لم يثبت ملكيته لتلك الارض بعد ، ولكنه مع ذلك مستعد لان يدفع عنها ثمناعادلا وقال :

— سأعطيك ثلثمائة دولار .. وهذا المبلغ أكبر من قيمة الخشب الذى فى مبانيك بالنسبة لى .

وكان ارنى قد أنفق على الارض بالفعل أكثر من هذا المبلغ . وكان قد رفض ماعرضه عليه فلتشر ثلاث مرات أو أربعا . والآن تملكه الغضب ، كشأنه دائما حين يشرع فلتشر يحدثه بطريقته الناعمة ...

وقال له باقتضاب : — كلا .. لا أبيع ... لا الآن ولا فى المستقبل !

فهز فلتشر كتفه كأنه فعل كل ما باستطاعته ، وأوماً الى ستارك
ويلسن .. وكان ويلسن هذا يبتسم لارنى نصف ابتسامة ،
ولكن عينيه ، كما قال لنا فرانك تورى ، لم يكن بهما ما يدل على
ابتسام . وقال لارنى :

— لو كنت فى مكانك ، لغيرت رأىى ... هذا اذا كان لك عقل
يصدر عنه رأى !

فقال له ارنى بحدة : — لاتدخل فى هذا الموضوع .. فإنه
لا شأن لك به .

فرد ويلسن برقة : — أراك لاتعلم ! انى الوكيل الجديد لاعمال
المستر فلتشر . وأنا أعقد الصفقات نيابة عنه . الصفقات مع الحمقى
أمثالك .

ثم قال مادل على أن فلتشر قد حرضه عليه : انت غبى
يارايت . ولكن ماذا ينتظر من خليط الجنس مثلك !

فصاح به ارنى : هذا كذب ! أن أمى لم تكن من الهنود الحمر !
فقال ويلسن بحدة : ماذا ؟ أنت يا واضع اليد الحليط ! أتجرؤ
على أن تخطئنى ؟

— انى اقول لك أنك كذاب منحط !

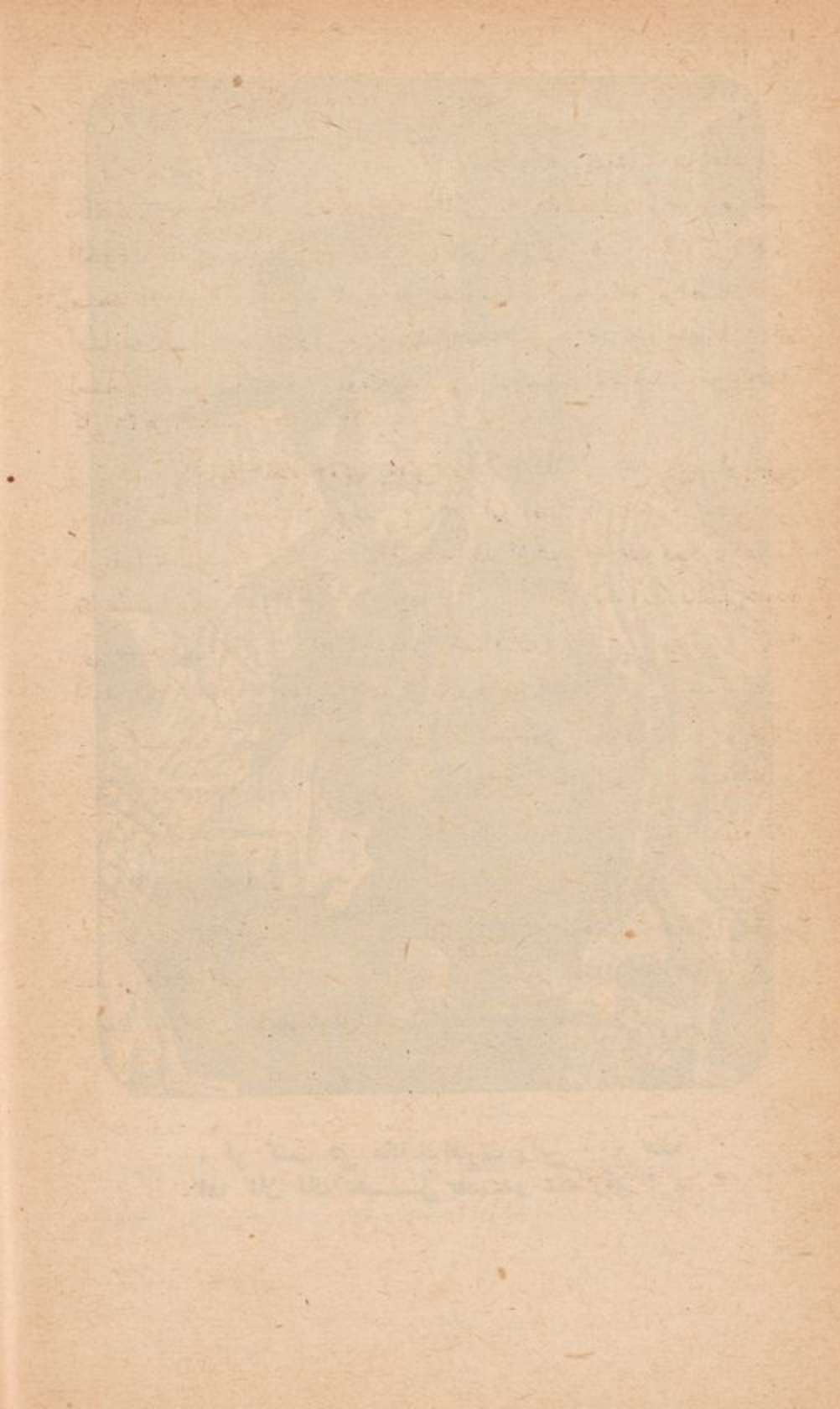
وعندئذ ساد الصمت الحانة ، كما قال لنا فرانك تورى ، حتى
أنه صار يسمع طقطقة « المنبه » القديم الذى على الرف خلف
البار . وما لبث ارنى فى اللحظة التى سكت فيها ، حتى أدرك
ما فعل . ولكنه كان قد اشتد به الغضب ، وصار يحملق فى ويلسن
وقد بان التهور فى عينيه .

فقال ويلسن ببطء : هكذا !

وقد سر الآن ، ومد هذه الكلمة بنعومة كبيرة .. وخلع سترته
من جانبها الايمن فبان القراب وصار مقبض المسدس فى متناول
يده . وقال :



« لو كنت في مكانك لغيرت رأيي ... هذا
إذا كان لك عقل يصدر عنه رأي ! »



— أسحب هذه الكلمة يارايت والا فأنك تخرج من هنا زاحفا
على بطنك •

وخطا ارني خطوة بعيدا عن البار ، وقد جمدت ذراعاه الى
جانبه • وقد نصب الكدر الذي به قامته ، وهو يغالب
الخوف الذي يعتمل في نفسه . وكان يدرى معنى ذلك ، ولكنه
صمد له ، وكانت يده ثابتة على مسدسه ، وما كاد يرفعه حتى
أصابته الرصاصة الاولى من مسدس ويلسن ، فترنح منها • ثم
أصابته الثانية ، وظهر زبد طفيف على شفتيه ، وغاضت من وجهه
كل دلائل الحياة وسقط على الارض •

وفيما كان فرانك توزي يقص علينا كل ذلك ، جاء جيم لويس ،
وبعده بدقائق حضر ادهويلز • غير أن أنباء السوء تدعى في
طريقها مسرعة ، وبأن عليهما أنهما يعرفان أن شرا ما قد وقع • ولعلهما
قد سمعا رمح الجواد بشكل جنوني ، اذ كان الصوت ينتقل بعيدا
في سكون الليل • وقد اجتمعوا كلهم الآن في مطبخ دارنا ، وكانوا
أشد قلقا ورصانة مما رأيتهم في أى وقت مضى •

والتصقت بأمرى وقد حدث لها أن أحاطتني بذراعيها • ولحظت
أنها لم تعر الرجال الآخرين الا قليلا من اهتمامها ، وانما كانت
ترقب شين غير الغرفة في صمت مر •••

وقال أبى عابسا :

— اذن الامر كذلك ! ولكن علينا أن نواجه الموقف • فاما أن نبيع
بالثمن الذى يفرضه ، واما أن يرخى العنان للقاتل الذى استأجره !
وهل تحرش ويلسن بك أنت أيضا يا فرانك ؟

فقال تورى :

— لقد نظر الى •••

وكان مجرد تذكره ما حدث كافيا لان تسرى رعدة في جسده •
ثم استطرد يقول :

— لقد نظر الى ، وقال لى :

- انه لا أمر مؤسف حقا ان «رايت» لم يغير رأيه . أليس كذلك
أيها السيد ؟
- ثم ماذا ؟

- لقد خرجت من القاعة بأسرع ما أستطيع وجئت الى هنا !
وكان جيم لويس فى خلال ذلك يتململ فى مقعده ، وتزيد
أعصابه هياجا كل دقيقة والآن قفز من مكانه وصاح قائلا :
- يا جو . . كيف نترك شخصا يطوف حوله هكذا قاتلا من يشاء
من الناس ؟

فزجر هنرى شيبستد قائلا :

- صه يا جيم ! ألا ترى كيف رتب الامر ؟ ان ويلسن قد أثار
ارنى ، وجعله فى موضع لا مناص فيه من استخدام مسدسه .
وفى امكان ويلسن الآن أن يقول انه انما أطلق الرصاص دفاعا عن
نفسه وسوف يتخذ هذه الطريقة نفسها مع كل واحد منا
فأردف ليو جونسون قائلا :

- أصبت يا جيم ! وحتى اذا توصلنا الى تعيين حاكم هنا فانه
لن يستطيع أن يضبط ويلسن . . . لقد كان الامر قتالا متعادلا
الطرفين ، والاسرع فيهما هو الغالب . وهكذا ينظر أكثر الناس
الى هذه الجريمة وقد شهدوا كثير منهم بالفعل ولو أن حاكما
عين لهذه الناحية ، لما استطاع أن يأتى فى أوانه على أى حال .

وقال لويس وقد بدأ يرفع صوته الى حد الصياح :

- ولكن ينبغى لنا أن نمنع ذلك ! وماذا يستطيع أى أحد منا
أن يفعله حيال ويلسون ؟ اننا لسنا من اللصوص المسلحين . .
وانما نحن جماعة من رعاة البقر القدامى والمزارعين . . ويمكنك
أن تسمى الامر قتالا أو مبارزة . أما أنا فلا أسميه الا قتلًا
واغتيالا !

وهنا قال شين : أجل !

ورنت كلمته هذه فى الحجرة . ووقف جامد الوجه ، وقد بانث
تجاعيده الصلبة على طول فكيه .

وعاد يقول :

- أجل .. انه اغتيال ! ومهما احتالوا على تسميته بالدفاع عن النفس أو بالقتال المتكافئ ، الفرص ، أو بأية كلمة براقة أخرى ، فانه فى الواقع ليس الا قتلا واغتيالا .

ونظر الى أبى وقد تجلى الالم فى عينيه .. ولما التفت الى الآخرين كانت نظرتهم تنم عن ازدراء . ثم قال لهم :

- أنتم الخمسة يمكنكم أن تعودوا زاحفين الى جحوركم ... ولا داعى لان تقلقوا ... بعد ! واذا حان الوقت ، فان فى استطاعتكم دائما أن تبيعوا أراضىكم وتهربوا .. ولن يشغل فلتشر نفسه بأمثالكم فى الوقت الحاضر . انه ذاهب الى الحد الاقصى ، وهو يعرف اللعبة التى هو بصدددها . وقد اختار « رايت » لكى يوضح هذه اللعبة . أما وقد تم ذلك ، فانه سيتجه قدما نحو الرجل الحقيقى الوحيد فى هذا الوادى ، الرجل الذى حفظكم حتى الآن وسيظل يحفظكم مادام به رمق من الحياة . وهو الذى يقف حائلا بينكم وبين فلتشر وويلسن فى هذه اللحظة ، وينبغى لكم أن تحمدوا الله على أن جعل فى هذا الوادى رجلا مثل جو ستاريت !

« وأيضا رجلا مثل شين ! »

أكانت هذه الكلمات على لسانى ، أم أننى سمعت أمى تهمس بها فى تلك اللحظة ؟ لقد كانت تردد بصرها بينه وبين أبى ، وكانت خائفة وفخورا فى آن واحد ! وكان أبى يعبث بغليونه وهو يعبثه باهتمام ، كأنه يستحق كل عنايته ...

وتملل الآخرون فى غير ارتياح ... لقد اطمأنوا لما قاله شين ، ولكنهم خجلوا مما قاله ... وساءت بهم اللهجة التى قاله بها ! وقال له اد هويلز بشكل ينم عن خبث :

- يبدو أنك تعرف الكثير عن تلك الوسائل الدنيئة !

فرد شين دون أن يغضب : أجل !

وترك كلمة هويلز حيث هى من الجلاء والاقتضاب والقبح ..

وكان وجهه جامد الملامح ، ولكنها مع هذا كانت تنم عن حزن يريد أن يسفر ... ولكنه رمقه بنظرة طالت حتى غضى الآخر من بصره ...

وترك أبى غليونته الذى كان مشغولا به ... وقال : ربما كان من حسن حظنا أن شين قد طوف فى البلاد ... فانه أصبح يعرف كيف يرتب اللعبة لنا ... ولعل ارنى كان يبقى على قيد الحياة يا جونسون لو أنك كان لك من الذكاء ما كان يجعلك تنبئنا بقدوم ويلسن عقب رؤيتك اياه .. ولحسن الحظ لم يكن ارنى رب أسرة !

ثم التفت الى شين وقال له : ماذا تحسب فلتشر الآن فاعلا بعد أن أظهر لنا اليد التى يفتك بها ؟

وكانت فرصة عمل شيء ، ولو كان مجرد الكلام فى المشككة التى تواجهنا ، كافية لان تخفف من شعور المرارة الذى بنفس شين ... وقد رد قائلا :

— سيحتل أرض رايت بادىء ذى بدء فى صباح الغداة . ومنذ الآن سيجعل الكثير من رجاله يعملون باستمرار على هذا الجانب من النهر ، ولعلمهم سيقودون بعض الماشية وراء الدور لكى يجعل الضغط واضحا لكم جميعا . أما مدى سرعته فى الالتفات اليك يا جو ، فهذا يتوقف على مقدار فهمه اياك ... فاذا ظن أنك قد ترضخ ، فقد ينتظر حتى يؤثر فيك ما حدث لرايت ... أما اذا كان يعرفك حق المعرفة ، فانه لن يصبر الا يوما أو يومين لكى يستوثق من أنك أعملت الفكر فى خلاهما ، ثم ينتهز أول فرصة تسنح لكى يسلط عليك ويلسن ، وسيحرص على أن يكون ذلك فى محل عمومي حيث يوجد عدد من الشهود . واذا لم تهين له الفرصة ، فانه سيخلقها خلقا .

فتمتم أبى فى رصانة .. قائلا : لقد كنت موقنا أنك ستصارحنى بالحقيقة دون مواربة .. وهذا عين الصواب ..

ودخن غليونه لحظة ثم استطرده يقول : أعتقد أيها الاخوان أن المسألة أصبحت مسألة انتظار بضعة أيام .. وليس ثمة خطر مباشر على أى حال .. وسيعنى جرافتون بجثمان ارنى .. ويمكننا أن نلتقى فى البلدة صباح غد لتشجيع جنازته . وبعد ذلك يحسن بنا أن نبتعد عن البلدة ونلزم بيوتنا قدر امكاننا . وانى ارى أن تفكروا جميعا فى ذلك ثم تأتوا الى هنا مساء غد . فربما اهتدينا الى حل ويهمنى أن أعرف موقف البلدة من هذا الامر قبل أن أبت فيه برأى .

وكانوا مرتاحين الى ترك المسألة عند هذا الحد .. بل كانوا مطمئنين الى القائئا على عاتق أبى . . . لقد كانوا أناسا لطافا وجيرانا طيبين . . . ولكن أحدا منهم ما كان ليقف وحده أمام فلتشر .. وانما كانوا يمكثون فى أراضيهم طالما كان أبى فى أرضه .. ولو ذهب أبى لنفذ فلتشر كل ما ربه .. وهكذا كان شعورهم وهم يتمتمون بتحية المساء ويخرجون ليتفرقوا فى الطريق ، كل الى داره . . .

ووقف أبى عند الباب يرقبهم وهم ذاهبون .. ولما عاد الى مقعده كان يشى على مهل وكان يبدو عليه الاعياء . ثم قال : يجب أن يذهب أحد الى دار ايرنى غدا ويجمع حاجاته ، فان له أفارب فى بعض نواحي « ايدوا » .

فقال شين بحزم : - كلا . انك لن تقترب من ذلك المكان .. فلعل فلتشر يعتمد على ذهابك الى هناك . . . وفى استطاعة جرافتون أن يقوم بهذه المهمة .

فقال أبى ببساطة : - ولكن ارنى كان صديقى !

- كان صديقك فيما مضى . . . وواجبك الآن هو نحو الاحياء ! ونظر أبى الى شين ، فانتقلت به هذه النظرة الى اللحظة الحاضرة وأنعشته .. وأوما برأسه موافقا ثم التفت الى أمى وكانت تتعجل الجدل معه . . .

وقالت له : ألا ترى يا جو ؟ أنك إذا ابتعدت عن كل مكان
يمكن أن تلقى فيه فلتشر وذلك المدعو ويلسن ، فإن الامور
سترتب نفسها .. انه لن يقدر أن يبقى رجلا مثل ويلسن فى
هذا الوادى الصغير الى الابد !

وكانت تتكلم بسرعة ، وكنت أنا أعرف الباعث على ذلك .. انها
لم تكن فى الواقع تحاول اقناع أبى ، ولكن اقناع نفسها ..
وقد أدرك أبى ذلك أيضا . ورد قائلا :

— كلا ياماريان .. ان الرجل لا يستطيع أن يزحف الى جحر
ويختبئ به وكأنه أرنب .. هذا اذا كان له أى قدر من الكبرياء
والكرامة !

— حسنا اذن .. ولكن ألا تستطيع أن تبقى هادئا ولا تدعه
يدفعك الى أى شجار ؟

— وهذا أيضا لا يصلح حلا ..

وكان مقطب الجبين ، ولكنه كان خيرا من قبل ، وقد بدأ
يواجه الواقع .. واستطرد يقول : ان الرجل قد يصبر على كثير
من الضغط اذا اضطر اليه .. وخصوصا اذا كانت ثمة دواع
لصبره هذا .

ونظر الى وهو يقول ذلك . ثم أردف يقول :

— ولكن هناك أشياء لا يمكن رجلا أن يقبلها ... هذا اذا أراد
أن يبقى على احترامه لنفسه ..

وارتعت اذ رأيت شين فى هذه اللحظة يتنسم نفسا طويلا ،
وكان يجاهد نفسه ويغالب ذلك اليأس الحفى الذى به ، وقد أظلمت
عيناه من الألم حيال شحوب وجهه .. وبدا كأنه غير قادر على
أن ينظر الينا . ثم مضى الى الباب وخرج .. وسمعنا وقع خطاه
يضعف وهو يقصد الى مخزن الحاصلات ...

ثم ارتعت اذ رأيت أبى أيضا فقد كانت أنفاسه طويلة متقطعة ،

ووقف وأخذ يذرع الحجرة رواحا وجيئة . ولما التفت لأمي وكلمها بصوت عميق يكاد يكون قاسيا ، أدركت أنه قد اطلع على التبدل الذي اعتري شين ، وأن اطلاعه هذا كان يحز في نفسه طول الاسابيع الماضية . وقال لأمي :

— هذا هو الشيء الوحيد الذي لا أحتمله ياماريان ! هومانجن فاعلون به ! ان ما يحدث لى ليس بالأمر ذى البال . . انى أجمع ولا أستصغر من شأنى . . ولكنى لا أوزن به فى أى ميزان ، وأنا أعرف ذلك . . ولو أنى فهمته من البداية كما أفهمه الآن ، لما تركته يمكث هنا . . ولكنى لم أكن أتصور أن يذهب فلتشر الى هذا الحد ! ان شين قد انتصر فى القتال قبل أن يأتى الى هذا الوادى ، وقد لقي حظه من المشقة والصعاب من قبل . أفنتركه يهزم الآن من أجلنا ؟ . . . ان فلتشر يمكنه أن يحظى بما يريد . . . وسنبيع الارض ونهاجر من هنا !

ولم أكن وقتئذ أفكر ، وانما كنت أشعر ! ومن عجب أنى شعرت بأنامل شين تتخلل شعرى وتهز رأسى برفق . ولم يسعنى الا أن أقول عبر القاعة :

— يا أبى . . ان شين لن يهرب ! انه لا يهرب من أى شيء ! فوقف أبى فى مكانه ، وضاق عيناؤه من الدهشة . وحدث الى دون أن يرانى حقا . وكان يستمع الى أمى وهى تقول :

— ان بوب على صواب يا جو . . . اننا لا يمكننا أن نخذل شين ! وعجبت اذ سمعتها تقول لآبى نفس الشيء الذى قالته لشين مع تغيير الاسم فحسب !

واستطردت تقول :

— انه لا يغفر لنا اذا هربنا من هذه المشكلة . ان الامر لم يعد معارضة فلتشر فحسب . ولم يعد مجرد احتفاظ بقطعة أرض يريد فلتشر أن يضمها الى عزبته . بل يجب أن نكون عند حسن ظن شين بنا ، ونبرهن على اننا من طراز الناس الذى

يحسبنا منه ٠٠٠ ان بوب على صواب ٠٠٠ فان شين ما كان
ليهرب من موقف كهذا ٠٠٠ ولذا لا يمكننا نحن ان نهرب !
فقال لها ابي :

- استمعى الى يا ماريان ! ما أحسبك تظنين انى أريد الفرار ؟
كلا ٠٠ بل انك أكثر معرفة بى من أن تظنى بى ذلك ٠٠٠ انه
لا يتفق مع شىء من شىمى وخلقى ٠٠٠ ولكن ماذا يساويه
أكبريائى وهذه الارض وأماننا فى المستقبل ، حياى رجل مثلاً
هذا ؟

- انى أعرف يا جو ٠٠ ولكنك لست بعيد النظر الى الدرجة
الكافية ٠٠

وكانا يتكلمان معا فى جد ، دون أن يقاطع أحدهما صاحبه ،
ويبطئان فى الكلام نوعا لكى يوضحا ما يقصدانه .
ثم قالت أمى :

- انى لا أقدر أن أشرح ما أشعر به يا جو . ولكن أدرك
اننا مرتبطان بشىء هو أكبر مناشأنا ، وان الفرار من هنا
يكون أسوأ عاقبه من أى شىء يمكن أن يصيبنا اذا بقينا ! ولو
أنا هربنا ، لما بقى شىء ذو قيمة لاشى أحد منا ، حتى ولا لبوب ،
طول حياتنا القادمة !

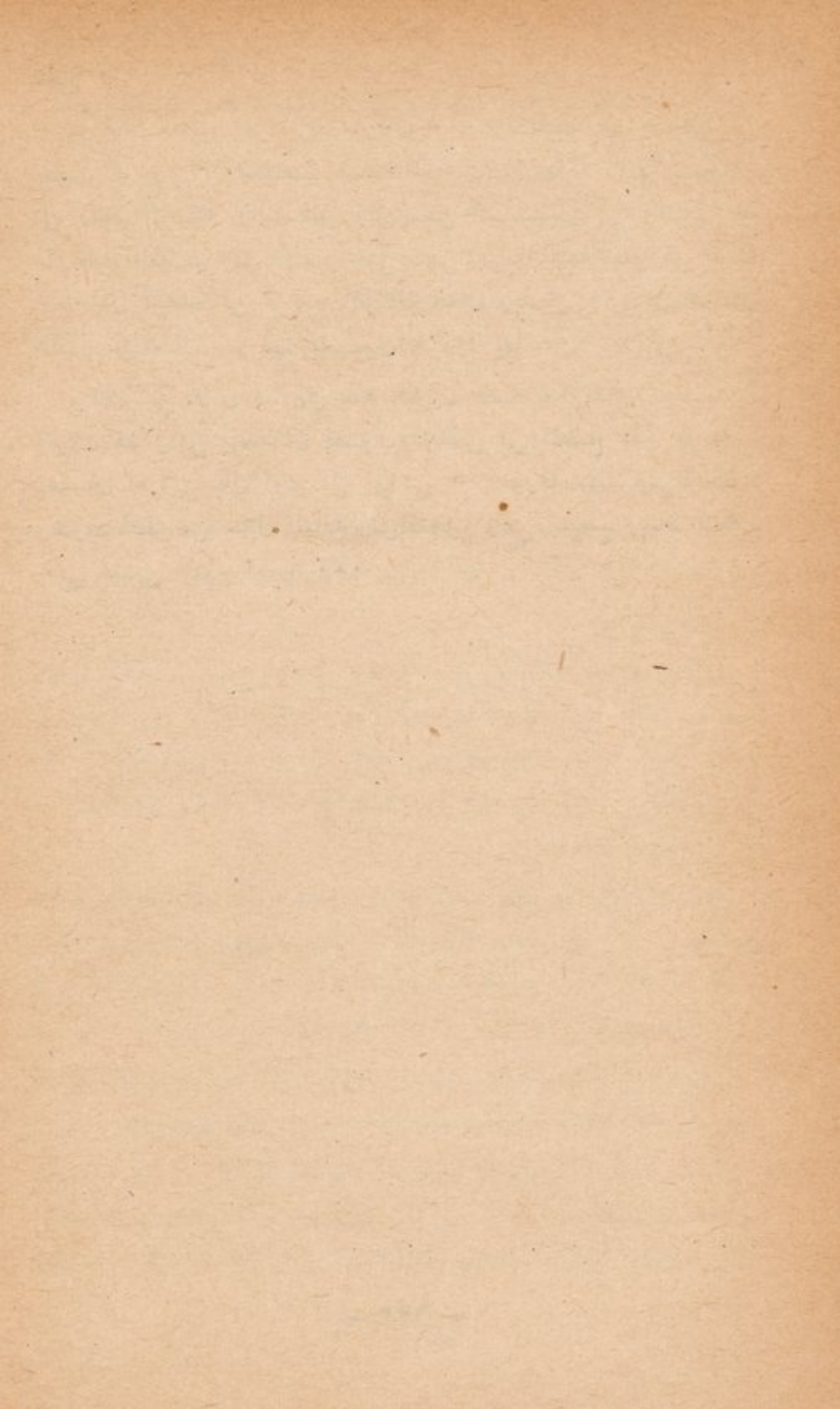
فغمغم أبى ثم قال : ان تورى يستطيع أن يهرب ٠٠ وكذلك
جونسون ٠٠٠ بل جميع الآخرين ٠٠ وان يزعجهم ذلك كثيرا ٠٠٠
- يا جو ٠٠٠ يا جو ستاريت ! أتريد أن تفقدنى رشدى !
انى لا أتحدث عن هؤلاء . وانما أتحدث عنا !

فتمتم أبى وكأنه يحدث نفسه ، قائلا : ان بهجة الحياى
تولى فى هذه الحالة ! ولكن يكون لها مذاق ! ولن يبقى لها معنى !
- أه يا جو ٠٠ هذا ما أردت أن أقوله لك ٠٠٠ وانى أعرف
ان هذه المشكلة سوف تنتهى الى حل ٠٠٠ ولست أدري كيف
يكون حلها ! ولكنها ستنتهى اذا واجهناها ، وصمدنا لها ، ووثق

كل منا بالآخر ... انها سوف تحل .. لانها لا بد لها أن
تحل !

- هذا منطق امرأة يا ماريان ... ولكنك على صواب من
بعض الوجوه . وسنلعب هذه اللعبة الى نهايتها .. انها ستحتاج
الى دوام الرقابة والسهر والى حسن التدبير .. ولكننا قد
نستطيع الصبر على فلتشر حتى ينتهى أمره وندعه يغالى فى لعبته
... ان البلدة لن ترتاح كثيرا الى فعال ويلسن ... ان الرجال
الذين من أمثال وير لهم عقول انفردوا بها ...

وكان أبى الآن قد ولى عنه الكرب فصار يفكر تفكيرا سليما ..
ومكث هو وأمى يتحدثان بصوت منخفض فى المطبخ مدة طويلة ،
بعد أن أمرانى بأن آوى الى فراشى ... ورقدت فى غرفتى الصغيرة
وصرت أنظر من خلال النافذة الى النجوم وهى تسطع وسط الظلام
حتى غلبنى النوم أخيرا ...



مساومة ...

أشرفت الشمس ساطعة على دارنا وعلى كل شيء فى العالم خارجها . وتناولنا طعام افطار جيدا ، وقد تمهل أبى وشين فى الاكل ، وكانا قد خرجا مبكرين لاداء مهامهما فى الحقول ثم جلسا ينتظران حتى يذهبا الى البلدة . والآن امتطيا صهوتى جواديهما وذهبا ، ووقفت أنا أمام الدار ساكنا حزينا ، صادفا عن كل لعب ..

وبعد أن انتهت أمى من ضجة الاطباق ، رأتنى واقفا أنظر الى الطريق ، فدعتنى الى السقيفة ، وجاءت بلوح « الضامة » القديم المحطم وشغلتنى باللعب معها ومحاولة الانتصار عليها ... وكانت شغوفاً بأمثال هذه اللعبة . وكانت تتحمس فى اثائها كما لو كانت طفلة ، وهى تعد الارقام فخورا بصوت مرتفع كلما أتت بحركة جديدة فى اللعب .

وبعد أن كسبت ثلاثة أدوار متوالية ، وضعت اللوح جانبا ، وجاءت بتفاحتين كبيرتين ، وبالكُتب التى أحبها من بين الكتب التى تتيها منذ كانت مدرسة . وجعلت تقرأ لى منها وهى تلوك تفاحتها ، حتى قصر الظل دون أن أشعر ، فكان لزاما عليها أن تدخل لاعداد طعام الغداء ، وجاء أبى وشين فى تلك اللحظة قاصدين بجواديهما الى مخزن الحاصلات .

ودخلا حين كانت تضع الطعام على المائدة . وجلسنا جميعا ، وكان اليوم اشبه بيوم اجازة ، لا لانه لم يكن يوم عمل : سب ، ولكن لان اولئك الكبار السن كانوا يتحدثون معا فى خفة وسرور ، وقد عزموا ألا يدعوا مسألة فنتشر تفسد علينا أوقاتنا السعيدة .. وكان أبى بآدى الرضا عما حدث بالبلدة ..

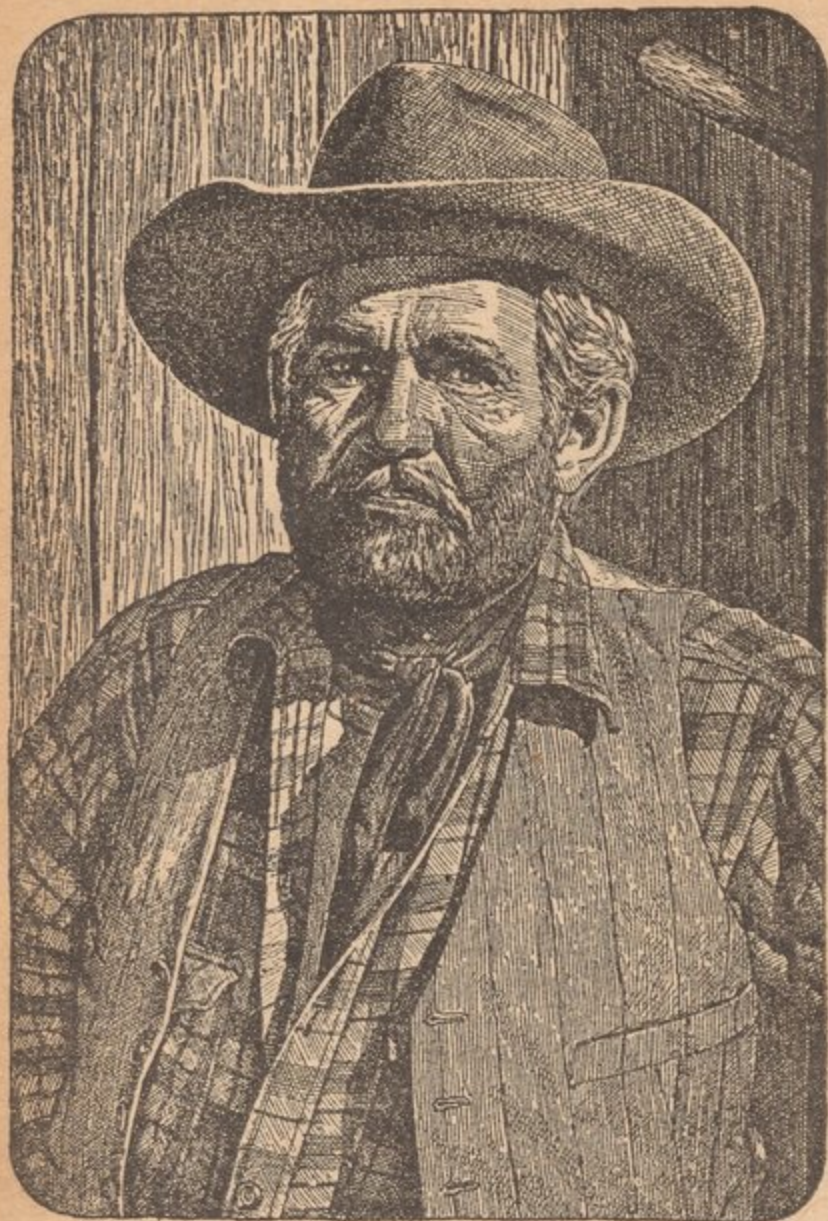
وقال ونحن عند ختام الغداء : اجل يا سيدى .. لقد كانت جنازة ارنى جنازة فاخرة حقا . ولو كان يشعر بها لقدرها حق قدرها .. وقد القى جرافتون خطاب رثاء حسنا ، واعتقد انه يعنى ما يقوله حقا .. وقد امر « وير » كاتبه بأن يعد تابوتا جيدا ، ولم يرض ان يقبض ثمناله .. وشرع سيمز الذى يشتغل بالمتجم ، فى اعداد حجر طيب للقبر .. وهو ايضا لم يقبل اى مقابل . وقد دهشت ايضا لكثرة المشيعين . ولم تكن تسمع من احدهم كلمة طيبة عن فلتشر .. ولا يقل عددهم عن ثلاثين شخصا .

فقال شين : بل كانوا اربعة وثلاثين ، فقد احصيتهم .. انهم لم يكونوا يشيعون رايت فحسب ، يا ماريان .. ولو كان هذا هو الغرض الوحيد لما جاء بعضهم .. وانما كانوا بمجيئهم بدون تأييدهم لرجل معين يدعى ستاريت ، وقد القى خطابا رائعا .. ان زوجك هذا قد كسب لنفسه مكانة كبيرة كمواطن ، فى هذه الارزاء . ومتى كبرت البلدة ، ونظمت امورها ، فسيكون له شأن فيها ، واذا انفسح الوقت امامه ، فقد يصبح عمدتها . فحبست ابنى انفاسها وشهقت ، وكررت ببطء هذه الكلمات : اذا .. انفسح .. الوقت ..

ونظرت الى شين نظرة تجلى فيها الرعب ، وقد ولت الطمأنينة .. ذلك انه قبل ان يتاح لاحد منا ان ينطق بكلمة ، كانت الحياض تدخل الى فناء الدار !

وجريت الى النافذة لارى .. ومن عجب ان شين لم يسبقنى اليها وهو اليقظ المتربص ، بل كان بدلا من ذلك قابعا فى كرسيه وقد دفعه الى الوراء ، وتكلم برفق فقال :

— لا بد ان هذا فلتشر قد جاء يا حو ! لقد نمى اليه كيف تلقت البلدة مقتل ارنى ، فايقن انه ينبغى له الاسراع فى العمل ... ولكن هون عليك .. انه يلعب الآن ضد الزمن .. بيد انه لن يجازف ها هنا !



« وقد بدا جسمه يترهل، ووجهه يكتنز باللحم ،
وكانت ملامحه تنم عن مكر وعزيمة . »

فاوما أبى الى شين ، ومضى الى الباب . وكان قد خلع حزام
المسدس حين جاء وعلقه بالمسامير التى على الحائط . والآن أخرج
منه المسدس ، وأمسك به فى يده اليمنى وقد جعل فوهته الى تحت
.. وفتح الباب وخرج الى الشرفة (السقيفة) ثم الى الخارج أمام
الدار ، وتبعه شين فى هدوء ، حتى اذا وصل الى الباب وقف مستندا
اليه بميل ، مسترخيا يترقب . وكانت أمى واقفة بجوارى
بالنافذة تحمق الى الخارج ، وهى تجمع أطراف منظرها فى يدها .

وكان القادمون أربعة : فلتشرو ويلسن فى الطليعة ، وخلفهما
أثنان من رعاة البقر . وقد وقفوا جيادهم على بعد عشرين قدما
من الدار . ولم أكن قد رأيت فلتشر منذ سنة تقريبا . وكان
رجلا طويل القامة ، ولا شك أنه كان وسيما فى شبابه حسن
الهندام ، بادى الصلف ، له وجه حليق ينتهى الى لحية سوداء
مدببة ، وله عيانان براقتان . وقد بدأ جسمه يترهل ووجهه يكتنز
باللحم . وكانت ملامحه تنم عن مكر وعزيمة . ولا أذكر أنى لمحتهما
عليه من قبل ..

أما ستارك ويلسن فإنه رغم ما وصفه به فرانك تورى من حسن
المظهر ، كان نحيل الجسم سليم البنيان . وكان جالسا على برذعة
جواده فى كسل ، غير أن جلسته هذه كانت لاتخذع أحدا . وكان
لا يرتدى سترة ، وكان مسدسا يتأرجحان دون قيد .. وكان
يبدو عليه الثقة بالنفس والخطر وقد طبق شفتيه بشكل يدل على
العزيمة كما يدل على ازدرائه لنا!

وكان فلتشر يبتسم فى لطف .. وكان موقنا أن بيده أوراق
اللعب .. وأنه سيلعب بها كما يشاء .. وقال لابی :

— آسف لازعاجك يا ستايريت عقب ذلك الحادث المؤسف الذى
وقع الليلة الماضية .. وكنت أودلو أمكن تفاديه .. كنت أود ذلك
حقيقة .. ان اطلاق الرصاص ليس ضروريا فى هذه المسائل ،
هذا اذا كان للناس قدر من الذكاء .. ولكن ما كان يجدر برايت أن

يصف المستر ويلسن هذا بأنه كذاب ! لقد كان هذا خطأ منه !
فقال أبى باقتضاب : أجل كان هذا خطأ منه .. ولكن «ارنى»
اعتاد أن يقول الحق دائما ..

ورأيت ويلسن عندئذ وقد مد قامته وأطبق شففيه . ولكن
أبى لم ينظر اليه ، واستطرد يقول :

— هات ماعندك يافلتشر ، وابتعد عن أرضى !

وكان فلتشر لا يزال يبتسم ، فقال :

— لاداعى لان نتشاجر ياسنارىت . ان ماحدث قد حدث ..
فدعنا نأمل أن لا يقع شيء مثله مرة أخرى .. لقد رببت الماشية
فى مزارع كبيرة ، فأنت تقدر موقفى الآن .. انى سأحتاج الى
كل الاراضى التى فى هذه الناحية ، من الآن فصاعدا .. ولو فرضنا
أنى لست محتاجا اليها ، فأنى لا قدر أن ادع جماعة من اصحاب
العشش يأتون الى هنا تباعا ، ويحولون بينى وبين حقوقى فى
ماء الرى !

فقال له أبى : لقد تكلمنا فى ذلك من قبل .. وأنت تعرف
موقفى . فإذا كان لديك شيء جديد تقوله ، فهيا تكلم واتنه
منه ...

— حسنا ياسنارىت .. اليك ما أقترحه : انى أرتاح الى طريقتك
فى انجاز الاعمال .. ان لك بعض أفكار غريبة عن تربية الماشية ..
ولكنك اذا عالجت عملا ما ، كان لك الجلد على اتمامه كما ينبغى
... وأنت وذلك الرجل الذى عندك اثنان يمكننى أن أنتفع بهما
.. وأنا أريد أن تكون فى صفى ... وسأخلص من مورجان وأريد
أن أجعلك بديلا منه على رأس الاجراء . وقد أدركت مما سمعته
عن رجلك هذا أنه يصلح لان يكون رئيسا من الطراز الاول ليشرف
على العمال فى الطرق ... وهذا المركز له .. وما دمت قد وضعت
يدك على هذه الارض ، فأنى سأشتريها منك . واذا شئت أن
تبقى فى هذه الدار فإن ذلك يمكن ترتيبه . واذا شئت أن تلعب

بقطيعك الصغير من الماشية ، فإن ذلك يمكن تدبيره أيضا . ولكن
أريد منك أن تشتغل لى ..

وقد دهش أبى من ذلك ، اذ لم يكن يتوقع شيئا من هذا
القبيل . وتكلم برقة مع شين وراءه . ولم يستدر او يحديصره
عن فلتشر ، ولكن صوته كان واضحا اذ قال :

— أددع الدور لك ياشين ؟

فقال شين : أجل ياچو !

وكان صوته أيضا واضحا مسموعا ، ومع رفته كان ينم عن شيء
من الكبرياء ..

ووقف أبى ثمة فوق السقيفة وقد استطالت قامته . وكان
يحملق فى فلتشر .. ثم سأله :

— والآخرون ؟ جونسون وشيبستد والباقون ؟ ماذا عنهم ؟

— سيضطرون الى الرحيل من هنا .

فلم يتردد أبى فى الجواب وقال على الفور : كلا !

— سأعطيك ألف دولار ثمنا لهذه الارض بما عليها الآن ، و هذا
أقصى مبلغ أعرضه !

— كلا !

وانقبضت أسارير وجه فلتشر من الغضب ، وبدأ يستدير فوق
جواده نحو ويلسن ، ولكنه كظم غيظه وعاد يبتسم ابتسامته
الماكرة المغتصبة وقال :

— لافائدة ترجى من التعجل يا ستاريت ... انى سأرفع المبلغ
الى ألف ومائتين . وهذا أفضل لك كثيرا مما تجنيه لو بقيت على
عنادك . ولا أريد أن ألتقى منك جوابا الآن . بل أتركك تفكر فى
الامر حتى الليلة . . . وسانتظرك فى محل جرافتون لاسمع منك
صوت العقل ..

وأدار جواده ومضى .. واستدار راعيا البقر ليلاحقا به فى الطريق ،

أما ويلسن فإنه لم يتبعه على الفور، بل مال إلى الإمام فوق ظهر جواده ، ونظر إلى أبي نظرة سخرية ، وقال له :

— أجل يا ستاريت .. فكر في الأمر ... انك بالطبع لا تحب أن يستمتع أحد سواك بهذه الدار التي لك .. ولا بتلك المرأة التي تنظر من النافذة ..

وكان قد أمسك بأحدى يديه زمام الجواد ليمضي به ، ولكنه ترك الزمام فجأة في انتباه شديد .. ولا بد أنه قد رأى ملامح أبي في تلك اللحظة، ونحن لم نرها، أنا وأمى لان أبي كان يدير لنا ظهره ، ولكننا رأينا يده تطبق على المسدس الذي بجانبه .

فصاح شين بأبي : دعك من هذا يا جو !

وأسرع إلى جانب أبي ، ثم مضى في حركة يسيرة ثابتة، فهبط الدرج ومشى حتى صار إلى يمين ويلسن وهو لا يزال فوق جواده ، ووقف على مسافة ست أقدام منه . وبانت الحيرة على ويلسن ، واختلجت يده اليمنى ثم سكنت إذ وقف شين ، ورأى ويلسن أنه لا يحمل مسدسا .

وصعد شين فيه بصره ثم قال له بلهجة ازدراء :

— انك تتكلم كالرجال بفضل ذلك الحديد اللامع الذي تحمله ! .. هيا انزعه لترى نفسك وقد صغرت فصرت في حجم الغلام ! .

وكانت هذه الجراءة وحدها كافية لان يجمد ويلسن في مكانه لحظة .. وهنا تدخل أبي قائلا شين ! دعك من هذا !

وولت دلائل الشر من وجهه وويلسن وابتسم لشين وقال : انت في حاجة إلى أحد يرعاك !

ثم جذب زمام جواده وجعله يرمح لكى يلحق بفلتشر والآخرين الذين سبقوه في الطريق .

وعندئذ فقط شعرت بيدي أمى تضغطان كتفى حتى ألتنى . ثم سقطت في كرسي وأمست بى . وكنا نسمع أبي وشين وهما يتحدثان في الشرفة . . .

وقال شين : انه كان يصيبك يا جو قبل أن ترفع مسدسك !

— وأنت أيها الاحمق المجنون !

كان أبى يدارى عواطفه بالتظاهر بالحنق ، واستطرد يقول :

— لقد تركته يسيء اليك لاشيء سوى أن تعطينى فرصة للتغلب

عليه !

وقفزت أمى من مكانها ودفعتنى جانبا . وصاحت بهما من معبر .

الباب :

وأنتما كلاكما أنتما ستأتیان حماقة لانه قال تلك الكلمة عنى :

يجب أن تعلمنا أنى أقدر أن أصبر على الإهانة كما تصبران ، اذا

تطلبت الحال ذلك !

فنظرا اليها مشدوهين . وقال لها أبى معترضا بلطف ، وهو

يدنو منها : ولكن يا ماريان ، هل هناك باعث أقوى من ذلك عند

أى رجل ؟

وقال شين برفق : أجل ' . . أى باعث أقوى من هذا ؟

ولم يكن فى هذه اللحظة ينظر الى أمى وحدها ، بل الى أبوى

كليهما معا . .

الفارس القديم

بیت عالی نظام

لست أدري كم من الوقت كانا سيمكثان في الشرفة في نشوة تلك اللحظة ، لولا أن قطعتهما عليهما ، بسؤال حسبته وقتئذ بسيطا ولم أدرك معناه وخطره الا بعد أن سألته، فقد قلت لأبي :
— ماذا نويت أن تقوله لفلتشر هذه الليلة يا أبي ؟

فلم يجب ، ولم تكن ثمة حاجة الى جواب . واحسبني كنت قد بدأت أكبر وينضج مني العقل . . فقد عرفت ماذا سيقوله أبي لفلتشر . . وعرفت أيضا أنه كعهدى به ، سيذهب الى محل جرافتون ويدلى بجوابه الى فلتشر ! وأدركت لماذا صار كل من والدي لا يقدر أن ينظر الى صاحبه ، وشعرت بأن النسيم الذي يهب من الحقول الناعمة بأشعة الشمس ، قد أضحى — على غرة — باردا ، خاليا من البهجة !

لم ينظر أحدهما الى الآخر ولا تبادلا كلمة . . ولكني مع ذلك أدركت ادراكا خفيا أنهما قد صار كل منهما أقرب الى صاحبه في سكون الشرفة ، منهما في أى وقت مضى . لقد عرفا نفسيهما ، وعرف كل منهما أن الآخر يدرك حقيقة الموقف كله . وقد علما أن فلتشر قد ضمن لنفسه الربح ، اذ قطع على أبي خط الرجعة في لعبة لا يمكن أن يفر منها . . وقد أيقنا أن الكلام لا معنى له مادامت معرفة الحقائق شائعة بينهما . . وقد ربط بينهما الصمت بشكل يعجز عنه كل كلام . .

وجلس أبي على الدرجة العليا من درج الشرفة . وأخرج غليونه وسحب من الانفاس بقدر ما أشعله عود الثقاب من الطباقي ، وكانت عيناه تنظران الى الأفق ، وإلى الجبال التي وراء النهر . وأخذ شين الكرسي الذي كنت أستخدمه في اللعب مع والدتي ، ثم وضعه الى جانب الحائط وانحنى فجلس عليه بتلك الحركة اللاشعورية التي ألفها ، ثم جعل هو أيضا ينظر الى بعيد . . ودخلت أمي الى المطبخ، وأخذت

تنقل الآتية من فوق المائدة وكأنها لا تعي حقا ما تفعله ..
وساعدتها في غسل الأطباق ، دون أن أشعر بسرورى المعتاد
لمشاركتها في العمل ، ولم يبق فى المطبخ من صوت سوى صوت
خريف الماء ووقع طبق على طبق .

ولما فرغنا مما نحن بسبيله، ذهبت الى أبى، وجلست بجواره
على الدرجة ، ووضعت يدها على الحاجز الخشبي الذى
بينهما ، وغطى يدها بيده، ومضت اللحظات بطيئة فى موكب الزمن !
وشعرت بالوحدة فصرت أطوف فى أنحاء الدار ، دون أن
أجد ما أفعله ، ثم ذهبت الى الشرفة ومررت بأولئك الثلاثة
وأنا ذاهب الى مخزن الحاصلات . وبحثت هناك فوجدت يد
مجرفة قديمة ، وأخذت أصنع لنفسى بالمطواة سيفاً من الخشب
لألعب به . وكنت أفكر فى هذا منذ بضعة أيام . ولكنى الآن
لم أعد أهتم به .. وسقطت قطع الخشب الصغيرة على الأرض،
وبعد برهة رميت يد المجرفة معها .. ان كل شيء حدث فى
الماضى ، بدا لى فى هذه الساعة بعيدا وكأنه من حياة أخرى !
ولم يبق من شيء ذى بال سوى طول الظلال وهى تزحف فى
فناء المخزن مع هبوط الشمس عصرا فى صحن السماء ..
ثم تناولت فأسا وقصدت الى بستان أمى حيث كانت
الأرض قد يبست حول الفت، وهو الثمر الوحيد الذى لم يجن
بعد . ولكن لم تكن بى رغبة شديدة فى العمل . ومكثت
« أعزق » حتى أتممت صفيين ، ثم سقطت الفأس من يدي
فتركها حيث هى على الأرض .. ثم قصدت الى واجهة الدار
فوجدتهم لا يزالون جالسين كذى قبل .

وجلست على الدرجة التى تحت الدرجة التى جلس عليها
أبى وأمى ، بحيث صرت بينهما، وصارت أرجلهما حولى فأرتحت
الى ذلك .. وشعرت بيد أبى فوق رأسى ، وما لبث حتى
قال لى :

— لقد كان وقع هذا الامر شديدا عليك يا بوب !

واستطاع أن يكلمنى لانى لم أكن الا طفلا . . ولكنه كان فى الواقع يحدث نفسه . واستطرد يقول :

— انى لا أدرى كيف تكون الخاتمة . ولكنى أستطيع أن أتوقع هزيمة ويلسن ، وبذا ينتهى الامر . . وسوف يدحر فلتشر ، وأن البلدة لكفيلة بذلك . . انى لا أقدر أن أغلب ويلسن لأول وهلة . . ولكن جسمى الثقيل هذا سوف يبقينى على قدمى حتى أقهره . .

وتعلمت أمدى فى مقعدها ثم عادت الى سكونها ، وأردف أبى يقول :

— ان الامور قد تسوء . . ولكن مما يدعو الى طمأنينة الانسان ، أن يوقن أنه مهما يصبه ، فان هناك من يرفع أسرته خيرا منه . .

وعندئذ سمعنا صوتا حادا وراءنا على الشرفة . فقد وقف شين بغتة فارتطم كرسيه بالجائط ، وتقلصت يداه ، وارتعشت ذراعاها ، وشحب وجهه من أثر الجهد الذى يهز كيانه .

وكان يكافح الما مستقرا فى نفسه ، وقد نمّت عيناه عما يكابده من أفكار لا يستطيع الفكاه منها ، وبدأت دلائل ذلك واضحة عليه دون أن يبالى . ومضى فى سبيله مارا بنا الى ركن الدار .

وقامت أمدى وجرت حتى لحقت به . ووقفت بغتة عند ركن الدار مستندة الى الخشب وهى تلهث وقد بان عليها التردد . ثم عادت فى خطى متمهلة وقد مدت يديها كأنها تخشى الوقوع على الأرض . ثم عادت فجلست على الدرجة بجوار أبى فضمها اليه بذراعه الضخمة .

وساد الصمت الوادى كله ، وزحفت الظلال فى الفناء ، حتى لمست الطريق ، ثم بدأت تندمج فى ظلال أشد عتمة ، دليلا على أن الشمس تنحدر وراء الجبال البعيدة . ونصبت أمدى قامتها

ووقفت ، فوقف أبى كذلك ، وأمسك بذراعيها وهى تواجهه ،
وقال لها :

— انى أعتمد عليك ياماريان لكى تعاونه على الظفر مرة
أخرى . اذا كان فى امكان أحد أن يعاونه فهو أنت !

وابتسم ابتسامة عجيبة حزينة ، ووقفت ثمة مديد القامة
الى جانبى ، فبدا لى أعظم رجل فى العالم .

واستطرد يقول : لا أريد لنفسى عشاء الآن يا ماريان ..
ويكفينى فنجان قهوة .

ودخلا من الباب معا .

وأيمن كان شين ؟ لقد هرعت الى مخزن الحاصلات ، ولما
اقتربت منه رأيت شين عند المرعى ، وكان ينظر فوقه وفوق
العجول الراعية ، الى الجبال العظيمة الموحشة وقد كست
الشمس هاماتها غطاء من ذهب وهى تنحدر الى ما وراءها .
واذ كنت ارقبه ، رأيته يمد ذراعيه الى فوق ؟ حتى وصلت
أصابع يديه الى أقصى مداها ، وكأنه يحاول ان يمسك بتلك
الروعة المتوهجة فى السماء .

ثم استدار ورجع بخطى طويلة منتظمة وهو مرفوع الرأس .
وكان به ايمان جديد خفى لا يتبدل . ولما اقترب رأيت على
وجهه سمات الهدوء والطمأنينة ، وفى عينيه امارات الارتياح
وقال لى :

— ادلف الى الدار ايها الغلام بوبى .. وابتسم فان كل
شئ سيكون على ما يرام .

ثم مر بى دون أن يبطىء من سيره ودخل الى المخزن الحاصلات .
ولكنى لم أقدر أن اذهب الى الدار ، كذلك لم أجرؤ على
متابعته بعد أن قال لى أن اذهب الى البيت . وتملكنى تأثر
عجب . أنا واقف أنتظر بجوار السقيفة وأرقب باب المخزن .

ومرت الدقائق تترى ، وزاد الشفق دكنة ، ونفذ بصيص
من نور من الدار اذ أشعل مصباح المطبخ . ومازلت واقفا أنتظر
ثم جاء نحوى مسرعا ، فحملت وحملت ، وجريت الى داخل
الدار والدم يدق فى عروق راسى ، وصحت قائلا :

— أبى ! أبى ! ان شين قد أخذ مسدسه !

وجاء فى أثرى ، ولم يكد أبى وأمى يرفعان بصريهما وهما
جالسان الى المائدة ، حتى كان واقفا بمدخل الدار . وكان
بنفس الزى الذى جاء به أول مرة ودخل فى حياتنا ، ذلك
الزى الذى له روعة الدكنة والقدم ، من القبعة السوداء بحافتها
العريضة المثنية ، الى الحذاء الاسود الناعم . ولكن الذى يلفت
النظر ، هو وميض البياض الوحيد وسط تلك الدكنة ،
وهو طبقة العاج فوق مقبض المسدس ، وقد تعارضت بشكل
حاد ظاهر ، مع لون السراويل الداكنة . وكان حول وسطه
حزام الرصاص المزركش ، مرفوعا الى اليسار فوق جنبه ،
ومنخفضا الى اليمين ليحمل القراب المستقر على طول الفخذ ،
ومقبض المسدس — كما سبق أن قال لى — فى منتصف المسافة
بين المعصم والكوع من ذراعه اليمنى ، وقد تركه مسترخيا
متاهبا !

الحزام والقراب والمسدس ! ان هذه الاشياء لم يكن يلبسها
أو يحملها ، بل كانت جزءا منه ، جزءا من الرجل نفسه ، ومن
الكيان الكامل لتلك القوة المتجانسة التى تمثلت فى شخص شين !
وكنت ترى الآن ، لأول مرة ، ان هذا الرجل الذى كان يعيش
معنا ، والذى كان فردا منا ، قد أصبح كاملا ، وأصبح هو
نفسه فى مظهر كيانه النهائى .

والآن وقد خلع عنه ثياب العمل غير المحكمة ، بدا انحف
من قبل ، يكاد يكون نحىلا ، كما رايتاه أول يوم . ولم يكن
هذا كل ما هنالك من تغير ، بل أن ما كنا نحسبه حديدا ، قد
عاد صلبا ! وكان نحوله نحول سلاح من فولاذ مسقى له حد

بالغ المضء .. وهكذا وقف بالباب نحىلا داكنا فبدا كأنه
يملا فراغه .

ان هذا لم يكن شين الذى نعرفه . ولكنه مع هذا هو !
وتذكرت قول ادھويلز ان هذا الرجل هو أخطر رجل رآه فى
حياته . وتذكرت فى نفس الخاطرة أن أبى قد قال أنه آمن
رجل حل بدارنا . وأدركت أن كلا منهما كان على صواب ، وان
هذا ، أخيرا ، هو شين !

وكان الآن قد دخل الحجره ، يتكلم مع والدى كليهما بلهجة
المباشطة التى كان يتخذها نحوأمى وحدها ، قائلا لهما :

— يالكما من والدين بارعين لم تطعما بوب بعد ، بل تخدعانه
عن عشاء دسم ، وتحرمان نفسيكماياه كذلك ! ان لدى مهمة صغيرة
أقضيها فى البلدة .

وكان أبى يرمقه مليا وقد غاض الامل الذى كان قد أشرق به
وجهه . وقال له :

— كلا ياشين .. ان هذا لا يكون ... ان مجرد تفكيرك فيه هو
أعظم صنيع أداه رجل لى . ولكنى لى أدعك تفعل هذا ، فانه من
شأنى أنا ... ان فلتشر انما يقصدنى بلعبته هذه ، فلا مجال
للكوص .. انه شأنى وحدى .

فقال له شين برفق : هذا موضع خطئك ياچو .. ان هذا
عملى أنا ... انه من نوع العمل الذى أعرفه .. لقد نعمت حينما
بالعمل فى الزراعة ، وأنت قد أريتنى معنى جديدا للحياة ، وانى
لفخور بأنى ربما أبديت كفاءتى فى هذا العمل فترة من الزمن ..
ولكن هناك أشياء أخرى لا يقدر المزارع أن يباشرها ...

وكان الجهد الذى عاناه أبى عصر ذلك اليوم قد بدأ يظهر أثره .
فقام من المائدة وصاح قائلا : رباہ ! كن عاقلا ياشين ...
لا تصعب الامر على ! انك لا يمكنك أن تفعل هذا !

فاقترب شين من أبى ، الى جانب المائدة ، وقال لأبى : هون
عليك ياچو .. لقد جعلت هذا الامر من شأنه !



« وقبل أن يتحرك أبى ، ضربه شين فى سرعة
خاطفة بقصبة المسدس على جانب رأسه . »

— كلا . . انى لن أدعك . . افرض أنك أزحت ويلسن من الطريق بالفعل . . . ان هذا لن يفض المشكلة بل يزيد من بواعثها ويسوى الأمور فوق سوئها . . فكر فيما يعنيه ذلك بالنسبة لك . ثم ماذا يكون موقفى بعده ؟ انى لن أقدر ان أرفع رأسى فى هذه الانحاء . . بل سيقولون انى جبننت ، وسيكون قولهم حقا . . انك لن تفعل هذا . . وهذه آخر كلمة أقولها .

فقال شين بلهجة أرق من قبل ولكنها تنم عن عزيمة : لن أفعل ؟ ! ليس فى العالم كله من يقدر أن يقول لى مالا ينبغى لى أن أفعله ! حتى ولأنت يا جو آ لقد نسيت انه لا تزال هناك وسيلة !

وكان يحدث أبى ليشغله . . واذا كان يكلمه أمسك بالمسدس فى يده ، وقبل أن يتحرك أبى ، ضربه فى سرعة خاطفة بقصبة (ماسورة) المسدس على جانب رأسه ، خلف العارض ، وفوق الاذن .

وكانت الضربة قوية فسمع وقعها فوق العظم ، وارتدى أبى على المائدة ، فمالت تحت ثقله وسقط نحو الارض . ولكن ذراع شين كانت تحته قبل أن يقع ، ووقع شين جسم أبى الذى فقد وعيه ، ثم وضعه على الكرسي وأعاد المائدة الى مكانها ، فسقطت فناجين القهوة على الارض بصوت مسموع . وارتدى رأس أبى الى الوراء فأمسك شين به وعدله ، ومال بكتفيه الى الامام حتى استند الى المائدة وقد جعل رأسه فوق ذراعيه .

ووقف شين معتدل القامة ونظر فوق المائدة الى أمى . وكانت لم تتحرك من مكانها منذ ظهر بمدخل الدار ، لم تتحرك حتى حين سقط أبى ومالت المائدة تحت يديها على طرفها ، وكانت ترقب شين ، وقد تقوس جيدها فى شكل خط جميل فاخر ، واتسعت حدقتا عينيها وبانت فيهما نشوة .

وكان الظلام قد شمل الوادى ، وكل منهما ينظر الى الآخر فوق المائدة ، ولم يكن ثمة من ضوء سوى ما ينبعث من المصباح الذى يتأرجح قليلا فوقهما ، محيطا اياهما بضوئه المتوهج ، وكانا وحدهما

فى تلك اللحظة التى كانت لهما دون غيرهما ، ولكنهما حين تكلمتا ،
كان كلامهما يدور حول أبى •

وتتم شين قائلا : لقد خفت أن يتجه تلك الوجهة • • ، فانه
ما كان ليتخذ وجهة أخرى ويبقى جوستاريت !

- انى أعرف

- انه سيرقد مستريحا ثم يفيق وعنده شىء من الدوار ، ولكن لا بأس !
قولى له ياماريان • • قولى له ان أى رجل لا يخجل اذا ضربه
شين !

وطرق اسمه اذنى غريبا ، وهو ينطقه ويتحدث عن نفسه • وكان
ذلك اذنى شىء الى التفاخر سمعته منه • • • ولكنه انما كان يقرز
أمرا واقعا ، بسيطا بديها ، كالقوة الكامنة فيه •

وقالت أمى مرة أخرى : انى أعرف • • ولا حاجة لان أخبره • •
انه هو أيضا يعرف ذلك • وقامت من مكانها جادة ، بادية العزم ،
واستطردت تقول : ولكن هناك شيئا آخر يجب أن أعرفه • •
لقد كنا نتبادل كلمات فيما بيننا ، ولا ضير فيها • والآن
لى الحق ان أعرف ، فان لى نصيبي فى هذا الامر أيضا • • • والذى
سأفعله يتوقف على ماتقوله لى الآن : هل أنت فاعل ذلك من أجل
فحسب ؟

فتردد شين لحظة طويلة ثم أجاب : كلا ياماريان •

وخيل الى أن نظرتة قد اتسع مداها وشملتنا جميعا ، أمى وجسم
أبى الممدد بلا حراك وأنا قابعا فى كرسى بجوار النافذة ، وكذلك
الحجرة والدار والمكان كله • ثم نظر الى أمى وحدها وكانت هى
وحدها كل ما يراه • واستطرد يقول :

- كلا ياماريان • أقدر أن أفردك وحدك فى ذهنى ، وأبقى
رجلا بعد ذلك ؟

ثم حاد ببصره عنها ، وحملق فى ظلمة الليل وراء الباب المفتوح ،
وتصلب وجهه اذ انتقل به الفكر الى ما ينتظره فى البلدة • ثم مضى
الى الظلام الذى بالحارج ، فى سر وهدهد حتى لا تكاد تشعر بأنه
كان يتحرك !

المعركة الفاضلة

ما كان لشيء أن يبقيني بالدار تلك الليلة • ولم يكن بذهنى شيء سوى الرغبة الجامحة فى اللحاق بشين الى البلدة • وانتظرت وأنا أكاد أحبس أنفاسى ، بينما وقفت أمدى ترقبه وهو ذاهب • انتظرت حتى التفتت لآبى ، وانحنى عليه ، وعندئذ أفلت من الباب الى الشرفة التى أمامه • وحسبت لحظة انها لحظت خروجى ، ولكن لم أكن واثقا من ذلك ، وهى لم تنادنى • وهبطت الدرج فى سكون ثم خرجت الى حرية الليل !

ولم يقع نظرى على شين • فمكنت فى الظلال المعتمة وأنا أنظر حولى • وأخيرا رأيته يخرج مرة أخرى من مخزن الحاصلات • وكان القمر قد بزغ فوق الجبال ، وكان هلالا ساطعا صافيا • وكان ضوءه كافيا لان أرى شين هيكلا حليا • وكان يحمل سرج الجواد • وشعرت بالآلم اذ رأيت معه كيس حوائجه (الخرج) • ومضى الى مدخل المرعى ، فى خطى لاهى بالبطيئة ولا بالسريعة ، ولكنها كانت ثابتة منتظمة ، وكانت كل حركة منه تنم عن ثقة كحركات القط ، وكان فيها الخطر المحتوم • وسمعتة ثمة عند المدخل ، يصفر صفيحه الواطى ، وسرعان ما خرج الجواد من الظلال عند الطرف القصى للمرعى ، ومضى دون أن يسمع لحوافره صوت وهى تضرب فى العشب ، وقد بدا فى ضوء القمر شكلا ضخما داكن اللون ، وانطلق فوق أرض الحقل الى صاحبه •

وعرفت ما ينبغى لى عمله ، فحشيت متلصصا على طول سياج الحظيرة ، أكاد ألتصق به ، حتى وصلت الى الطريق • وماكدت أبلغ ركن الحظيرة ، وقد صار المخزن بينى وبين المرعى ، حتى شرعت أجرى بكل سرعتى نحو البلدة ، وقدمائى تنغمسان برفق فى طبقة التراب التى بالطريق • وكنت أقطع هذه الطريق نفسها

فى كل يوم من أيام الدراسة ، ولم تبد طويلة قط كما بدت لى الآن! لقد امتدت المسافة أمامى ، وخيل الى أنها تطول وتطول ساخرة منى .

وما كنت لأدعه يرانى ، فصرت أنظر خلفى فوق كتفى وأنا أعدو الى الامام . ولما رأيته ينحرف نحو الطريق ، كنت قد مررت بدار جونسون ، وكدت أمر أيضا بدار شيبستد ، وبدأت أنطلق الى آخر مرحلة مكشوفة على حافة البلدة . ثم مرقت كالسهم الى جانب الطريق ، واختبأت خلف كتلة من الشجيرات وأنا ألهمت من التعب ، وانتظرت هناك حتى يمر . وسمعت وقع حوافر جواده وقد اشتد فى أذنى ممزوجا بدق دمى فى عروقى . . . وهىألى خيالى أنه يرمع فى عنف ، وأيقنت أنه قد تخطى المكان الذى كنت به . ولكن حين أزحت الغصون ونظرت الى الامام من خلالها ، رأيته يمضى بخطى معتدلة ولم يبعد عن مخبأى الا قليلا .

وبدا فى الطريق طويلا رهيبا ، بل لاح ضحما هائلا فى تلك الظلمة الخفية . . . لقد عاد الرجل الذى رأيته أول مرة ، غريبا ، ذاكن اللون ، خطيرا ، يشق طريقه الموحش من ماض مجهول ، فى وحدة كاملة ، ويتحد متأصل فى نفسه . . . لقد كان رمزا لكل التخيلات الغامضة ، عن الخطر والرعب ، فى عالم الامكانيات البشرية المجهولة ، التى تعلو على ادراكى . . . وكان وقع الوعيد المائل فيه كوقع ضربة تنزل بالجسم .

ولم يكن لى قبل بذلك ، فصرخت وتعثرت قدمى ووقعت على الارض . وسرعان ما نزل من فوق جواده وانحنى على قبل أن يتأاح لى القيام ، وأمسك بنى بقبضته القوية التى تبعث الطمأنينة . وصعدت بصرى فيه خائفا أبكى ، وإذا بالخوف يذهب عنى . . . انى لم أجده اذ ذاك غريبا عنى . بل كان ما اعترانى من أثر الظلال . . . لقد كان شين الذى أعرفه . . . وكان يهزنى برفق ويبتسم لى . وقال لى :

- يا بوبى . . . يا بنى . . . لا يخلق بك أن تخرج فى هذا الوقت ! هيا عد الى البيت وساعد أمك فى عملها . . . لقد قلت لك أن كل شىء سوف يكون على ما يرام !

وأزاح عني يده واستدار في بطنه وهو ينظر الى منحدر الوادي
القصى وقد شمله لجين من ضوء القمر . وقال لي :

- أنظر يا بوب ، وليع ذهنك هذا المنظر ! انها أرض رائعة
يا بوب . . . انها مكان صالح لغلام ينمو فيه وتنمو بنفسه
الرجولة !

وتبعت ببصري نظرتة . . ورايت واديسا وكأنى أبصره أول
مرة ، وكان فعل ذلك في نفسى أشد من أن أحتمله . وأحسست
بنفسى أختنق من التأثير فمددت اليه يدي ، ولكنه لم يكن هناك !
كان قد قفز الى ظهر جواده ، واندمج هو والجواد فصارا شكلا
واحدا يتحرك في الطريق نحو مربعات صفراء كانت رقعا من الضوء
تنبعث من نوافذ مبنى جرافتون على بعد ربع ميل . ووقفت لحظة
متريدا ، ولكن الاغواء كان قويا ، فنظرت وراءه ثم جريت وسط
الطريق وأنا في شبه جنون .

وسواء أسمعني أم لم يسمعني . فقد استمر في سيره . وكان
هناك عدة رجال بالسقيفة المستطيلة التي على واجهة البناء ، بجوار
أبواب الحانة . وكان يسيرا على أن أعرف «رد مارلن» من شعره .
وكانوا يتفرسون في الطريق باهتمام . ولما بان شين في الضوء
المنبث من النافذة الامامية الكبيرة ، تنبهوا جميعا ، ودخل ردمارلن
الى الحانة مسرعا وعلى وجهه أمارات الانزعاج .

ووقف شين ، لا أمام القضيبان التي تحدد السقيفة ، ولكن
بجوار الدرج الى جانب المتجر . ولما نزل من فوق جواده ، لم يفوت
الزمام فوق رأس الجواد كما يفعل فرسان البقر عادة ، بل تركه
معقودا فوق رمانة البردعة ، وكأنما أدرك الجواد معنى ذلك ، فقد
وقف بلا حراك ، قريبا من الدرج ، مرفوع الرأس ، متأهبا
لمقتضيات السرعة .

ومضى شين على طول السقيفة ثم وقف لحظة ، مواجه الرجلين
اللذين كانا لا يزالان واقفين . وقال لهما :

- أين فلتشر ؟

فنظر كل منهما الى الآخر ، والى شين . وبدأ أحدهما يتكلم
قائلا :

ولكن صوت شين أسكته ، فقد كان كأنه يلطمهما بدل أن يقع على أذانهما .. كان صوتا منخفضا له حدة تنفذ الى العقل .. وكور سؤاله :

- أين فلتشر ؟

فأشار أحدهما بيده نحو الابواب ، واذ تحركا ليعبدا عن طريقه ، قال لهما :

- أدخلوا ! واذهبوا توا الى البار قبل أن تلتفتا الى الورا ..

فحملقا فيه ثم تحركا فى قلق ، وتمايلا معا ليفتحا الابواب ، واذ تأرجحت وراءهما أمسك بهما شين ، بكلتا يديه ، وأخرجهما ودخل هو من خلألهما ..

وصعدت الدرج مضطربا متعثرا فى عجلتى ، ودخلت الى المتجر . ولم يكن فيه سوى سام جرافتون والمستر وير ، وقد رأيتهما مسرعين صوب الحانة ، ولشدة اشتغالهما لم يلحظا وجودى . ووقفا بمدخل الحانة فتسللت وراءهما الى مكانى المألوف فوق الصندوق ، الذى أجثم فوقه وأرى كل ما يدور .

وكانت القاعة الفسيحة مزدحمة بالناس . وكان هناك كل من اعتاد المجيء الى البلدة ، ماعدا جيراننا المزارعين . وكان ثمة أناس لا عهد لى بهم من قبل . وكانوا مصطفىين جنبا الى جنب على طول البار . وكانت الموائد كلها مشغولة وقد وقف أناس عند الحائط القصى . وكانت مائدة البوكر المستديرة التى فى الخلف ، بين السلم المؤدى الى الشرفة الصغيرة وبين باب مكتب جرافتون ، مغطاة كلها بالكؤوس وقطع البطاطس الصغيرة . ومن عجب أنه مع وقوف كل أولئك الرجال الذين لم يجدوا لهم مقعدا ، قد بقى كرسى خاليا عند طرف المائدة . ولاشك أن أحدا كان جالسا على ذلك الكرسى ، اذ كانت هناك قطع بطاطس وسيجار لم يدخن سوى شطر منه ، ودخان يتصاعد فى الهواء .

وكان ردمارلن مستندا الى الحائط الخلفى ، خلف ذلك الكرسى .

واذ نظرت ، رأى ذلك الدخان ، وبدأ عليه شيء من الفزع . ثم
تظاهر بعدم الاكتراث وجلس على الكرسي والتقط السيجار .
وكان ثمة سحابة من دخان رفيع عند السقف ، تظلم جميعا ،
وتطفو حول المصابيح المعلقة . . . وهكذا تبدو حانة جرافتون في
ذروتها مساء يوم رائج . ولكن كان هناك نقص ، أو كان هناك
شيء غير مألوف . فإن طنين الحركة ، وضجة الاصوات ، اللذين
كان ينبغي أن يرتفعا من ذلك المنظر ، كجزء منه ، قد سكتا
بشكل أفعل في النفس من أى ضوضاء . وتركز انتباه كل من
بالقاعة ، في ذلك الشخص الداكن الثياب الذى دخل
توا من الأبواب المتأرجحة .

لقد كان هذا هو شين المغامرات التى كنت أحلم بها له ، هادى
الاعصاب رابط الجأش ، كفنا قديرا ، يواجه تلك القاعة المملوءة
بالرجال ، فى بساطة وحدته ، وكمال ثقته بنفسه .

وكانت عيناه تفحصان القاعة بمن فيها . . . وقد استقرتا على
رجل جالس الى مائدة صغيرة فى الركن الامامى ، وقد أدلى قبعته فوق
جبينه . ودهشت اذ عرفت فيه ستارك ويلسن ، وكان يدرس
شين بنظرة حائرة . ومضى شين يجيل عينيه فى القاعة ويفحص
بهما كل شخص . ثم استقرتا ثانيا على شخص بجوار الحائط ،
وبدأت ابتسامة ترسم على شفتيه ، وأوما برأسه بشكل لا يكاد يلاحظ .
وكان هذا الشخص هو كريس بقامته الطويلة النحيلة وقد
علقت ذراعه برباط . واذ لمح ايماء شين احمر وجهه قليلا ، وتلمل
فى وقفته من قدم الى أخرى . . . ثم مد قامته وارتسمت على ثغره
ابتسامة بطيئة ، دافئة ، ودية . . . ابتسامة الرجل الذى استقر رأيه
على شيء أخيرا

غير أن عيني شين كانتا تجولان فى بقية القاعة . وقد ضاقت
حدقتاهما حين رأى «رد مارلن» . ثم انتقلتا الى ويل اتكى وقد
تضاءل خلف البار .

وقال له شين : أين فلتشر ؟

فعبث ويل بفوطة يديه وقال :

— أنا .. لا أدري .. لقد كان هنا قبل برهة .

وكأنما خاف ويل من ارتفاع صوته وسط ذلك السكون الشامل، فترك فوطته تسقط ، ثم انحنى ليلتقطها وقد أمسك طرف البار بيديه كيلا يقع ..

ومال شين برأسه قليلا حتى يرى بعينه تماما تحت طرف قبعته . وكان يفحص بهما الشرفة التي خلف القاعة . وكانت خالية ، وأبوابها مغلقة . ثم خطا الى الامام ، دون أن ينظر الى الرجال الواقفين عند البار ، ومر بهم في هدوء عبر القاعة . ثم ولج الردهة المؤدية الى مكتب جرافتون ، ومنها الى العتمة التي وراءها . ومع هذا ظل السكون شاملا . ثم عاد الى مدخل المكتب ثانيا ، واتجه بعينه الى « رد مارلن » وقال له :

— أين فلتشر ؟

كان السكون لا يحتمل ، فكان لابد من قطعه . وقد قطعه صوت ستارك ويلسن وهو يقف على قدميه في ذلك الركن القصي . وتردد صوته في القاعة ، وقحامتانيا : اذ قال :

— وأين ستاريت ؟

وكانت هذه الكلمات لا تزال في جو القاعة حين خطا شين نحو الامام .. وكان ويلسن قد تحرك أيضا من جانبه ، وقد عبر القاعة صوب الابواب المتأرجحة ، ثم وقف الى يسارها على بعد بضعة أقدام من الحائط . وصار بموقفه هذا مسيطرا على الممشى العريض الذي بين البار والموائد ، وعلى شين وهو ماض في هذا الممر .

ثم وقف شين بعد أن قطع ثلاثة أرباع الممشى، على مسافة خمس ياردات تقريبا من ويلسن ، ومال برأسه لحظة ليلقى نظرة على الشرفة ، ثم عاد ينظر الى ويلسن وحده .. ولم يكن مرتاحا الى الموقف ، فقد كان ويلسن محتما بالحائط الامامي، في حين كان هو في القاعة المكشوفة . وقد أدرك ذلك وقدره ورضى به .

ووقف أحدهما تجاه الآخر في ذلك الممشى ، بينما تدافع الرجال الذين كانوا عند البار ليصلوا الى الجانب الآخر من القاعة . وكانت ملامح ويلسن تتم عن عجرفة وثقة بالنفس واطمئنان الى الموقف . ولم يجهل خطر هذا الخصم النحيل ، ولكنه حتى هذه اللحظة ، كما اعتقد ، لم يكن يحسب أن أحدا في الوادى يجرؤ على مواجهته . وعاد ويلسن يقول :

آين ستاريت ؟

وكانت لهجته لا تزال تشوبها السخرية بشين ولكنه هذه المرة كان يقصد السؤال حقا .

ولم يبال شين هذا السؤال وكأنه لم يسمعه . وانما قال بلطف : ان لدي ما أقوله لفلتشرولكن يمكن ارجاء ذلك
انك عجول ياويلسن ولذا يحسن بى أن أريحك أولا ..

فقال ويلسن فى رزانة وبرود : ليس بينى وبينك خصومة ، حتى وان تكن رجل ستاريت .. فهيا أخرج من هنا دون ضجة ، وسأدعك تذهب .. انما أريد ستاريت !

— ان ماتريده وما ستحصل عليه ياويلسن ، شيئان مختلفان .. لقد انتهت أيام قتلك الناس !

وأدرك ويلسن أن الامر جد .. ان هذا الرجل الهادى يدفعه الى القتال كما دفع هو أرنى رايت من قبل . واذ قاس شين بناظريه ، لم يرتح كثيرا الى النتيجة .. وبان على وجهه شيء ليس من الخوف ، ولكنه أدنى الى العجب والكرهية ، ثم لم يجد مفرا فان ذلك الصوت الرقيق كان يدفعه الى اللحظة الحاسمة ..

وقال له شين : انى بالانتظار .. هل لابد لى أن أكرهك على القتال ؟

وكانما وقف الزمن عن السير ، ولم يبق فى الوجود سوى

هذين الرجلين ينظر كل منهما الى الفناء في عيني الآخر .
واهتزت القاعة بحركة مفاجئة، سريعة الى حد لا يصدق، وسمع
دوى الرصاص في قصفة واحدة . ووقف شين على قدميه ،
ثابتا كشجرة بلوط ممتدة الجذور، في حين كان ويلسن يترنح،
وقد تعلقت ذراعاه اليمنى الى جنبه فاقدة النفع ، وبدا الدم
يسيل في مجرى رفيع من خلال كفه فوق يده ، وسقط
المسدس من انامله التي شلت الحركة ..

واسند ظهره الى الحائط ، وقد تقلصت عضلات وجهه
وبان على ملامحه أنه لا يكاد يصدق ما حدث .. وانه متألم
له .. ثم ارتفعت يده اليسرى وظهر مسدسه الآخر . ولكن
شين عاجله برصاصة أصابت صدره ، فانشئت ركبتاه وانزلق
على الحائط ، وسقط جسمه الثقيل ، جانبا على الارض بلا
حرك وقد فارقتة الحياة .

ونظر شين عبر المسافة التي بينهما ، وبدا كأنه نسي كل من
عداه ، وهو يضع مسدسه في مستقره بالقرب ، وتتم بلهجة
تم عن حزن عميق : لقد أتحت له الفرصة !

غير انى لم أفقه لهذه الكلمات معنى، فقد لمحت على قميصه
البنى الداكن ، بقعة أكثر دكنة، تتسع رويدا فوق حزامه ،
الى جانب محبسه .. ثم لمحها الآخرون أيضا ، وبدت في الجو
حركة ، وعادت القاعة الى الحياة .

وكانت تسمع أصوات ، ولكن لم يهتم بها أحد . فقد
استكتتها طلقة من مؤخرة القاعة ، وبدا أن ريحا مست قميص
شين عند الكتف ، وتحطم زجاج النافذة الامامية عند قاعدتها .
ثم رأيت ما حدث ! وكان ذلك ميزتى وحدى ! فقد كان
الحاضرون ينظرون الى مؤخرة القاعة. أما أنا فكنت أرمق شين
وحده ، فرأيت رأيت الرجل يتحرك بكيانه كله ، في لحظة واحدة
خاطفة .. رأيت رأسه يقوده ، وجسمه يميل ، وقوة الساقين



« و بان علی ملامحه انه لا یكادی صدق ما حدث . . . و انه
متألم له . . . ثم ارتفعت یدہ الیسری و ظهر مسدسه الآخر »

الدافعة تحته .. رأيت ذراعه تثب ، ويده تمسك بالمسدس بسرعة البرق .. رأيت أنبوبة المسدس مستقيمة كأصبع يشار بها ، واللهب يومض ولم ينته الرجل بعد من تلك الحركة الخاطفة !

وهناك على الشرفة كان فلتشر ، وقد أصيب وهو يسدد مسدسه ليطلق منه طلقة ثانية ، وقد مال على عقبه وترنح في طريق الباب المفتوح خلفه ، ثم أمسك بقائمة الباب وجر نفسه الى الامام ، وخطا متعثرا الى الحواجز وحاول أن يرفع مسدسه . ولكن خارت قواه وسقط فوق الحاجز وقد سحبه معه في سقوطه .

ثم ارتفع صوت شين عبر القاعة التي شملها السكون ، وكأنه صوت آت من بعيد ، اذ قال : لعل هذا ينهى الامر ! ثم أخرج اسطوانة المسدس وأعاد تعبئته بالرصاص ، في حركة لاشعورية . وكانت البقعة التي على قميصه قد كبرت الآن وانتشرت على هيئة مروحة فوق حزامه ، ولكن لم يظهر عليه ما يدل أنه يعرف ذلك أو يكثرث له . وانما كانت حركاته بطيئة ، يعتورها اعياء لا يعترف به .. وكانت يدها ثابتتين ولكنهما كانتا تتحركان في بطء ، وقد سقط المسدس في قرابه بمجرد ثقله ..

وتراجع بظهره نحو الابواب المتأرجحة حتى لمسها بكتفيه ، وكان ضوء عينيه غير مستقر كذبالة شمعة توشك أن تنطفئ .. ثم حدث شيء عجيب وهو واقف هناك !

وكيف يتاح لاحد أن يصف ذلك التغير الذي اعتراه ؟ لقد عادت اليه حيويته من قرارة قوة ارادته الخفية، التي لاتنفد مواردها ! جاءت اليه زاحفة ، كمدد من القوة يسرى في جسده ، ويقاوم الضعف الذي اعتراه ، وسطعت تلك الحيوية في عينيه فعادت اليهما الحياة واليقظة . وتدفت في كيانه

فصار جياشا بتلك القوة المألوفة كدى قبل ، يتحدث بها كل نبض فيه ..

وواجه تلك القاعة الزاخرة بالرجال ، وقراهم جميعا بنظرة مكتسحة واحدة ، ثم تحدث اليهم بذلك الصوت الرقيق ، وبذلك الهدوء الذى لا يبارحه ، وقال :

— سأمتطى جوادى الآن ، ولن يتبعنى احد منكم !

ثم أدار لهم ظهره دون اكتراث، موقنا تماما أنهم سيصدعون بما أمرهم به .. وبان هيكله منتصبا رائعا وسط تلك الابواب وما يعلوها من ظلمة الليل . وبعد لحظة أغلقت وراءه بصوت ناعم كحفيف الشجر .

والآن زحرت القاعة بالحركة ، واجتمع رجال حول جثمانى فلتشر وويلسن ، وهم يتدافعون عند البار ويتكلمون فى هياج . ولكن احدا منهم لم يقترب من الابواب اكثر مما ينبغى .. بل كانت هناك مسافة خالية فى طريق الباب ، وكان احدا رسم خطأ لا يتعدونه .

ولم ابال ما كانوا يفعلون او يقولون . بل كان كل همى ان الحق بشين قبل فوات الوقت .. كان لابد لى ان اعرف ، وكان هو الوحيد الذى يمكنه ان ينبئننى .

وجريت خارجا من باب المتجر ، ولم يفت الوقت بعد ، فقد وجدته فوق جواده يهيم بالرحيل . فقلت بصوت منخفض لا يسمعه الذين بالداخل ، وانا فى حال من اليأس : شين ! ياشين ! فسمعنى ر جذب الزمام فاستدار الجواد جانبا ، وهرعت اليه ووقفت بجانب الركاب ونظرت اليه .

فقال لى : بوبى ! يا بنى ماذا تفعل هنا ؟

فقلت فى عجلة : لقد كنت هنا طول الوقت .. يجب ان تخبرنى .. هل كان ويلسن ..

وأدرك مايشغل بالي .. فقد كان دائما يعرف مايدور بظلمي
وقال : لقد كان ويلسن سريعا الى أقصى حد رأيته ..

فقلت وقد بدأت الدموع تنهمل من عيني : لا أبالي أن يكون
أسرع انسان في العالم . فانه مع هذا ماكان ليستطيع أن يصيبك
... بل كنت تسبقه الى الاصابة... لو أنك كنت مثابرا على
التدريب ... اليس كذلك ؟

فتردد لحظة ، ونظر الى من عل ، نظرة نفذ بها الى نفسي ،
وأدرك مايجول بخاطر غلام مثلي ، وما يمكن أن يعاونه على البقاء
سليم النفس في خلال سنى النمو المضطربة . وأجاب :
- بالتأكيد يا بوب .. أنه ماكان ليجد وقتا لاجراجه مستدسه
من قرابه !

وشرع ينحنى نحوى ، ويمد يده فوق رأسى ، ولكن الالم
اشتد به ، وقفزت يده الى قميصه فوق حزامه ، وضغط بشدة
ومال قليلا في موضعه .

وكان الالم الذى يحز بنفسى أكبر من أن أتحملة . ففترست
فيه صامتا ، واذ كنت غلاما لاحول له ، لم يسعنى الا أن أشيح
عنه بىصرى وأخفى وجهى فى جنب الحصان ..

ثم قال لى : يا بوب !

فقلت : نعم !

- أن الرجل هو كما خلق يا بوب ، ولا سبيل لتغيير طبيعته
... لقد حاولت ذلك وأخفقت ! ولكنى أحسب أن ذلك كان مقدورا
الى منذ اللحظة التى رأيت فيها طفلا ببشرته نمش ، عند حاجز
على الطريق ، وخلفه رجل صادق الرجولة يسنده ، ويعد له فرسا
لم تتح لطفل آخر .

- ولكن .. ياشين ..

- لارجعة فى القتل يا بوب .. وسواء أكان هذا خطأ أم صوابا ،
فإن الوصمة تلصق بالانسان فلا يستطيع منها فكاكا .. والامر

الآن فى يدك .. فهى اذهب الى أمك وأبيك ، ولتنشأ قويا مستقيم
الخلق ، ولتعتن بهما كليهما ..

— أجل يا شين .

— لم يبق سوى شىء واحد أؤديه لهما الآن .

وشعرت بالجواد يتحرك ، وكان شين يرمق الطريق والسهل
المكشوف ، وكان الجواد يطيع أمر الزمام الصامت .. لقد كان
ذاهبا بجواده ، وأدركت أن أى كلام أو أية فكرة لا يمكن أن يعوقه !
وكان الجواد الضخم قد بدأ يسير بخطوات ثابتة كتلك التى جاءت
به الى وادينا ، وعاد الرجل والجواد شبحا واحدا معتما فى
الطريق ، وهما يبعدان عن مدى الضوء المنبعث من النوافذ .

ونظرت وراءه حتى أجهدت بصرى ، ثم تبين لى على ضوء
القمر ، هيكله الفريد وهو يوغل فى الطريق . وبقيت فى وحدتى
أرقبه وهو يذهب خارجا من حدود البلدة ، ويصل الى نقطة
نائية من الطريق ، حيث تنحرف الى السهول التى وراء الوادى .
وجاء رجال الى السقيفة التى خلفى ، ولكنى لم أنتبه الا لذلك
الشبح المعتم الذى يزداد تضائلا وغموضا كلما بعد . ومرت سحابة
فوق القمر ، فدخل شين فى الظل الذى شمل الناحية ولم أعد أراه ،
ومرت السحابة وصار الطريق أشبه بخط رفيع عند الافق ،
وهكذا ذهب !

وعدت فتعثرت قدماى فوق درج الشرفة ، ونطيت وجهى
بذراعى لأخفى دموعى . وصارت أصوات الرجال حولى ضجة
لامعنى لها فى عالم موحش كئيب ، وكان المستر وير هو الذى عاد
بى الى البيت !

وَآخِرًا رَحَلْ !

كان أبى وأمى بالمطبخ ، كما تركتهما تقريبا . وكانت أمى قد
أدنت كرسيها من كرسي أبى . وكان جالسا معتدلا ، وعلى وجهه
امارات الاعياء ، وقد بانت بقعة كريهة حمراء على جانب رأسه .
ولم يأتيا للقائنا ، بل جلسا هلائين يرقباننا ونحن داخلان .

ولم يؤنبانى كما كنت أخشى ، وإنما مدت أمى يدها الى وجذبتنى
نحوها ، وتركتنى أتسلل الى حجرها كما لم أفعل منذ ثلاث سنوات
أو أكثر . وحملق أبى فى المستر وير ، ولم يقدر على أن يكون
البادىء بالكلام ، لما به من خوف !

وقال له المستر وير : - لقد انتهت متاعبك يا ستاريت !
فأوما أبى برأسه . وقال بصوت يدل على التعب : لقد جئت
لتنبئنى بأنه قتل ويلسن قبل أن ينالوه بسوء . انى عارف .. أنه
شين !

فقال المستر وير : قتل ويلسن ... وفلتشر !
ففرع أبى وقال : وفلتشر أيضا ؟ رباه .. أجل .. أنه
أهل لذلك !

ثم تنهد أبى ومر بأحدى أصابعه على الرض الذى برأسه ،
وقال : لقد بين لى بهذا الرض أنه يريد أن يعالج ذلك الامر
بنفسه .. وانى أقول لك يا مستر وير أن أنتظارى هنا كان أشق
الاشياء على نفسى .

فنظر المستر وير الى ذلك الرض وقال هذا حسبته !
الستمع الى يا ستاريت . ليس فى البلدة من رجل لا يعلم أنك لم
تمكث هنا بأرادتك ! وقليل من الناس من لم يفرحوا بأن شين هو
الذى ذهب الى الحانة الليلة !

وخرجت الكلمات من فمى بالرغم منى ، وقلت : حبذا لو
رأيتہ يا أبى ! لقد كان .. لقد كان ...

ولم توافنى الكلمة الملائمة فى البداية ، ثم استطردت قائلا :
كان بديعا يا أبى ! وما كان لو يلسن أن يصيبه لو أنه كان يتدرب ..
لقد قال لى شين ذلك !

فوقف أبى بحركة مفاجئة تقلقت منها المائدة وقال : قال
لك ؟ ...

ثم أمسك بالمستر وير من مقدمة سترته وقال له : رباه ..
لماذا لم تقل لى يارجل ؟ هل هوى اذن ؟

فأجاب المستر وير : أجل . أنه حى بلا ريب . لقد أصابه
ويلسن ، ولكن الرصاص لا يمكن أن يقتل هذا الرجل .

ولاحت منه نظرة حائرة واستطرد يقول : انى اتساءل
أحيانا عما أن كان أى شىء يمكن أن يقتله !

فهمز أبى وقال : واين هو ؟

فأجاب المستر وير : لقد رحل ! رحل ! .. رحل وحده دون أن
يتبعه أحد طبقا لمشيئته ، خرج من الوادى ولا يدرى أحد الى أين !
فسقطت يدا أبى الى جنبه ، وعاد فقع فى كرسيه . وتناول
غليونه فتكسر بين أصابعه ، وترك قطعه تسقط على الارض ، وجعل
يحملق فيها ذاهلا . وأنه كذلك اذا بنا نسمع وقع اقدام على
أرض السقيفة ودلف رجل الى المطبخ .

لقد كان كريس ! وكانت ذراعه اليمنى معلقة برباط ، وقد
احمرت وجنتاه وبان فى عينيه بريق شديد . وكان يحمل بيده
اليسرى زجاجة من شراب التوت الاحمر بالصودا ، ودخل مباشرة
ووضع الزجاجة فوق المائدة ، فأحدث صوتا ، وبدا كأنه ارتاع منه
.. وكان مرتبكا ، يكاد صوته يخذه ، ولكنه تكلم أخيرا فى ثبات
وقال :

- لقد أحضرت هذه الزجاجة لبوب .. انى بديل هـزيل
ياستاريت .. ولكن متى شفيت ذراعى فأنى أرجو أن تستخدمنى
فتقلصت عضلات وجه أبى ، وتحركت شفتاه ، ولكنه لم
يلفظ بكلمة . وكانت أمى هى التى تكلمت ، فقالت : لو علم شين
لسره ذلك منك يا كريس !

وظل أبى صامتا . وأدرك كريس والمستر وير من هيئته أن
أى شىء يقولانه ، لن يبعث فى نفسه العزاء . فاستدارا وخرجا
معا ، ومضيا بخطوات طويلة سريعة .

وجلست أنا وأمى نرقب أبى . ولم نستطع شيئا .. فقد كان
الامر مما ينبغى أن يكابده وحده ، وكان من السكون بحيث بدا أنه
لا يتنفس . ثم انتابه قلق مفاجىء ، فقام وأخذ يمشى فى الحجرة دون
غاية . وصار يحلق فى الجدران كأنها تكتم أنفاسه ، ثم مضى الى
الباب ، وخرج الى فناء الدار ، وسمعنا وقع خطواته حول البيت
وهو فى طريقه الى الحقول ثم لم نعد نسمع شيئا .

ولا أدرى كم من الوقت جلسنا هناك وانما أدرى أن فتيلة المصباح
قد احترقت وتذبذب ضوءها حينئذ انطفأ ، فكان فى الظلام راحة
لنا وعزاء ، وأخيرا قامت أمى ، وهى لا تزال تحتضنى وأنا الغلام
الكبير الجسم ، وقد دهشت لما بها من قوة .. لقد ضمتنى الى
صدرها بشدة ، ثم حملتنى الى حجرتى الصغيرة ، وساعدتنى على خلع
ثيابى فى ظلال ضوء القمر النافذ من الشباك ، ووضعتنى على السرير
والآن فقط همست فى أذنى قائلة ، الآن يا بوب ، خبرنى بكل ما حدث
كما رأيته .

فحكيت لها ، حتى اذا فرغت لم تزد على أن تمتمت قائلة :
شكرا لك !

ثم نظرت من النافذة وتمتمت بهذه الكلمة ذاتها ، ولم تكن
موجهة لى ، وكانت لا تزال تنظر فوق الاراضى الى الجبال الشاهقة
الشهباء ، حين غلبنى النوم اخيرا !

ولا بد انها قضت الليلة كلها هناك ، لانى حين استيقظت فزعا
كانت خيوط الفجر الاولى تنفذ من خلال النافذة ، وكان السرير
لا يزال دافئا فى موضعها ، ولا بد ان حركة قيامها قد ايقظتنى من
النوم ، فقممت من السرير ونظرت الى داخل المطبخ ، فرأيتها واقفة
فى طريق الباب الخارجى المفتوح .

وارتديت ثيابى على عجل ، ومشيت اليها على اطراف أصابع
قدمى ، فتناولت يدى والتصقت بها ، وكان حقا علينا ان نكون معا
وأن نذهب الى أبى معا . .

وقد وجدناه فى الخارج عند الحظيرة ، فى طرفها القصى حيث
اضاف شين قطعة من الارض لتوسيعها . وكانت الشمس قد
بدأت تشرق من خـلال شق بالجبال ، عبر النهر ، ولم تكن
شمس الظهر الساطعة ، ولكنها كانت ترسل الاشعة المتجددة
المحمرة التى تكون فى باكورة الصباح .

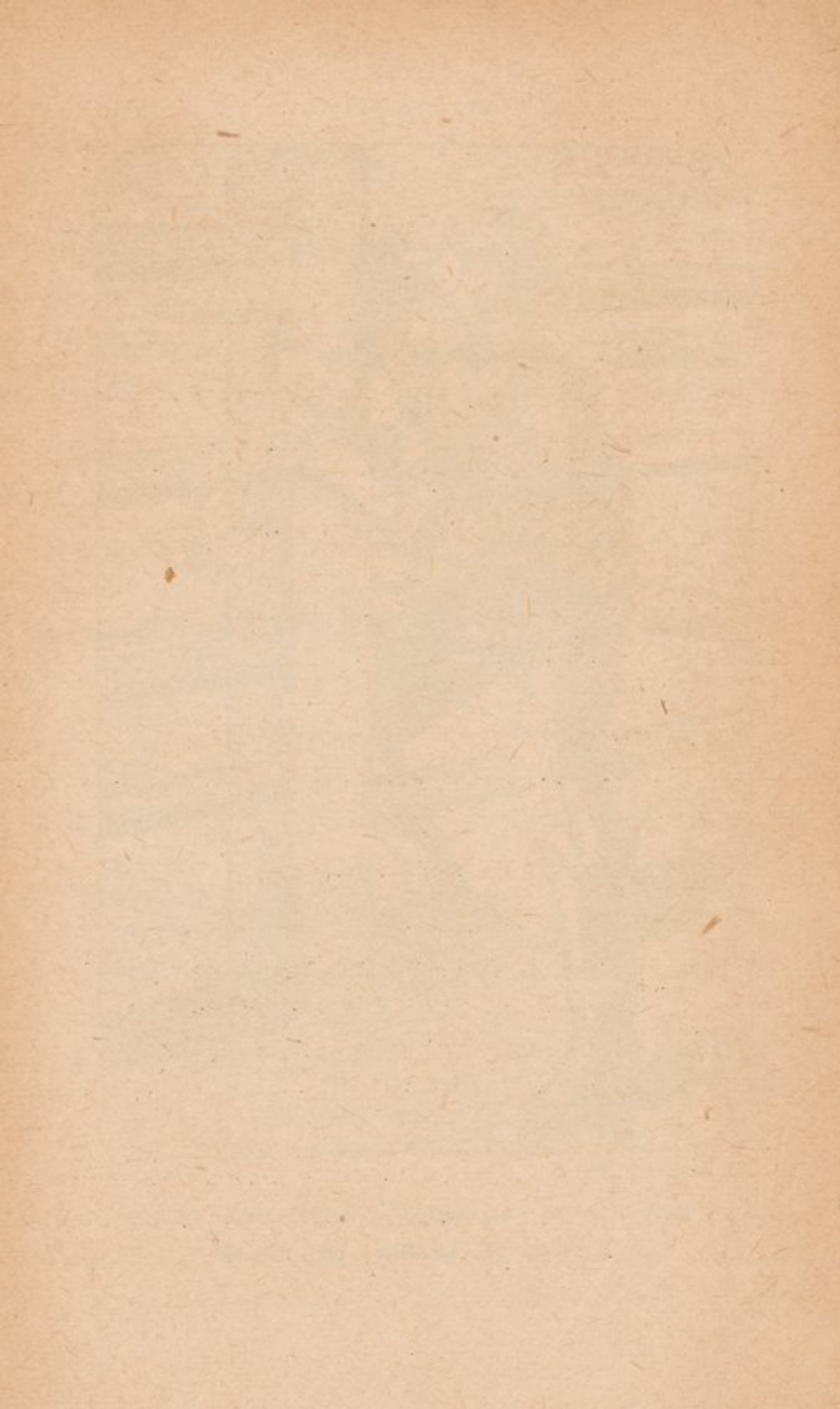
وكان أبى مطبقا ساعديه فوق الحاجز الأعلى للحظيرة ، وقد
أسند رأسه اليهما . ولما التفت الينا ليواجهنا ألقى ظهره الى
الحاجز كأنما يحتاج الى شئ يسند . وكان فى عينيه نظرة
يأس ، وحولهما دائرة معتمة . وقال لأمى :

- يا ماريان : لقد مللت منظر هذا الوادى وكل ما فيه . وانا
اذا حاولت بعد الآن ان أبقي هنا فلن تكون بى حماسة كذى قبل .
انى أعرف أن الامر سيكون شاقا عليك وعلى الغلام ، ولكن لا بد لنا
ان نرحل من هذه الناحية . وربما هاجرنا الى « مونتانا » . فقد
سمعت ان هناك ارضا طيبة لمن يضع يده عليها .

واستمعت أمى اليه حتى فرغ من كلامه . وكانت قد تركت يدى
ووقفت معتدلة القامة ، وقد تملكها الغضب حتى لمعت عيناها وارتعش
ذقنها . ولكنها استمعت اليه حتى النهاية . ثم قالت له
بصوت منفجر يغلبه التأثير أكثر مما يصدر عن غضب : اسمع



« وأمسك بتلك القائمة وأخذي جذبها • ثم هز رأسه ، وثبت قدميه ، وظل يجاهد بها بكل قوته • »



ياجو ! ياجو ستاريت ! اذن تريد أن تهرب من شين حين أصبح
هاهنا حقا ليمكث ويستقر ؟!

— ولكنك لا تدرين الحقيقة ياماريان ! لقد رحل !

— كلا انه لم يرحل ! انه هنا في هذا المكان ، في هذا المكان
الذي أعطانا اياه ! انه حولنا ، وفي افئدتنا ، وسيبقى دائما كذلك !
وجرت الى القائمة الخشبية الطويلة التي في ركن السياج ،
تلك التي كان شين قد وضعها . واخذت تضرب فيها بكلتا يديها .
وقالت : أسرع الى هنا ياجو ! أمسك بهذه ! وحاول ان تخلعها !
فنظر اليها أبي متعجبا . ولكنه فعل كما طلبت اليه . وما كان
لأحد ان يعصى لها أمرا في تلك اللحظة . . وأمسك بتلك القائمة
واخذ يجذبها . ثم هز رأسه . وثبت قدميه وظل يجاهد ما بكل
قوته . وبرزت عضلات كتفيه وظهره حتى حسبت أن قميصه
سيتمزق . وسمع صريف في الحواجز ، واهتزت تلك القائمة
قليلا ، وتراخت تحتها الارض قليلا ، ولكن الحواجز بقيت ثابتة
والقائمة لم تتزحزح من مكانها !

ثم فتركها أبي وقد تصبب العرق فوق وجهه ، فقالت امي : هل
رأيت ياجو ! هل رأيت ما أعنيه ؟ لقد أصبحت لنا جذور هنا ، ونحن
لا يمكننا اقتلاعها !

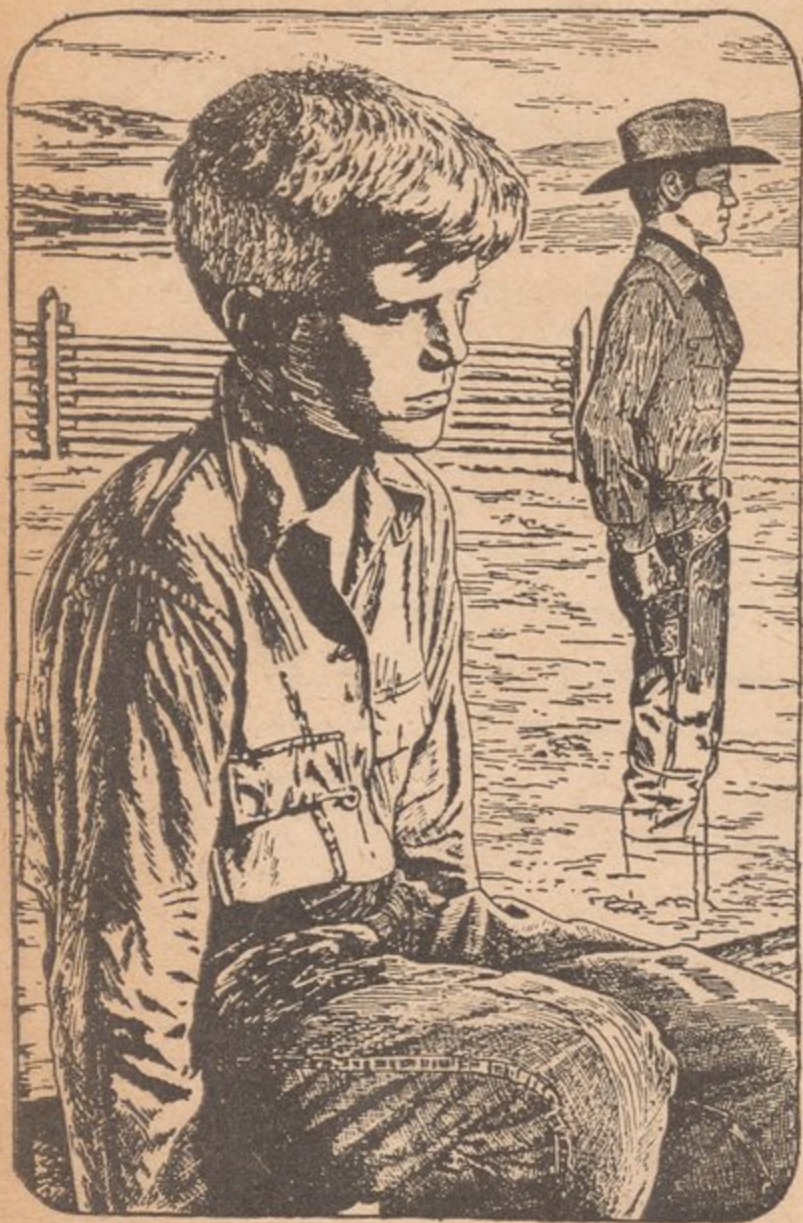
وعندئذ أشرق وجه أبي ، ولاح الصباح في عينيه ، وقد وهبه
لونا مزدهرا بعد شحوب ، كما وهبه ادراكا وأملا جديدين !

أسطورة الوادي

أحسب أن هذا كل ما لدى لاقصه . . . لقد أصبح القوم في
البلدة ، والاطفال في المدرسة ، يحلو لهم الكلام عن شين ، وابتكار
القصص والحكايات عنه ، وافتراس الفروض عن مصيره .
اما انا فلم أكن أفعل شيئا من ذلك قط . ولقد أصبح ما حدث
منه في تينك الليلتين بحانة جرافتون أسطورة ذائعة في الوادي ،
واضيف الى الحقيقة تفاصيل وحواش ، فتمت بها وانتشرت
كما نمت البلدة ايضا وانتشرت على ساحلى النهر . ولكنى لم
اكثر قط ، مهما كان من غرابة تلك القصص من جراء ذكرها مرة
بعد اخرى . لقد كان شين لى ، ولابى وأمى ، ولن يغير من هذه
الحقيقة شىء في العالم .

ذلك ان أمى كانت على صواب ، فقد بقى شين بيننا ، بقى فى دارنا
وأرضنا وانفسنا ! وكلما احتجت اليه وجدته حاضرا . وكنت أغمض
عينى فأراه معى ، وأبصره جلينا ، وأسمع صوته الرقيق من جديد .
وكنت أفكر فيه فى كل لحظة كشفته لى . كنت أفكر فيه بأشد
حماسة ، فى تلك اللحظة الخاطفة التى استدار فيها ليطلق الرصاص
على فلتشر وهو بشرفة حانة جرافتون . وكنت أرى ثانيا
بذهنى ما فى تلك القوة المتجانسة من عظمة ورشاقة وجمال . وكنت
اتمثل الرجل وسلاحه ، وقد اندمجا معا فصارا خطرا رهيبا
واحدا . وكنت اتصور الرجل والاداة ، الرجل الصالح ، والاداة
الصالحة ، وهما يؤديان ما يجب اداؤه من عمل !

وكان ذهنى يعود بى أخيرا الى اللحظة التى رأيته فيها من خلال
الادغال على جانب الطريق ، عند طرف البلدة . فكنت اتصوره ثمة
فى الطريق ، مديد القامة رهيبا فى ضوء القمر ، ذاهبا لى يقتل



« وكلما احتجت اليه وجدته حاضرا • وكنت أغمض عيني فأراه
 معي ، وأبصره جليلا ، وأسمع صوته الرقيق من جديد • »

و يقتل ، ثم يقف فى الطريق ، ليعاون غلاما تعثرت به قدمه ،
ليلقى نظرة على الارض ، تلك الارض الجميلة ، حيث أتيح لذلك
غلام ان يعيش فى صغره ، وان ينمو سليم النفس كما ينبغى
جل !

وحين كنت أستمع الى الرجال فى البلدة وهم يتحدثون عنه فيما
بينهم ، ويحاولون ان يستكشفوا له ماضيا ، كنت ابتسم لنفسي فى
بدوء . . . وقد صدقوا حينما حكاية سمعوها من مسافر غابر ، اذ قال
ان شين كان شخصا يدعى « شانون » اشتهر كلص مسلح
مقامر ، فى نواحي أركانساس وتكساس ، ثم اختفى فجأة عن
الانظار دون ان يدري أحد أين ذهب . ولما نسيت هذه الحكاية
بغير غيرها من حكايات ، جمعت من اقوال متناثرة من مسافرين
أبرين . ولكنى حين كنت اسمع القوم يتحدثون بمثل ذلك عن
مين ، كنت أبتسم ، لانى موقن أنه ليس أحدا ممن زعموهم !

لقد كان الرجل الذى جاء راكبا جواده الى وادينا الصغير
أدما من « الغرب » المسيح المتوقد ، . . . ولما أدى مهمته ذهب من
بيث جاء ! وقد كان شين فحسب !

« انتهت »

DATE DUE

J. LIB.

5 APR 1979

813:S294sA:c.1

شيفر، جاك

شيين: الفارس المجهول

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030240

American University of Beirut



813:S294sA

شيفر

813

S294sA

